الاســـلام وتحديات العصر

الكتـــاب الثـــانى عشر

الدولة الإسلامية

والدولة المعـاصرة

تاليف

دكتور

عبد الغنى عبود

كليـــة التربيـــة جامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

الطبعـــة الأولى

يونيــو ١٩٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ « قالت : ان الملوك اذا دخلوا قــرية افسدوها ، وجعلوا اعزة اهلهــا اذلة ، وكذلك يفعــلون »

(النمــل ـ ٢٧ : ٢٧) .

* * *

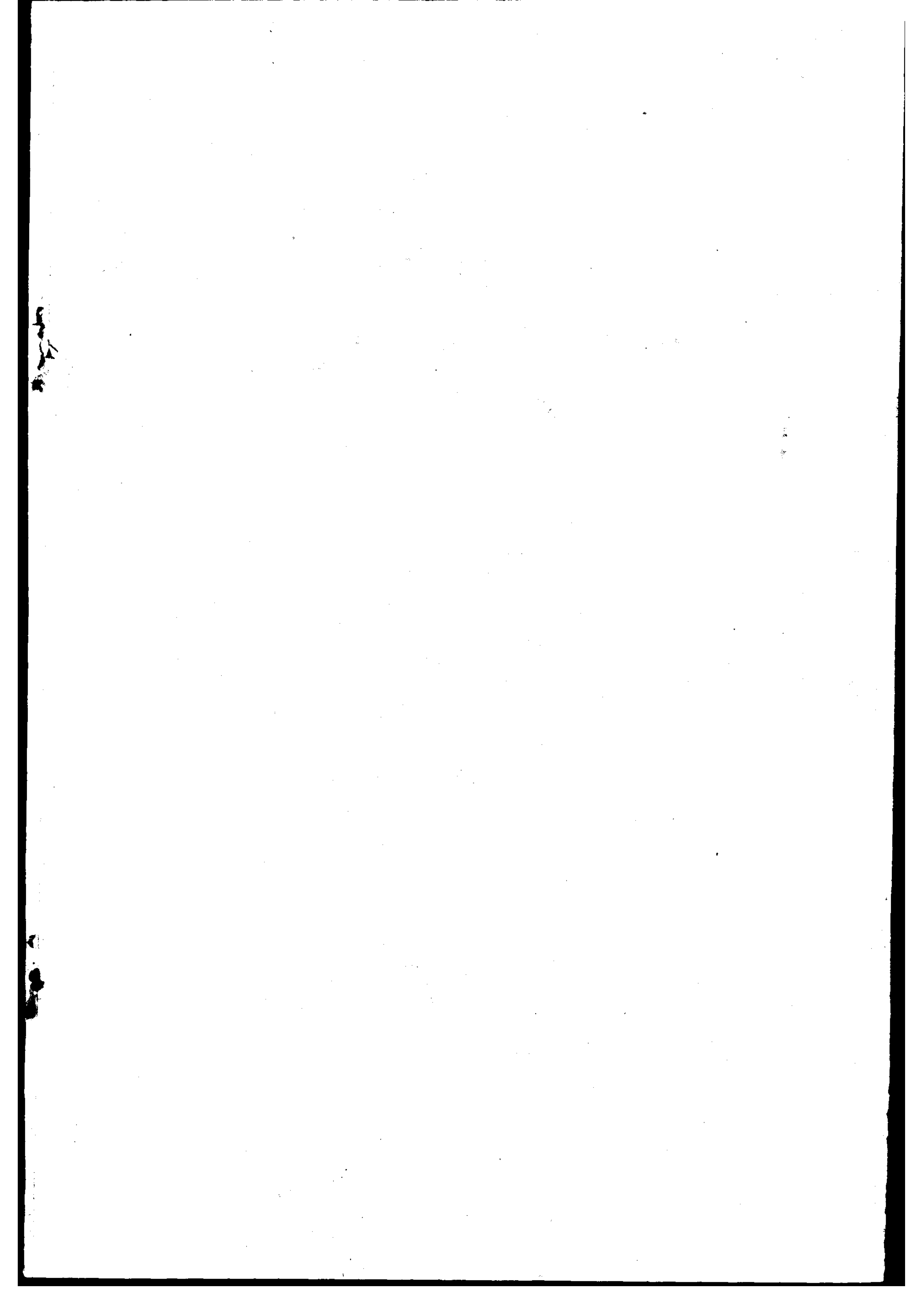
ـ « وان احكم بينهم بمــا انزل الله ، ولا تتبع اهواءهم ، واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك ، فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وان كثيرا من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهليــة يبغــــون ؟ ومن احسن من الله حكما لقــوم يوقنون ؟ »

(المــائدة ـ ٥ : ٤٩ ، ٥٠) .

* * *

ـ « ان يمسسكم قرح ، فقد مس القــوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولهــا بين الناس ، وليعــلم الله الذين آمنــوا ، ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ، ويمحق الكافرين »

(آل عمران ـ ٣ : ١٤٠ ، ١٤١) .



محتويات الكتـــاب

الموضوع	الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

هـــذه السلسلة

ليست هـــذه السلسلة سلسلة دينية بالمعنى التقليدى ، كما يبدو للوهلة الأولى من عنوانها ، وان كان الدين الاسلامى يعتبر محـــورها الأساسى •

ولقد كان الدافع الى اصدار هـــذه السلسلة ، بعيدا كل البعـــد عن الدين ، قريبا كل القرب من العـــلم الخالص •• فى مجال التربية ، الذى تخصصت فيه ، وحوله تدور قراءاتى ودراساتى ، وما أقـــوم به من أبحـــاث •

وصحيح أن الدين ليس حكرا على متخصصين فيه ، كما هو الحال فى الكيمياء والطبيعة والصيدلة والهندسة والأدب واللغة والتربيـــة ، ولكن المتخصـــصين فيـــه ــ بالضرورة ــ أقـــدر على العطـــاء ، وغير المتخصصين فيه لابد أن يكون عطاؤهم أقل ، وبجهد أكبر •

ويعود الدافع الى اصدار هذه السلسلة الى سنوات خلت ، حيث كان يضمنا (سمنار) الدراسات العليا بكلية التربية جامعة عين شمس ، وأراد أحد الدارسين تسجيل رسالة عن (التربية الاسلامية) ، يحصل بهـــا على درجة المـــاجستير فى التربيـــة ، وهالنى رد أحد الزملاء ــ الأساتذة ــ عليه ــ بأنه لا يوجد ــ للأسف ــ تربية اسلامية (١) •

---

(١) الف الزميل كتابا فى (التربيـــة الاســـلامية) ، بعد حوالى اربع سنوات من قوله هـــذا ، وذلك عندما صار (الحصـــان الاسلامى) هو (الحصـــان الرابح) ، فى الساحة العالمية ... كما هو واضح اليـــوم ... بحمـــد الله •

ولم يكن بين يدى الرد ليلتها على الزميل ، ولا قدرة — بالتالى — على مناصرة الطـالب ، ومن ثم أمسكت عن الرد ، حتى يكون بين يدى الدليـــل •

ورجعت الى ما كتب عن (التربية الاسلامية) ، فى الكتب والمجلات العلمية ، فلم أجد فيما كتب متصــلا بالتربيــة الاسلامية سوى •• العنوان ، رغم أن بعض ما قرأته كان لمفكرين اسلاميين •• كبار •

وكان على أن أعتمد على اللــه وعلى نفسى ، فى التصدى لهـــذه المغالطة العلميــة ، التى يقــول بها بعض رجال التربية عن جهــل ، ويسكت عنها البعض الآخر عن قصور •

وجمعت المـادة العلمية فيما يزيد على عام كامل ، وبدأت أنظم هــذه المـادة ، وكتبت بالفعل — على أساسها — كتــابا متكاملا عن (الأيديولوجيا والتربية ، فى الاسلام) ، ولم يكن ينقصه سوى أن يدفع به الى المطبعــة ، ليرى — بعدها — النور ، ويبث — بعدها — نور الحقيقة ، فى قلوب الجاهلين بها ، والمتغافلين لهــا •

ثم عدت الى نفسى ، وقلت لهــا : ولكن المسئوليــة أمام اللــه أكبر من هــذا الجهــد الذى بذلتــه ، فقد كان لابد — فى نظــرى — من مزيد من البحث •

وقلت لنفسى أيضا : ولكن هــذا الجهد الذى بذل كبــير ، وهو جدير بأن يرى النــور •

واستقرت نفسى على أن ألخص هــذا الذى كتبته ، فى ســتين صفحة ، نشرت تحت نفس العنوان ، فى المجلد الثالث من (الكتــاب السنوى ، فى التربية وعلم النفس) ، الذى صدر مع مطلع سنة ١٩٧٦ •

ثم استقرت — بعد ذلك — على نشر هــذا المقــال ، مع مقالين آخرين ، ظهرا فى مجلات علمية أخرى ، عن (التربية الاسلامية) ، فى

كتاب يصدر قريبا تحت عنوان (مقولات فى التربية الاسلامية) [١] ،
نظرا لأن كل مقال من المقالات الثلاثة ، قد صدر — حيثما صدر — مليئا
بالأخطاء المطبعية ، التى أفسدت المعنى الذى كنت أريده فى بعض
المواقف افسادا .

واستقرت نفسى — قبل ذلك وبعده — على أن أعمق مفهومى عن
الاسلام ، وعن (الشخصية القومية الاسلامية) ، فهى المنطلق الحقيقى
للحديث — الصادق — عن (التربية الاسلامية) .

ذلك أننا ندرس نظام التربية فى أى مجتمع ، فى ضوء
(الشخصية القومية) لذلك المجتمع ، وبدون تلك (الشخصية القومية) ،
يكون نظام التربية — فى نظرنا — نحن رجال التربية — معلقا
فى الهواء .

وفى ضوء تلك (الشخصية القومية) ، درست — وتدرس —
التربية فى البلاد الرأسمالية عموما ، وفى كل بلد منها ، كما تدرس
التربية فى البلاد الشيوعية عموما ، وفى كل بلد منها .

وفى ضوئها كذلك ، درست — وتدرس — التربية المسيحية ،
والتربية اليهودية .

أما التربية الاسلامية .. فلم تجد حتى الآن — فى حدود علمى —
من درسها هذه الدراسة العلمية المنهجية .

ومن ثم كان هناك من يقول ، بأنه لا توجد تربية اسلامية ، لأن
الشخصية الاسلامية اليوم ، شخصية ، لا هى الى الاسلام تنتمى ،
ولا هى عن الاسلام تعرف الكثير ، ومن ثم صارت تلك الشخصية شرا

---

(١) صدر الكتاب بالفعل ، بعد الطبعة الأولى لكتاب السلسلة الثانى ، تحت عنوان (فى التربية الاسلامية) ، ونشرته دار الفكر العربى سنة ١٩٧٧ ، وضم الى جانب المقال المذكور فيه ، مجموعة مقالات ، كانت قد نشرت فى مجالات علمية مختلفة ، بمناسبات مختلفة ، تدور كلها حول هذا المحور ، الذى اتخذ عنوانا للكتاب .

على الاسلام ، وخطرا عليه ، أكبر من الشر والخطر الذى يستطيعه أعداء الاسـلام أنفسهم •

ومن ثم فالشخصية القومية الاسلامية المعاصرة ، لا يمكن أن تكون هى المدخل الصحيح لفهم التربية الاسلامية ، وانمـا المدخل الصحيح لهـا ، هو تلك الشخصية القومية الاسـلامية ، فى عصـور الاسلام الأولى •

ولو عاد المسلمون الى فهم الاسـلام من جـديد ، كما يجب أن يفهم ، لعـادوا الى أنفسـهم ، وعادت اليهـم قوتهـم وعزتهـم •• وحضارتهم ، خاصة وأن الدراسة التى قمت بها ، أكدت لى أن الاسلام قادر على مواجهة (تحديات العصر) ، وأن المسلمين — بالاسـلام — قادرون على مواجهة تلك التحديات ، وأنهم — بدونه — عاجزون •

ومن ثم يكون الهـدف من السلسلة •• تربويا خالصا •

ولكنه هدف •• دينى أيضا •

فالمسلمون اليـوم ، بفعل عوامل متعـددة ، لا يعرف الكثيرون منهم عن الاسلام الكثير ، وهم يعرفون عنه ما يعـرفه غيرهم لهم ، لا ما يجب أن يعـرفوه بأنفسـهم ، من مصادره الصحيحة : الكتاب والسـنة •

بينما هم يعرفون عن النظم والفلسفات المعاصرة •• ذات البريق — الأخاذ — الكثير والكثير •• لأن غيرهم أراد ذلك لهم •• بفعل عوامل متعددة كذلك •

والوظيفة الرئيسية لهـذه السلسلة هى : أن تضع الاسـلام — بجوانبه المتعددة — وجها لوجه — أمام النظم والفلسفات المعاصرة •• لنرى : أيهـا أقدر على مواجهة تحديات العصر •

وعندما يكتشف المسـلم ، أن اسـلامه هو القادر على مواجهـة تحديات العصر ، وأن الفلسفات والنظم المعاصرة ، ان هى الا ألوان

من العــلاج مؤقتة .. مفلسة ، فانه ــ لابد ــ سيعود الى نفسه ، ويصالح دينــه ، ويقــرأ عنه ، ويقف على ما فيه .. وقوفه على ما فى الفلسفات المستوردة ، ذات البريق الأخاذ .. الخادع .

وعند هــذا الحد ، تقف رسالة السلسلة .

ومن هنا قلت وأصررت ، على أنهــا ليست سلسلة دينية بالمعنى التقليــدى .

ومن أراد الدين بالمعنى التقليــدى ، فكتبه معروفة ، وكتــابه معروفون .

ولكن المسلمين الذين أكتب هــذه السلسلة لهم ، ليسوا مستعدين منذ البداية ، لأن يضــيعوا وقتــا فى قراءة تلك الكتب الدينية ، وفى القــراءة لهؤلاء الكتــاب المعروفين ، لأن الاسلام ــ كما فهمــوه ــ لا يصح أن يضيعوا فيه وقتــا ، يضيعون أكثر منه فى المذاهب ذات البريق .. الخــداع .

وبعد اتضاح (معــالم الشخصية القومية) الاسلامية ، مقارنة بمعالم (الشخصيات القــومية) الأخــرى ، التى نراها فى ظــل الأيويولوجيات المعاصرة ، من زوايا عديدة .. وذلك خــلال هــذه السلسلة ، سوف أعود من حيث بدأت ، فألخص ما وصلت اليه ، وأتخذ منه منطلقا للحديث عن (التربية الاسلامية) .

والجهد الذى يجب أن يبــذل فى اعداد هــذه السلسلة كبــير ، والجهد الذى يجب أن يبذل ــ بعدها ــ فى الحديث عن (التربيــة الاسلامية) كبير .. ولكن الهدف الذى تحققه السلسلة ، والدراســة الخاصة بالتربية الاسلامية ــ بعــدها ــ فى نظرى ــ أكبر وأعظم ، وفى سبيله تهــون الصعاب ، وعلى اللــه قصد السبيل .

دكتور عبد الغنى عبــود

القــاهرة فى :

ــ جمادى الأولى ١٣٩٦ هـ .

ــ مايــو ١٩٧٦ م .

وهـــذا الكتـــاب .. الثانى عشر

لم يكن اقتحام موضوع (الدولة الاسلامية) ، للكتـــابة عنه ، بالأمر السهل الميسر منذ البـــداية ، تماما كما كان اقتحام موضـــوع (الحضارة الاسلامية) ـــ موضوع الكتاب السابق من كتب السلسلة ، قبـــله .

ومرجع الصعوبة فى معالجة مثل هذين الموضوعين فى نظـــرى ، هو أن كلا من الدولة الاسلامية ، والحضارة الاسلامية ، ماض عاشـــه أجدادنا ، ولم يتح لنـــا نحن أن نعيش ، أكثر من .. ذكراه .

ومن ثم سيكون صعبا ، على من يعالج سلسلة كسلسلة (الاسلام وتحديات العصر) ، الذى تهتم (بحاضر) الاسلام والمسلمين ، أكثر مما تهتم بالتاريخ المـــاضى ، له ولهم .. أن (يثبت) أن الاســـلام قادر ـــ بالفعل ـــ على مواجهة (تحديات العصر) ، كما حددت السلسلة هدفها منذ البداية .

ومع ذلك ، فقد كانت هـــذه الصـــعوبة ، هى التى قادت الى (معالجة) جديدة ، لقضية الحضـــارة ، فى الكتـــاب السابق من كتب السلسلة ، ثبت أنها أضفت على الموضوع برمته ، رونقا ، وأضافت اليه جديدا ـــ كما كان صدى الكتـــاب ، بعد طرحه فى الأسواق ، وتداوله ، والأثر الذى تركه فيمن قـــرأه .

وكان ذلك مشجعا لى ، على أن أنحـــو نفس المنحى الجـــديد ، أو المعالجة الجديدة ، فى معالجة قضايا كتابنا الحالى ـــ كتاب (الدولة الاسلامية) .

وأعتقد أن فصول الكتاب الحالى ، تعكس الجديد فى هذه المعالجة، بمـــا لا يدع مجالا للشك .

فقد دار الفصل الأول ، حول (معنى الدولة) ، لغويا واصطلاحيا، والجـذور التاريخية لهـا ، ودور الدين فى ارساء دعائمها •

ودار الفصل الثانى حول (الدولة •• عبر التاريخ) ، متنقلا مع الدولة ، من حضارة قديمـة الى أخرى ، ومؤكدا ـ بالتـالى ـ لمعنى الدولة ، الذى رأيناه فى الفصل الأول •

ثم انتقل الفصل الثالث ، الى الدولة المعاصرة ، بادئا (بالدولة فى الغرب الرأسـمالى) ، التى اتخذت عنوانا للفصل ، وحولها دار الفصل كلـه •

وانتقل الفصل الرابع الى (الدولة فى الشرق الشيوعى) ، التى اتخـذت عنوانا للفصل ، وحولها دار الفصل كلـه •

وبذلك أكد الفصلان الثانى والثالث ، ما ورد فى الفصلين الأول والثـانى ، من تعـريف للدولة ، وتحـديد لمعالمها ، وبيان الأساس (الدينى) ، الذى يجب أن تقـوم عليه •

ثم ننتقـل الى الفصل الخامس والأخـير من الكتاب ، عن دولة الاسلام ، لنراها قائمـة فى القلوب والعقول ، وواقعا حيا يعيشـه المسلمون ، فى كل مكان ، رغم أنف الحاقدين على الاسلام ، والمتربصين به وبالمسلمين ، فى كل مكان ، وما أكثرهم ـ ورغم أنف عمـلاء هؤلاء الحاقدين والمتربصـين بالاسـلام وبالمسلمين ، ممن يحسـبون على الاسلام ، فى داخل بلاد المسلمين •

بل ان هـذه (الدولة الاسـلامية) ، النابضة بالحياة فى قلوب المسلمين ، وفى واقع حياتهم •• على عكس ما يراه قصار النظر •• هى وحدها القائمة على أساس ثابت متين ، تحسدها عليه الدولة ، فى الغرب والشرق على السواء •

وتعود قوة هـذا (الأساس) ، الذى تقـوم عليـه الدولة الاسلامية ، الى قوة العقيدة الاسلامية ، وتغلغلها فى النفوس والعقول

والقلوب ، مما يجعلها تفعل فعلهـا فى تحقيق وجود هـذه الدولة ، بالرغم من المؤامـرات المستمرة عليها ، فى خارج حـدود العـالم الاسلامى ، وفى داخل هـذه الحدود .

ألا ترى معى — عزيزى القـارىء — أنها معالجة جديدة ؟

وكان منطقيا فى هـذه المعالجـة الجـديدة ، أن أدع كثيرا من التفصيلات ، التى فاضت بها كتب الفقـه ، وكتب القـانون ، بفروعه المختلفة ، فليس هدف السلسلة — كما ألفتها أنت من خـلال متابعتك لكتبها — أن تكون ترديدا لكلام يقال ، ولا تلخيصا لهـذا الكلام ، وانمـا هدفها محدد فى مقدمتها ، التى تسبق تقديم كتابها الثانى عشر هـذا — كما تسبق تقـديم أى كتـاب سبق من كتبهـا — وهو أن تثبت « أن الاسـلام قادر على مواجهـة (تحـديات العصر) ، وأن المسلمين — بالاسلام — قادرون على مواجهة تلك التحديات ، وأنهم — بدونه — عاجزون »[1] .

ومن ثم تعرض هـذا الكتاب الثـانى عشر من كتب السلسلة ، لكثير من المسائل والموضوعات ، التى ترد فى كتب الفقه والقانون تلك ، متصلة بالدولة ، ولكنـه لا يتعرض لهـا ، بنفس (المنهجية) ، التى تتعرض بها لهـا ، بل (بمنهجية) جديدة ، تحقق الغرض من هـذا الكتـاب ، بوصفه مجرد (حلقـة) من حلقـات هـذه السلسلة : الاسـلام وتحديات العصر .

وبعبارة أخرى : ان ما تجـده موجـودا فى كتب الفقـه وكتب القـانون ، يمكن أن تجـده موجودا هنـا ، لا كما هو فيها ، ولا تحت العنوان المختار لهـا هنـاك ، ولكن تحت عنوان آخـر ، وبطريقـة أخرى ، تحقق الغرض من الكتاب ، والغرض من السلسلة .

---

(١) ارجع الى ص ١٠ من هذا الكتاب .

ولا أدعى أنى قد سلكت السبيل الأمثل ، ولا استخدمت المنهج الأصح ، ولكنى أستطيع أن أدعى بأنى قد اجتهدت غاية الاجتهاد ، فى أن يخرج هذا الكتاب ، على الصورة التى خرج عليها اخوته الأحد عشر الذين سبقوه على طريق السلسلة ، ان لم يكن على صورة أكثر تشريفا ، كان يساعدنى فيها بطبيعة الحال ، ما اكتسبته من خبرة مع الأحد عشر السابقين .

وأرجو أن أكون قد وقفت فى تحقيق الهدف ، وعلى الله سبحانه — وحده — قصد السبيل .

دكتور عبد الغنى عبود

القاهرة فى :
— شعبان ١٤٠١ هـ .
— يونيو ١٩٨١ م .

الفصل الأول

معنى الدولة

تقـــديم :

يعتبر لفظ الدولة State من الألفاظ الحديثة العهد عموما ، اذ هو يعود الى منتصف القرن الثامن عشر تقريبا ، حيث ظهر مفهوم القوميات Nationalities ، اثر الثورة الصـــناعية ، وما تلاهـــا من توســـع استعمارى ، بحثا عن المواد الخام والأسواق •

وقـــد تطورت بلاد أوربا بعد الثورة الصناعية والثورة القومية ، بحيث صار واضحا لدى الجميع فيها ، ذلك الفرق بين الدولة State والأمة Nation ، والشعب People ، والمجتمع Society ، والبلد Country — وهو ما لا يزال يعوز لغتنا العربية ، التى لا نجد كتابها يستخدمون اللفظ المطلوب ، الذى يؤدى بالفعـــل الى ما يقصدون الى توضيحه ، فقد يستخدم أحدهم الدولة ، ويقصـــد الأمة ،أو البلد ، أو المجتمع •

وربمـــا كان الأمر مقبولا بعض الشىء ، لو أن هـــذا الخلط بين الألفاظ ، اقتصر على الصحافة والكتابات الدارجة ، ولكن ما يؤلم فعلا ، هو أن هـــذا الخلط يتعـــداها •• الى الكتابات العلمية ، فى تخصصات كثيرة ، كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية •

وربما كان للكتاب العرب عذرهم فى هذا الخلط ، حيث حداثة العهد بهـــذه الألفاظ ، فى العـــالمين العربى والاســـلامى ، وحيث لا زالت (المصطلحات الحديثة) فى شتى مجالات التخصص — لا زالت تمثل مأساة ، لا ندرى : متى تقتحمها المجامع اللغوية والعلمية •• لتقـــدم لهـــا حـــلا •

وكلّ ذلكَ يفرض علينا ، أن نبدأ بتحديد معنى الدولة ـــ موضوع الكتاب ـــ حتى نكون على بينة من أمرنا •• منذ البداية •

المعنى اللغـــوى للدولة :

لم ترد كلمة الدولة فى معاجم اللغة العربية القديمة ، بلفظهـــا ، وانمـــا ورد أصلهـــا ـــ فعلهـــا ـــ (دال) ، بمعنى (دار) ، يقـــال « (دالت) الأيام ، أى دارت ، والله (يداولها) بين الناس ، و (تداولته) الأيدى ، أخذته هذه مرة ، وهذه مرة » (١) •

هذا ، بينما نرى (الدولة) واردة بلفظها ، فى اللغتين الانجليزية والفرنسية ، على سبيل المثال •

فالدولة فى اللغة الانجليزية State ، تعنى « الحالة » ، أو « الأمة » (٢) ، كما تعنى الدولة Etat فى اللغة الفرنسية « حالة » (٣) •

وترد كلمة (الدولة) فى معاجم اللغـــة العربية الحديثة ، متأثرة فى ذلك بطبيعـــة الحال ، بالمعاجم اللغوية الأجنبية ، وبظروف العصر ، وما فرضته من ألفاظ لغوية ، لم تكن تستخدم فى حيـــاة العرب ، قبل هـــذا العصر •

وتعنى (الدولة) ـــ فى هذه المعاجم اللغوية ـــ العربية الحديثة ـــ مجموع ما تعنيه فى معاجم اللغة العربية القديمـــة ، ومعاجم اللغـــات

---

(١) مختار الصحاح ، للشيخ الامام ، محمد بن أبى بكر بن عبدالقادر الرازى ـــ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البـــابى الحلبى واولاده بمصر ـــ ١٣٦٩ هـ ـــ ١٩٥٠ م ، ص ٢٣٦ •

(2) WEST, MICHAEL PHILIP and ENDICOTT, JAMES GARETH : The New Method English Dictionary; Revised Edition, Longmans, Green and Co., London, 1947, p. 292.

(3) SAISSE, LOUIS et CHEHATA, ISKANDAR : Vocabulaire, Francais — Arabe; Longmans, Green and Co., London, 1951, p. 140.

الأجنبية ، معا ، فهى تعنى « دورة الزمان وانقلابه » (٤) ، كما تعنى « حكومة — العائلة الحاكمة — مملكة » (٥) .

وقد تزيدنا هذه المعاجم تفصيلا ، فتعطينا كل المعانى المحتملة أو الممكنة للكلمة ، مثل « (١) الحال — الحالة ، الشأن . (٢) المنزلة ، المكانة . (٣) الرتبة — المرتبة . (٤) الدولة . (٥) الحكومة . (٦) الجمهور . (٧) الولاية . (٨) السلطة المدنية » (٦) .

وقد أحسن المعجم الوسيط (أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة) تلخيص هذا الكم الهائل المتناثر من المعانى ، وتجميعه حول معنى واحد ، هو « جمع من الناس ، مستقرون فى اقليم معين الحدود ، مستقلون وفق نظام خاص » (٧) .

فالدولة فى هذا التعريف الجامع ، تعنى الأمة ، المستقرة فى أرض محدودة ، (محكومة) بظروف الزمان والمكان ، (مستقلة) بحكم هذه الظروف ، عن غيرها من الأمم ، ومستقلة — أيضا — بهيكل بنائها الداخلى — أو نظام الحكم فيها .

وسوف نرى أن المعنى الاصطلاحى للدولة ، قائم على هذا التعريف اللغوى الجامع للدولة .

---

(٤) الياس انطون الياس ، وادوار ا. الياس : القاموس العصرى ، عربى / انكليزى — الطبعة التاسعة — المطبعة العصرية بمصر — ١٩٧٠ ، ص ٢٢٧ .

(٥) المرجع السابق ، والصفحة السابقة .

(6) BADRAN, MOHAMMAD and KHORSHID, I. ZAKI : Al-Nahda Dictionary, English - Arabic, Compiled, by : ISMAIL MAZHAR; The Renaissance Bookshop, p. 2106.

(٧) المعجم الوسيط — قام باخراجه : ابراهيم مصطفى وآخرون — واشرف على طبعه : عبد السلام هارون — الجزء الأول — مجمع اللغة العربية — ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م ، ص ٣٠٤ .

المعنى الاصطلاحى للدولة :

اذا أطلق لفظ (الدولة) فى العصر الحديث ، فان الفكر ينصرف فورا الى الحكومة — أو الهيئة الحاكمة ، أو الادارة — فى بلد معين •

ولا يعنى ذلك غياب الأمة ، أو الأرض ، أو ما اليهما ، عن التفكير ، عند اطلاق اللفظ ، وانمـا هو يعنى أن كل شىء فى المجتمعات الحديثة ، ومنذ ظهور الدولة القومية ، بعد الثورة الصناعية ، حيث صارت هناك (حدود) تفصل بين كل مجتمع وآخر — صارت الهيئة الحاكمة ، (تنوب) عن مواطنيها ، فى أمور كثيرة ، داخل البلاد وخارجها ، وصار الفصل بين الأمة ، والهيئة التى تحكمها ، أمرا بالغ الصعوبة • يضـاف الى ذلك ، أن « للكلام فى نظام الحكم ، فى أمة من الأمم ، لا يقف عنـد الفكرة العامة عن الحكم » ، « بل هو يتناول أمورا كثيرة » — « يتناول النظام الاقتصادى ، والنظام الخلقى ، والنظام الاجتماعى ، وألوانا أخـرى من النظم » (٨) •

أى أن نظام الحكم اليوم ، ليس مسألة حكم وادارة ، وانما هـو تعبير حى ، عن (الشخصية القومية) للأمة ، أو على حد تعبير الرسول الكريم : « كيفما تكونوا ، يول عليكم » •

ذلك أن لكل أمة من الأمم (شخصيتها) ، التى تميزها عن غيرها من الأمم(٩) ، سواء سميت هذه الشخصية المتميزة ، بالشخصية القومية National Character ، كما يطلق عليها العلمـاء المعاصرون (١٠) ،

---

(٨) الدكتور محمد حسين هيكل : الحكومة الاسلامية — دار المعارف بمصر — ١٩٧٧ ، ص ٢٧ •

(٩) دكتور عبد الغنى عبود : الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنة — الطبعـة الثالثـة — دار الفكر العـربى — ١٩٨٠ ، ص ١٠٩ ، ١١٠ •

(١٠) ارجع مثلا الى :

— HANS, NICHOLAS : Comparative Education, A Study of Educational Factors and Traditions; Third Edition, Routledge and Kegan Paul Limited, London, 1958, p. 10.

أو سميت (بالكائن الروحى) ، كما أطلق عليها مصطفى صادق الرافعى ، واعتبر هـذا (الكائن الروحى) ، « حقيقـة الأمة » ؛ التى لا يراها ، « فى هـذا الظاهر ، الذى يبـدو من شعب مجتمع ، محكوم بقوانينه وأوضاعه ، ولكن تلك الحقيقة ، هى الكائن الروحى ، المكتن فى الشعب ، الخالص له من طبيعته ، المقصور عليه فى تركيبه ، كعصير الشجرة ، لا يرى عمله ، والشجرة كلها هى عمله .

وهـذا الكائن الروحى ، هو الصورة الكبرى للنسب ، فى ذوى الوشيجة من الأفراد ، بيد أنه يحقق فى الشعب قرابة الصفات ، بعضها من بعض ، فيجعل للأمة شأن الأسرة ، ويخلق فى الوطن معنى الدار ، ويوجد فى الاختلاف نزعة التشابه ، ويرد المتعـدد الى طبيعة الوحدة ، ويبدع للأمة شخصيتها المتميزة » .

« والخلق القوى ، الذى ينشئه للأمة كائنها الروحى ، هو المبادىء المنتزعة من أثر الدين واللغة والعادات ، وهو قانون نافذ ، يستمد قوته من نفسه ، اذ يعمل فى الحيز الباطن ، من وراء الشعور ، متسلطا على الفكر ، مصرفا لبواعث النفس » [11] .

ويرى أسوالد اشبنجلر ، فيما يتصل بهذه (الشخصية القومية) ، وعلاقة (الدولة) (بالأمة) فيها ، أنه « بين الانسان البدائى والفلاح ، يقـع تاريخ الحضـارة العظمى . والشعب الذى يعيش وفق أسلوب الحضارة — وهذا هو الشعب التاريخى — يدعى أمة . وتمتلك الأمة ، بوصفها شيئا حيا مقاتلا ، دولة ، وهذه الدولة ، لا تكون فقط ، وصفا لحركة ، بل انما هى (وقبل كل شىء آخر) ، فكرة » .

« فالشعب ، بوصفه دولة ، والأهل ، بوصفهم عائلة ، يكون هو وهم (فى شكل لائق) » ، « وهذا هو الفرق بين التاريخ السياسى ،

---

(١١) مصطفى صـادق الرافعى : وحى القـلم — الجزء الثالث — الطبعة السابعة — المكتبة التجارية الكبرى ، ص ٣٥ .

وبين التاريخ الكونى Cosmic ، بين الحيــاة العــامة ، وبين الحيــاة الخاصــة » (١٣) •

ولعــل رفاعة الطهطاوى أكثر توفيقا فى تعبيره عن (العــلاقة العضوية) ، بين (السياسة العــامة) و (السياسة الخاصة) ، حين يقسم السياسة الى « خمسة أقسام :

« الأول : السياسة النبوية » •

« الثانى : السياسة الملوكية ، وهى حفظ الشريعة على الأمة ، واحياء السنة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر •

الثالث : السياسة العامة ، وهى الرياسة على الجماعات » •

« الرابع : السياسة الخاصة ، وتسمى السياسة المنزلية » •

« الخامس : السياسة الذاتية ، وهى تفقد الانسان أفعاله وأحواله وأقواله وأخلاقه وشهوته ، وزمها بزمام عقله » (١٣) •

ويرى اشبنجلر ، أن «الطابع المميز لرجل الدولة ، هو أن تكون له عين واثقة نفاذة ، الى نفوس الجمهور ، الذى يتشكل وينحل ، على مد الأزمان وجزرها » (١٤) •

وهنا يفرق اشبنجلر بين ما « اذا كان رجل الدولة ، هو ذاك الذى يستطيع أن يسيطر على الجمــاهير ، أو أنه من أولئك الذين تجــرفهم

---

(١٢) اسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية — الجزء الثالث — ترجمة أحمد الشيبانى — منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت — ١٩٦٤ ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ •

(١٣) « كتاب مناهج الألباب المصرية ، فى مباهج الآداب العصرية » — من : **الأعمال الكاملة ، لرفاعة رافع الطهطاوى** — دراسة وتحقيق : محمد عمــارة — الجزء الأول (التمدن والحضارة والعمران) — الطبعة الأولى — المؤسسة العربية ، للدراسات والنشر — بيروت — آيار (مايو) ١٩٧٣ ، ص ٥١١ ، ٥١٢ •

(١٤) اسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية — الجزء الثانى — ترجمة أحمد الشيبانى — منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت — ١٩٦٤ ، ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ •

الجماهير ، بتياراتها » [١٥] •

وسواء كان رجل الدولة ، من ذلك النوع الذى يستطيع أن يسيطر على جماهيره ، أو من النوع العاجز عن هـذه السيطرة ، فيضطر الى الانحراف ••• فانه — فى الحالين — يعبر عن أمته ، ولا يتحدث باسمه ، فان السياسة — فى عالمنا المعاصر — على حد تعبير اشبنجلر — « هى الحياة ، والحياة هى السياسة • فكل انسان مرغم على أن يكون عضوا فى دراما المعركة هـذه » [١٦] • ثم « ان السياسة ، هى الشكل الذى يتحقق فيه تاريخ أمة ، بين تعددية من أمم • وهى الفن العظيم ، للحفاظ على الأمة ، (فى شكل لائق) ، باطنيا ، استعدادا للأحداث الخارجية ، وهذه هى العلاقة الطبيعية ، بين السياسة الداخلية والخارجية » [١٧] •

ثم ينتقل اشبنجلر من السياسة (أو شئون الدولة) الى (رجل الدولة) ، فيرى أن « رجل الدولة ، يتوجب أن يكون ، الى حد بعيد ، مربيا — ولا أعنى هنا ممثلا لأخلاق أو عقيدة ، بل أعنى قدوة تحتذى فى العمـل » [١٨] •

ويعترف اشبنجلر بأن « وجـود رجـل الدولة العظيم ، أمـر نادر » [١٩] ، ولكنه يرى أن (رجل الدولة العظيم) هذا ، ليس مطلبا للدولة ، لأنه فى كثير من الأحيان ، يدمر الأفراد العظام ، أكثر مما شيدوا وبنوا — وذلك نتيجة للثغرة ، التى تحدثها وفاتهم، فى دفق الحدوث» [٢٠] • وكل ما تطلبه الدولة — فى نظره — هو مجرد « رجل دولة ، من طراز رفيع » ، « لا يخدع نفسه ، فيما يتعلق بهذا الأمر ، فواجبه أن يعمل داخل الشـكل التاريخى ، وبواسطته ، والشكل الذى يجـده قائما

---

(١٥) المرجع السابق ، ص٢٤٨ •
(١٦) اسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية — الجزء الثالث (المرجع الأسبق) ، ص ٢٤٠ •
(١٧) المرجع السابق ، ص ٤١٩ •
(١٨) المرجع السابق ، ص ٤١٢ •
(١٩) المرجع السابق ، ص ٤١٤ •
(٢٠) المرجع السابق ، ص ٤١٤ •

وموجودا . والانسان النظرى ، هو وحده الذى يبحث بحميا وحماسة ، عن المزيد من الأشكال المثالية » (٢١) .

وكأنه يريد أن يقول ، بعبارة أخـــرى ، أن رجل الدولة المثـــالى فى نظره ، هو ذلك الرجل الذى يتخلى عن المثالية ، بمعناها الفلسفى ، لينزل الى (واقع) مجتمعه ، ويعيش هذا الواقع ، ويخلق « تقليدا ، يجعله ساريا عند الآخرين ، كى يستطيع عمله أن يستمر بنبضه وروحه ، بغية اطلاق تيار من نشاط ، مشابه لنشاطه — تيار لا يحتاج الى القائد الأصلى ، كى يحافظ عليه ، فى شكل لائق » (٢٢) .

ويتطلب قيام (رجل الدولة) بمثل ذلك ، أن يكون ذكيا ، بحيث يكون « قبل كل شىء ، مقيما — مقيما للرجال والأوضاع والأشياء ، وله (عـــين) تحيط ، بدون تردد وانحـــراف ، بالامكانات ، من جميـــع جهاتهـــا » (٢٣) .

ومن ثم يكون (رجل الدولة) العظيم ، هو ذلك الرجل ، القـــادر على أن (يتجســـد) شخصية أمته أو شعبه ، ويتحدث باسمها ، معبرا فى حديثه هذا ، عن تراثها المـــاضى ، وعن واقعها المـــاثل ، وعن تطلعات مستقبلها — أى القادر على أن يقود مسيرتها الى مستقبل .. مأمول مأمـــون .

وفى عهد هـــذا الرجل العظيم .. لابد أن تكون الدولة هى الأمة ، وأن تكون حال الدولة ، بحيث تعكس حال الأمة بكاملها ، على نحو ما وضحت لنا معاجم اللغة ، فى مطلع هذا الفصل (٢٤) .

ورغم ذلك ، يظل للدولة معناها المتفرد ، المستقل عن معنى الأمة ، أو المجتمع ، أو البلد ، أو الشعب ، وحول هذا المعنى المتفرد ، يدور هـــذا الكتاب كله .

---

(٢١) المرجع السابق ، ص ٤١٨ .
(٢٢) المرجع السابق ، ص ٤١٣ .
(٢٣) المرجع السابق ، ص ٤١٠ .
(٢٤) ارجع الى ص ١٧ — ١٩ من الكتاب .

الجذور التاريخية للدولة :

يرى علماء الأنثروبولوجى ، أن الانسان ، هو مجرد « حيوان ، أو كيان Organism ، رغم أنه — أيضا — مخلوق متحضر ، له تاريخ ، وقيم اجتماعية » (٢٥) ، وأن ثقافة المجتمع « تسمو » « فوق مستوى الفرد ، فى قدرتها على تخليد نفسها ، وعلى البقاء بعد انقراض أى من الشخصيات التى تسهم فيهـا » ، وذلك « بسبب دورها المسيطر ، فى تكوين شخصيات الأفراد الجدد ، الذين وقعوا تحت تأثيرها ، لأنهم ولدوا فى مجتمع معين » (٢٦) •

ويستطيع الانسان — فى نظرهم — أن يتشكل وفق حياة الجماعة ، من خـلال حواسه ، التى تعتبر « المسالك الأولية ، التى عن طريقهـا ينتسب الفرد الانسانى ، للعالم المحيط به » (٢٧) •

ويكاد هـذا الاحساس (بالذوبان) فى الجماعة ، احساسا يلغى الوجود (الفردى) عند الانسان ، أن يبلغ ذروته ، فى المـاركسية ، وفى المدرسة الشيوعية فى علم النفس ؛ فعند « كارل ماركس ، لا يكاد الفرد يتميز بكيان متفرد » (٢٨) ، على نحو ما سنرى ، عند حديثنا عن (الدولة فى الشيوعية) ، فى ختام الفصل الثانى — التالى ، باذن الله •

ولا نناقش الآن ، مدى حاجة الانسان الى (الجماعة) الانسانية ، ومدى عجزه عن (الانفراد) بحياته ، ومدى (تناقض) هذا العجز ،

---

(25) KROEBER, A. L. : Anthropology (Race, Language, Culture, Psychology, Prehistory); Revised Edition, Harcourt, Brace and Company, Inc., 1948, p.1.

(٢٦) رالف لنتون : دراسة الانسان — ترجمة عبد الملك الناشف — منشورات المكتبة العصرية — صيدا — بيروت — ١٩٦٤ ، ص ٣٨٥ •

(٢٧) فيليب هـ • فينكس : فلسفة التربية — ترجمة وتقديم الدكتور محمد لبيب النجيحى — دار النهضة العربية — ١٩٦٥ ، ص ٤٧٨ •

(٢٨) دكتور صلاح مخيمر ، وعبده ميخائيـل رزق : سيكولوجيـة الشخصية ، دراسة الشخصية وفهمها — مكتبة الانجلو المصرية — ١٩٦٨ ، ص ١٧٢ •

وتلك الحاجة ، مع ما (يجب) أن يتحلى به الفرد الانسانى ، من حرية فى تصريف أموره ، فتلك أمور عالجناها فى كتب سابقة من السلسلة ، لعل أبرزها الكتاب السابع منها (قضية الحرية ، وقضايا أخـرى) ، والكتاب التاسع ، عن (الأسرة المسلمة ، والأسرة المعاصرة) — وانما نحن نؤكد أنه لا يوجد ما يسمى بالحرية ، بذلك المعنى البدائى ، الذى يعنى التحرر من القيود ، اذ أن « الحرية ليست انطلاقا من القيود ، بل هى معنى لا يتحقق فى الوجود الا مقيداً » (٢٩) •

وأغلى شىء لدى الانسان وأعزه ولا شك ، هـو حريته ، ولكنه يضطر الى التضحية بها عن طواعية واختيار ، فى سبيل اجتماعيته ، أى (اضطراره) الى أن يعيش وسط جماعة انسانية ، وعجزه عن الانفراد بحيـاته •

ويعالج ول ديورانت ، فى الكتاب الأول من كتب مجلداته ، التى يعالج فيها (قصة الحضارة) ، والذى خصصه (لنشأة الحضارة) — يعـالج هـذه القضية الشائكة بطبعها ، خـير علاج ، حيث يرى أن « النـاس ، وان يكونوا بطبعهم أغرارا ، فهـم كذلك بطبعهم ذوو عنـاد » ، « ومن هنـا لجأت الدولة — لكى تبقى على نفسـها — الى أدوات كثـيرة ، تستخدمهـا ، وتصطنعها ، فى بث تعاليمهـا — كالأسرة والكنيسة والمدرسـة — حتى تبنى فى نفس المواطن ، عادة الولاء للوطن والفخـر به ، ولقـد أغناها هـذا التنشىء ، عن مئات من رجال الشرطة ، وهيأ الرأى العام للتماسك ، فى طاعة وانصياع » • « وفوق هذا كله ، فان الأقلية الحاكمة ، حاولت أن تحول سيادتها ، التى فرضتها على الناس فرضا بقوتها ، الى مجموعة من القوانين ، من شأنها أن تبلور سلطانها من جهة ، وأن تقـدم للناس ما يرحبون به من أمن ونظام ، من جهـة أخرى ، وهى تعترف بحقوق (الرعية) ، اعترافا

---

(٢٩) الامام محمد ابو زهـرة : فى المجتمع الاسـلامى — دار الفكر العربى ، ص ١٧ •

تستميلها به قبول القانون ، ومناصرة الدولة »(٣٠) .

ولا ينسى ول ديورانت ، أن يوضح أن كلمة الرعية باللغة العربية ، يقابلها فى الانجليزية كلمة « Subject » وفيها معنى الخضوع » (٣١) ، ويمكن أن نضيف الى كلامه ، أن الكلمة فى اللغة العربية ، فيها ما هو أكثر من الخضوع ، فالرعية — لغة — من الرعى ، وهى « الماشية الراعية » ، أو « الماشية المرعية » ، و « عامة الناس ، الذين عليهم راع يدبر أمرهم ، ويرعى مصالحهم » (٣٢) .

ويضع ول ديورانت النقط على الحروف أخيرا ، حين يرى أنه « ليس الانسان حيوانا سياسيا ، عن رضى وطواعية ، فالرجل من الناس ، لا يتحد مع زملائه مدفوعا برغبته ، بقدر ما يتحد معهم بحكم العادة والتقليد والظروف القاهرة ، فهو لا يحب المجتمع ، بقدر ما يخشى العزلة » . « وعلى ذلك ، فالرجل من الناس ، وحشى فى صميمه ، يتصدى للعالم كله ، تصدى العدو لأعدائه ، بكل ما يتطلب ذلك من بطولة ، فلو قد جرت الأمور على ما يشتهى الانسان المتوسط ، لكان الأرجح ألا تقوم للدولة قائمة ، بل انك لتراه فى يومنا هذا ، يمقت الدولة مقتا ، ولا يفرق بين الموت وجباية الضرائب ، ويتحرق شوقا لحكومة ، لا تحكم من أموره الا أقلها ، ولو رأيته يطالب بزيادة فى القوانين ، فما ذاك الا لأنه يعتقد أن جاره لابد له من تلك القوانين ، أما هو ، اذا ما ترك لهواه ، فينزع الى الفوضى ، التى لا يضبطها تفكير فلسفى ، ويظن أن القوانين — فيما يختص بحالته — زائدة ، لا حاجة اليها » (٣٣) .

---

(٣٠) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول (نشأة الحضارة) — ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٤٩ ، ص ٤٧ .

(٣١) المرجع السابق ، ص ٤٧ (من الهامش) .

(٣٢) المعجم الوسيط — الجزء الاول (مرجع سابق) ، ص ٣٥٧ .

(٣٣) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول (نشأة الحضارة) (المرجع الأسبق) ، ص ٣٩ .

ويرى كولن ولسن فى القضية ، قضية (تبادل منافع) ، بين الفرد والمجتمع ، وذلك فى أثناء عرضه لموضوع (القيم) Values — يرى أن القيم « فى الواقع ، عادات اجتماعية ، وليدة اتفاق بين الفرد والمجتمع ، فالمجتمع يرفده ببعض الفوائد ، كالأمن ، والاحساس بالانتماء ، وربما الشعور بالتفوق ، اذا اتفق لشخص ما ، أن أصابه الحظ ، وقذفت به الى منصب قيادى • ولكن المجتمع يطالب ، مقابل هذا ، أن يضع الفرد بعض القيم الاجتماعية ، قبل الفائدة الذاتية • وفى هذه التضحية ، يصبح لحياة الفرد معنى » (٣٤) •

(فحاجة) الفرد الى الجماعة ، هى الأساس التاريخى الوحيد للدولة ، وعلى هذا الأساس ، قام بناء الأسرة فيما بعد ، التى رأيناها فى كتابنا الثامن من كتب السلسلة ، « مشتقة من الأسر والقيد » ، « بكل ما تحمله الكلمة من ظلال وايحاءات نفسية ، توحى (بالعبء) الملقى على الانسان ، ومدى (ثقل) هذا العبء » ، « الا أنه أسر اختيارى ، يسعى اليه الانسان ، لأنه يجد فيه (الدرع الحصينة) ، ويتحقق له — من خلاله — (الصالح المشترك) ، الذى لا يتحقق للانسان بمفرده ، دون أن يضع نفسه — اختياريا — فى هذا الأسر أو القيد » (٣٥) •

وعلى أساس هذه (الحاجة) الى الجماعة أيضا ، قامت أسرة أكبر فيما بعد ، هى (القبيلة) ، التى تضم عددا من الأسر ، تربطهم مصالح مشتركة وعلاقات •• ورحم أيضا •

ويرى ول ديورانت ، أن « القبيلة » كانت « أول صورة للنظام الاجتماعى الدائم — ونقصد بالقبيلة ، جماعة من أسرات ، ترتبط بأواصر القربى ، وتشغل بقعة من الأرض ، على سبيل الشيوع ، ولها

---

(٣٤) كولن ويلسون : ما بعد اللامنتمى « فلسفة المستقبل » — نقلها الى العربية : يوسف شرورو ، وعمر يمق — الطبعة الأولى — منشورات دار الآداب — بيروت — نيسان (ابريل) ١٩٦٥ ، ص ٢٧ •

(٣٥) دكتور عبد الغنى عبود : الأسرة المسلمة ، والأسرة المعاصرة — دار الفكر العربى — يونيه ١٩٧٩ ، ص ٢٠ ، ٢١ •

طوطم مشترك ، وتحكمها حكومة بعينهـا ، وفق قوانين معينة ، فاذا ما اتحدت عـدة قبائل ، تحت رئيس واحد ، تكونت بذلك العشيرة ، فالعشيرة هى الخطوة الثانية ، نحو تكوين الدولة » (٣٦) .

وبرغم تكوين الدولة فيما بعد ــ خاصة بعد الثورة الصناعية ــ كما سبق (٣٧) ــ فان هــذه الدولة القومية ، قد استمدت ملامحهـا الأساسية ، من جذورها الأولى تلك ــ فى القبيلة ، ولو أن اللفظ « تدخل فى تكوينه ، عناصر الجنس والدين واللغة والبيئة الجغرافية والنظام الاقتصادى ، دون أن تشترط فيه سلامة كل عنصر من هذه العناصر على حدته » (٣٨) .

ذلك أن « المعنى الذى يطلق عليه هذا اللفظ ، قديم قدم المجتمع نفسه ، (فقوم) ، و (قومية) ، هو تلك التركيبة ، التى كانت فى مصر وبابل وبلاد الروم واليونان ، وهى التى فى فرنسا وبريطانيا وألمـانيا وبريطانيا اليوم » .

وبالرغم من أن القومية تقوم على « وحدة الجنس » ، و « وحدة الحدود » ، و « وحدة اللغة » ، و « وحدة اللون » ، و « وحدة الأهداف الاقتصادية » ، و « وحدة نظام الحكم » ، فان « من الطبيعى ، أن هــذا النوع من القومية ، يتطلب بالضرورة ، خلق عصبية جاهلية ، فى داخل الانسان ، فهو يدفع شعبا ما ، الى معاداة شعب آخر ، والنفور منه ، فقط لمجرد أنه شعب آخر » (٣٩) .

---

(٣٦) ول ديورانت : قصـــة الحضارة ــ الجـــزء الاول (نشأة الحضارة) (مرجع سابق) ، ص ٤٠ .

(٣٧) ارجع الى ص ١٧ من الكتاب .

(٣٨) الدكتور شكرى محمد عياد : الحضارة العربية ــ رقــم (١٧٢) من (المكتبة الثقافية) ــ دار الكاتب العربى ، للطباعة والنشر بالقاهرة ــ اول ابريل ١٩٦٧ ، ص ١١ .

(٣٩) ابو الأعلى المودودى : الحكومة الاسلامية ــ نقله الى العربية : احمد ادريس ــ الطبعـــة الأولى ــ المختار الاســلامى ، للطباعة والنشر والتوزيع ــ ١٣٩٧ هـ ــ ١٩٧٧ م ، ص ١٣٨ ــ ١٤٠ .

انها (الأنانية) ، التى ولدت مع الانسان ، واقتحمت معه عالم الأسرة ، ثم عالم القبيلة ، ثم اذا بجرثومتها تقتحم — أخيرا — الدولة القومية ، لتتحول « طاعونا ، يجتاح بعدواه ، وطنا بأسره » (٤٠) .

ويضرب لنا برتراند رسل مثلا لهذه (الأنانية) البشعة ، بالنازية الألمانية ، حيث يرى أن « الذين يوجهون السياسة الألمانية ، هم قبل كل شىء ، رجال وطنيون ، الى حد لا يعرفه الفرنسيون أو الانجليز ، وهم يخيل اليهم أن مصالح ألمانيا هى وحدها ، المصالح الجديرة بالاعتبار ، دون أن ينازعهم فى ذلك منازع . وليس من شأنهم هم ، ما دام همهم هو هذه المصالح ، أن يفكروا فيما يصيب الأمم الأخرى ، من أضرار ، ولا فيما تجره هذه السياسة ، من تخريب للمدن ، ودمار للأهالى ، ولا ما يلحق بالحضارة من تلف ، لا يمكن اصلاحه . انهم لا يقيمون وزنا لأى شىء ، ما داموا يستطيعون أن يسبغوا على ألمانيا ، ما يحسون أن فيه منفعتها » (٤١) .

ويخرج ول ديورانت ، تلك (الأنانية) الجديدة ، من النازيين الألمان ، ليعممها على « كل الجماعات البشرية تقريبا » ، « حيث تكاد تتفق ، فى عقيدة كل منها ، بأن سائر الجماعات أحط منها » (٤٢) .

واذا كان « الانسان البدائى » ، عند ول ديورانت ، « لم يكن يدور بخلده ، أن يعامل القبائل الأخرى ، ملتزما نفس القيود الخلقية ، التى يلتزمها فى معاملته لبنى قبيلته ، فهو صراحة يرى أن وظيفة الأخلاق ، هى تقوية جماعته ، وشد أزرها ، تجاه الجماعات ، فالأوامر الخلقية

---

(٤٠) مولاى محمد على : الاسلام ، والنظام العالمى الجديد — ترجمة احمد جودة السحار — الطبعة الثانية — لجنة النشر للجامعيين — مكتبة مصر ، ص ٦ .

(٤١) برتراند رسل : نحو عالم افضل — ترجمة ومراجعة درينى خشبة ، وعبد الكريم احمد — رقم (٦٨) من مشروع (الألف كتاب) — العالمية للطبع والنشر ، ص ٦٦ .

(٤٢) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول (نشأة الحضارة) (مرجع سابق) ، ص ٩٥ .

والمحرمات ، لا تنطبق الا على أهل قبيلته ، أما الآخرون ، فما لم يكونوا ضيوفه ، فمباح له أن يذهب فى معاداتهم ، الى الحد المستطاع » (٤٣) — فان الانسان الحديث — كما رأيناه فى ألمانيا النازية ، فيما سبق ، وكما نراه فى كل الدول المعاصرة — غير ألمانيا ، على نحو ما سنرى عند حديثنا عن الدولة المعاصرة ، فيما بعد — فان الانسان الحديث ، لا يختلف كثيرا عن الانسان البدائى القديم ، ومعنى ذلك ، أن « المعتقدات والعادات الاجتماعية ، التى كانت سائدة فى الماضى ، ما زال صداها يتردد فى القوانين والعادات ، التى تسود عصرنا الحالى » (٤٤) .

واذا كانت (الأنانية) ، التى حكمت دولة الأمس (القبيلة) ، هى هى (الأنانية) ، التى تحكم دولة اليوم (الدولة القومية) ، فان بين الدولتين — رغم ذلك — فرقا جوهريا ، يتمثل فى أن تدمير أنانية الأمس كان محدودا ، لأن السلاح فى يد الدولة كان محدود الفعالية ، أما تدمير أنانية اليوم ، فهو غير محدود ، بحكم التطور الهائل فى السلاح ، الذى تمتلكه دولة اليوم .

الدين والدولة :

رأينا ، عند حديثنا عن (المعنى الاصطلاحى للدولة) فيما سبق(٤٥) ، أن الدولة تجسيد للأمة ، وتعبير عن (شخصيتها القومية) (٤٦) ، ورأينا عند حديثنا عن (الجذور التاريخية للدولة) (٤٧) ، أن هناك عدة (مقومات) ، لهذه الشخصية القومية ، نضيف اليها هنا (عنصر الدين) ، الذى يمكن أن نعتبره (مقوم) هذه المقومات جميعا .

---

(٤٣) المرجع السابق ، ص ٩٥ .

(٤٤) تشارلس تشوت ، ومارجورى بل : الجريمة والمحاكم والاختيار القضائى — ترجمة اللواء محمود صاحب — مراجعة وتقديم حسن جلال العروسى — تصدير المستشار عادل يونس — دار المعرفة بالقاهرة — ديسمبر ١٩٦٢ ، ص ١١ .

(٤٥) ارجع الى ص ٢٠ من الكتاب .

(٤٦) ارجع الى ص ٢٠ من الكتاب .

(٤٧) ارجع الى ص ٢٥ من الكتاب .

ولعل من المفيد ، قبل أن نتحدث عن العلاقة بين (الدين والدولة) ، أن نقف على معنى الدين ، والمقصود به ، تماما كما وقفنا على معنى الدولة ، والمقصود بها ، والجذور التاريخية لها .

يشتق الدين فى اللغة ، من الفعل (دان) ، بمعنى « خضع وذل » ، و « أطاع » [٤٨] . ومن ثم يكون الدين ، هو « كل تلك الأعمال والمشاعر والمعتقدات ، التى تتعلق بعمل الانسان ، وما يراه واجبا عليه نحو ربه » [٤٩] ، أو هو « العادة والشأن » [٥٠] — أى أن يعتاد الانسان ، « خيرا أو شرا » [٥١] ، نتيجة « الاعتقاد بالجنان ، والاقرار باللسان ، وعمل الجوارح » [٥٢] ، أو هو — بعبارة أخرى — سلوك الانسان فى حياته ، سلوكا يعكس ايمانه على نحو معين ، بالحياة ، ونظرته اليها [٥٣] .

ولايختلف الدين فى معناه الاصطلاحى ، عنه فى معناه اللغوى ، فاذا كان فى معناه اللغوى ، سلوك الانسان وفق ما يؤمن به ويقتنع ، فانه كذلك فى معناه الاصطلاحى ، « فالعقيدة الدينية ، هى فلسفة الحياة ، بالنسبة الى الأمم التى تدين بها » [٥٤] ، و « الدين — فى أبسط تعريفاته — هو تفسير للحياة ، تفسيرا يكون له أثره ، على الفرد وعلى المجتمع على السواء » [٥٥] .

---

(٤٨) المعجم الوسيط — الجزء الأول (مرجع سابق) ، ص ٣٠٦ .

(49) WEST, MICHAEL PHILIP and ENDICOTT, JAMES GARETH; Op. Cit., P. 257.

(٥٠) مختار الصحاح (مرجع سابق) ، ص ٢٣٧ .

(٥١) المعجم الوسيط — الجزء الأول (مرجع سابق) ، ص ٣٠٦ .

(٥٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٧ .

(53) The Concise Oxford Dictionary of Current English, Edited by : H. W. FOWLER and F. G. FOWLER, based on : The Oxford Dictionary; Fourth Edition, Revised by : E. Mc-INTOSH, Oxford, at the Clarendon Press, 1959, p. 1029.

(٥٤) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية — دار الاسلام بالقاهرة — ١٩٧٣ ، ص ٧ (من المقدمة) .

(٥٥) دكتور عبد الغنى عبود : دراسة مقارنة ، لتاريخ التربية — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ ، ص ٨٤ .

وعلى ذلك ، فلكل انسان دين يسير عليه ، سواء كان هذا الدين ، دينا سماويا ، أو دينا وضعيا ، وسواء كان دينا صحيحا ، أو دينا زائفا .

ولقـد عبر القرآن الكريم ذاته عن هـذه الحقيقة ، فى كثير من آياته ، لعل أشهرها قوله سبحانه :

— « قل يأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبـد . لكم دينكم ولى دين » (٥٦) .

« ومن ثم يغدو فصل (الدين) عن (الدولة) ، أمرا أبعد ما يكون عن الدين وعن العقل معا ، لأن الدولة جزء من الدين ، أراد الدين ذلك وأرادته الدولة ، أم لم يريداه . كما يغدو — من ثم — الايمان ببعض الدين ، والكفر ببعضه الآخـر ، كفرا مطلقا ، لأن الايمان الحقيقى (ببعض) الدين ، يدفع دفعا ، الى الايمان (بالكل) ، ويغدو الايمان باللسان ، دون أن يصاحبه عمل ، يطابق هذا الايمان ، أشد من الكفر كفرا » (٥٧) .

والذين يقولون بالفصل بين الدين والدولة ، انما يقولون بذلك ، معتمدين على المسيحية ، خاصة تلك (المقولة) المنسوبة الى السيد المسيح ، فى رده على الفريسيين اليهود ، الذين أرادوا احراجه ، « وتشاوروا لكى يصطادوه بكلمة ، فأرسلوا اليه تلاميذهم مع الهيرودسيين » ليسألوه : « أيجـوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا . فعلم يسـوع خبثهم » ، « فقال لهم : أعطوا اذا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » (٥٨) .

---

(٥٦) قرآن كريم : الكافرون — ١٠٩ : ١ — ٦ .

(٥٧) دكتور عبد الغنى عبود : التربية ، ومشكلات المجتمع — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٨٠ ، ص ١٠١ .

(٥٨) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح الثانى والعشرون : ١٥ — ٢١ .

وعلى هــذه (المقولة) المنسوبة الى السيد المسيح ، بنى بولس الرسول ما قاله ، فى رسالته المشهورة ، الى أهل رومية ، حيث قال لهم : « لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان الا من الله ، والسلاطين الكائنة ، هى مرتبة من الله ، حتى ان من يقاوم السلطان ، يقاوم ترتيب الله » • « فأعطوا الجميع حقــوقهم : الجــزية لمن له الجزية • الجباية لمن له الجباية • والخوف لمن له الخوف ، والاكرام لمن له الاكرام » (٥٩) •

ومقولة السيد المسيح المشــهورة ، ومقولة بولس الرسول المبنية عليها ، ليست فصلا بين الدين والدولة ، وانما هى ترجمة حية للدين الى سلوك حى ، يمارس مع كل صــاحب سلطان : ألا يقــاوم هــذا السلطان ، وانما ينحنى له •

أما لمــاذا يجب على المسيحى أن ينحنى للسلطان ، فان بولس الرسول نفسه يجيب على هذا السؤال ، فى رسالة بعث بها الى أهل كورنثوس ، يقــول لهم فيها : « فانى اذا كنت حــرا من الجميع ، استعبدت نفسى للجميع ، لأربح الأكثرين • فصرت لليهود كيهودى ، لأربح اليهود ، وللذين تحت الناموس ، كأنى تحت الناموس ، لأربح الذين تحت الناموس ، وللذين بلا ناموس ، كأنى بلا ناموس ، مع أنى لســت بلا ناموس للــه ، بل تحت ناموس المســيح ، لأربح الذين بلا ناموس » (٦٠) •

انه انحناء للسلطان ، لعــدم القــدرة على مقاومته ، وانتهازا للفرصة ، حتى تسنح ، أو على حد ما نسب الى السيد المسيح :

---

(٥٩) العهد الجديد : رسالة بولس الرسول الى اهل رومية — ٦ : الاصحاح الثالث عشر : ١ — ٧ •

(٦٠) العهــد الجــديد : رسالة بولس الرســول الأولى الى اهل كــورنثوس — ٧ : الاصحاح التاسع : ١٩ — ٢١ •

— « لا تظنوا أنى جئت لألقى ســلاما على الأرض • ما جئت لألقى سلاما ، بل سيفا » (٦١) •

— «جئت لألقى نارا على الأرض ، فماذا أريد لو اضطرمت؟»(٦٢)•

بل ان التاريخ المسيحى الطويل ، الملطخ كله بالدم ، وبالتعالى والتكبر والتجبر ، لا يمكن أن يفهم ، الا فى ضوء ما نسب الى السيد المســيح :

— « أما أعدائى أولئك ، الذين لم يريدوا أن أملك عليهم ، فأتوا بهم الى هنا ، واذبحوهم قدامى » (٦٣) •

ولقد استمرت جهود رجال الدين المسيحى ، تسعى لتحقيق مقولة السيد المسيح الأخيرة ، بالسيطرة على الحكم ، وتوجيه الحياة ، فكانت « الجهود الجبارة ، التى بذلتها البابوية ، من أيام جريجورى السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥) ، الى أيام بنيفاس الثامن (١٢٩٤ — ١٣٠٣) ، لانشاء دولة عالمية أوربية ، باخضاع الملوك للبابوات — كانت هــذه الجهــود قــد أخفقت ، وانتصرت القومية ، على النزعة الاتحــادية النظــرية » •

« وأخذ كلمنت الخامس يعمل فى صبر وأناة ، للتغلب على تلك الصــعاب ، ولم يخضــع لفيليب الرابع ، الا أقــل ما يستطيع من الخضوع » (٦٤) •

---

(٦١) العهد الجــديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح العاشر : ٣٤ .
(٦٢) العهد الجــديد : انجيل لوقا — ٣ : الاصحاح الثانى عشر : ٤٩ .

(٦٣) العهد الجديد : انجيل لوقا — ٣ : الاصحاح التاســع عشر : ٢٧ .

(٦٤) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجــزء الأول ، من المجــلد الخامس (١٨) (النهضة) — ترجمــة محمد بدران — الادارة الثقافيــة ، فى جامعة الدول العربية — مطبعة لجنــة التاليف والترجمــة والنشر — ١٩٥٨ ، ص ٨٩ — ٩١ .

وقـــد استطاع البابوات أن يقيموا (دولة داخل دولة) ، وأن ينافسوا الملوك والأباطرة ، فى تنظيم شئون دولتهم ، وفى وسائل الترف والفساد والافساد أيضا ، على نحو ما سنرى فى الفصل التالى ، ورغم ذلك ، فقد « حافظت الكنيسة الى حد ما ، على وحدة أوربا الغربية ، التى حققتها الدولة الرومانية ، وحافظت كذلك ، شعائرها وعظاتهـا ومدارسها ، على تراث رومانى ، لم يبق له وجود فى هذه الأيام »(٦٥) •

وقـــد تمكن البابوات ، فى فترات تاريخية مختلفة ، من (فرض) سيطرتهم على الحياة السياسية فى أوربا ، وعلى الأباطرة فيها ، كمـا أخفقوا فى فترات تاريخية أخرى من فرض هذه السيطرة ، وذلك حسب (قوة) البابوات ، مقـارنة (بقوة) الأباطرة فى ذلك (الصراع) ، الذى دارت رحاه ، طوال العصور الوسطى الأوربية •

وسواء كان البـابا هـو المهيمن بصورة مباشرة على الامبراطور أو لم يكن ، فقـد كانت للبابوية اليد الطـولى فى (توجيه) الحياة السياسية ، على نحو ما سنرى فى الفصل التالى ، ولو منوراء ستار •

ولا ننسى هنـا ، ذلك الدور ، الذى لعبته الكنيسة ، فى الحروب الصليبية ، وفى مطاردة الاسلام والمسلمين ، وفى الاجهاز عليه وعليهم فى الأندلس ، ثم فى ملاحقتهم بعد ذلك فى كل مكان •

كما لا ننسى هنا أيضـا ، دورها فى مطاردة اليهود فى العصـور الوسطى ، ثم فى مصالحتهم والاعتماد عليهم ، فى مطاردة الاسـلام والمسلمين •• مما كان ثمرته اليوم : قيام (دولة اسرائيل) ، وما تعيشه منطقتنا كلها ، والعـالم بأسره ، من قلاقل واضطرابات ••• بسبب هذا (الدين) الغربى ، الأنانى •• مهما كانت له من علاقة مدعاة •• بالمسـيحية •

---

(٦٥) ول ديورانت : قصة الحضارة ــ الجـزء السادس من المجلد الرابع (١٧) (عصر الايمـان) ــ ترجمة محمد بدران ــ الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربيـة ــ مطبعة لجنـة التأليف والترجمـة والنشر ــ ١٩٥٨ ، ص ١ •

وواضح أن الدين المقصود ، ليس الدين السماوى ، الداعى الى مكارم الأخلاق بالضرورة ، وانما هو الدين ، بمعناه الواسع ، الذى قد يدعو الى مساوئها ، فيدعم (الأنانية) فى الفرد ، والأنانية فى القبيلة ، والأنانية فى الدولة .. كما هوشأنه اليوم فى عالمنا المعاصر .

وبرغم مساوىء هذا (الدين) الداعى الى الأنانية ، فانه خير من (اللادين) — لأنه هو الآخر ، يؤدى رسالة فى حياة الأمة ، حيث (يجمع شملها) ، و « يستحيل على أية أمة ، أن تعرف طعم السعادة ، ما لم تكن متحدة من الداخل ، ويستحيل على أية أمة أن تتحد من داخلها ، ما لم تصل الى نوع من الاتفاق ، على تحديد واضح ، لما هو عدل وظلم ، فى شئون الناس والحياة ، ويستحيل الوصول الى هذا الاتفاق بالتالى ، ما لم تتعارف هذه الأمة ، على التزامات خلقية ، من قانون أخلاقى دائم مطلق .

ومن الواضح أن الدين — والدين وحده — هو القادر على أن يقدم لنا هذا القانون المطلوب ، وبهذا القانون ، يمكن أن يوجد أساس الاتفاق داخل الأمة أو المجتمع ، على الالتزامات الخلقية ، التى يخضع لها كافة الأفراد ، مختارين » (٦٦) ، « فالأصول الدينية » ، على حد تعبير الأفغانى ومحمد عبده ، هى التى « تنشىء للأمم قوة الاتحاد ، وائتلاف الشمل » (٦٧) . ولم يكن غريبا ، أن يرى الرافعى ، أن «الدين»، « كان » « من أقوى الوسائل ، التى يعول عليها فى ايقاظ ضمير الأمة ، وتنبيه روحها ، واهتياج خيالها ، اذ فيه أعظم السلطة ، التى لها وحدها قوة الغلبة على الماديات ، فسلطان الدين ، هو سلطان كل فرد ، على ذاته وطبيعته » .

---

(٦٦) محمد أسد : منهاج الاسلام فى الحكم — نقله الى العربية : منصور محمد ماضى — الطبعة الثانية — دار العلم للملايين — بيروت — كانون الثانى ١٩٦٤ ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٦٧) جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده : العروة الوثقى — الطبعة الأولى — دار الكتاب العربى — بيروت — لبنان — ذو الحجة ١٣٨٩ هـ — شباط (فبراير) ١٩٧٠ م ، ص ٦٢ .

«وكل أمة ضعف الدين فيها ، اختلت هندستها الاجتماعية ، وماج بعضها فى بعض » .

« وبتلك الأصول العظيمة ، التى ينشئها الدين الصحيح ، القوى ، فى النفس ، يتهيأ النجاح السياسى ، للشعب المحافظ عليه ، المنتصر له » (٦٨) .

(٦٨) مصطفى صادق الرافعى : وحى القلم — الجزء الثالث (مرجع سابق) ، ص ٣٥ — ٤٠ .

الفصل الثانى

الدولة .. عبر التـاريخ

تقـــديم :

رأينا فى الفصل السابق ، أن (حاجة) الفرد الى الجماعة ، هى الأساس التاريخى الوحيد للدولة ، وأن هذه الحاجة ، كانت هى التى دفعت الانسان الفرد ، الى حياة الأسرة (١) .

وفى الوقت الذى رأينا فيه ، فى كتابنا الثامن من كتب السلسلة ، اختلاف الأسرة الشرقية عن الأسرة الغربية ، فى كل شىء ، رأينا فيه أيضا اختلاف مفهوم (الدولة) فى الشرق عنه فى الغرب ، فى كل شىء ، فقد رأينا أن النظرة الى الأسرة فى كل من الشرق والغرب ، تنعكس على النظرة الى الدولة فى كل منهما ، فقـد رأينا أن « مفهوم الأسرة فى الغرب ، هو (الدولة) ، أو الكيان القومى العام ، وأن الرابطة التى تربط بين أفراد (الأسرة الصغرى) ، لا تعدو أن تكون رابطة (تعارف) ، بين مجموعة من النـاس ، تعيش معـا ، كتلك الرابطة التى تقوم بين مجموعة من الناس ، فى مجال العمل ، أو مجموعة من الناس ، فى ناد من النوادى ـ بينما يتم تقديس الدولة فى المجتمعات الشرقية ، (من خلال) هذه الأسرة الصغرى » (٢) .

أى أن مفهوم (الجماعة) ، التى (اضطر) الانسان الى التعامل معها (٣) ، كان هو المفهوم الطبيعى فى الشرق ، حيث كانت هذه الجماعة هى (الأسرة) ، ومنها انتقل الولاء ـ فيما بعد ـ الى (الدولة) ـ بينما كان هذا المفهوم ، هو المفهوم غير الطبيعى فى الغرب ، حيث كانت هذه

---

(١) ارجع الى ص ٢٦ ، ٢٧ من الكتاب .
(٢) دكتور عبد الغنى عبود : الأسرة المسلمـة ، والأسرة المعـاصرة (مرجع سابق) ، ص ٣٨ .
(٣) ارجع الى ص ٢٦ ، ٢٧ من الكتاب .

الجماعة هى (الدولة) ، ومنهـا انتقـل الولاء — فيما بعد — الى (الأسرة) — فكان الولاء للأسرة والدولة معا هو الولاء حقا فى الشرق ، وكان هذا الولاء لهما •• غير ولاء فى الغرب ، وانما كان (اضطرارا) •• الى هذا الولاء •

وفرق كبير ، بين الولاء العميق فى أغوار الضـمير •• والولاء المفروض على الانسان •

ولنبدأ بقصة الدولة هنا وهناك •• من أولها •

الدولة فيما قبل التـاريخ :

والدولة فى مفهومها المعاصر ، من منجـزات الثورة الصناعية ، فى منتصف القرن الثامن عشر ، كما رأينا فى الفصل السابق (٤) ، وان كانت لها جذورها التاريخية ، التى لا تمتد الى عصور ما قبل التاريخ ، بل الى عصور التاريخ الانسانى المدون فقط •

ذلك أن الانسان بدأ حياته على هذه الأرض وحيدا ، وأن الناس كانوا يعيشون فوق أغصان الأشجار ، ثم « هبطوا من أعالى الأشجار الى الأرض ، لأنهم أصبحوا أثقل من أن تحملهم أغصانهـا » (٥) ، ليبحثوا عن مأوى لهم « فى الكهوف » ، « وقـد مرت آلاف السنين ، قبل أن يترك الانسان كهفه ، ويحاول أن يبنى لنفسه مسكنا » ، أو « أن يجد مأواه تحت الأشجار ، متخذا منها كوخا بسيطا » (٦) •

وفى هذه الفترة المبكرة من حياة الانسان ، كان الانسان الفرد ، هو الدولة ، فقـد كان هو الحاكم والمحكوم معـا ، ولم يكن هنـاك من (قانون) يحكمه ، وانما كانت تحكمه مجرد (رغبته) فى الحياة ، واستمرار هذه الحياة ، وظروف الحياة من حوله •

---

(٤) ارجع الى ص ٢٩ وما بعدها من الكتاب .

(٥) رالف لنتون (مرجع سابق) ، ص ٢٣ .

(٦) ثيا وريتشارد برجير : من الحجارة الى ناطحات السحاب (قصة العمارة) — ترجمة المهندس محمد توفيق محمود — دار النهضة العربية — ١٩٦٢ ، ص ٨ ، ٩ .

وقد بدأت هذه الدولة العجيبة ، الفريدة من نوعها ، فى (اقامة العلاقات) ، مع الدول الأخرى ، فكانت الأسرة .. ثم كانت القبيلة .. دولة جديدة ، أخذ الانسان ينتقل معها من أرض الى أرض ، كما كانت هذه الدولة العجيبة ، الفريدة من نوعها ، تفعل .

ومع الأسرة ، ثم القبيلة ، « بدأت انسانية الانسان » — على حد تعبير ول ديورانت (٧) ، حيث تعلم الانسان الكلام ، كبديل للاشارة ، للتفاهم مع غيره ، وكان اكتشافه للنار ، بداية سيره فى طريق الحضارة ، على حد تعبيره أيضا ، حيث « استخدمها على ألف صورة ، أولها فيما نظن ، أنه اتخذ منها شعلة ، يقهر بها عدوه المخيف ، ألا وهو الظلام » (٨) ، ثم « استغلها لتمده بالحرارة والدفء » (٩) ، « ولولا النار ، لظل الانسان بدائيا ، يأكل اللحوم النيئة ، ويسكن الكهوف والجحور ، معتمدا كل الاعتماد على قوة عضلاته » ، « قابعا فى الظلام بعد مغيب الشمس ، ولظلت حياته كتلك التى كان يعيشها فى العصر الحجرى .

ولكن باكتشاف النار ، تمكن الانسان من اطالة يومه ، كما استطاع أن يطارد الحيوانات المفترسة ، وأن يطهو طعامه ، ويجلب الدفء والراحة لحياته » (١٠) .

---

(٧) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول (نشأة الحضارة) (مرجع سابق) ، ص ٢٢ .

(٨) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٩) دكتور حسن حسنى أبو السعود : « النظائر المشعة ، فى خدمة الصناعة » — **الذرة فى خدمة السلام** — مجموعة المحاضرات ، التى ألقيت بالمؤتمر السنوى السادس والعشرين ، للمجمع المصرى للثقافة العلمية ، الذى عقد فى المدة من ٣١ مارس الى ٥ أبريل سنة ١٩٥٦ — رقم (٢٧) من (الألف كتاب) — مكتبة مصر ، ص ١٨٦ .

(١٠) الدكتور هارى نيكولز هولمز : قصة الكيمياء ، من خلال أنبوبة الاختبار — ترجمة الدكتور الفونس رياض ، والدكتور عبد العظيم عباس ، مراجعة الدكتور عبد الفتاح اسماعيل — رقم (٢٨٤) من (الألف كتاب) — مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، ص ٢٣ .

وقد تحول هـذا الانتقال لهذه الدولة الجديدة — القبيلة — من الانتقال غير المنتظم ، الى انتقال منتظم مخطط مدروس ، ذى هدف ، حيث بدأت سلسلة الهجرات البشرية ، المعروفة فى التاريخ ، من المناطق الجبلية والصحراوية ، « منذ القرن العشرين قبل الميلاد » ، « فى أوقات متفاوتة ، **متجهة نحو الجنوب والغرب ، تسعى وراء أوطان جديدة ، تفيض بخـير أوفر ، مما تقدمه لهم بيئتهم الجبليـة** » (١١) ، فبدأت — بذلك — (السلالات) البشرية المعروفة ، وهى أربعة سلالات كبيرة ، هى « (١) الحاميـون • (٢) الساميـون • (٣) الطورانيـون • (٤) الآريون » (١٢) ، كان كل منها قد (استقر) فى اقليم معين ، ثم (تشعب) فيه الى أقسام وشعب ، بعـد ذلك ، استقرت ونمت على ضفاف الأنهار عادة ، فلقد « ارتبط الانسان ارتباطا وثيقا بالأنهار ، ولملايين السنين ، كانت الأنهار ، هى التى تشكل حياة الانسان » (١٣) ، وعلى ضفافها « نشأت القرى ، فالمدن ، وأخيرا نمت المـدن الكبرى ، واستكملت مقوماتهـا » (١٤) ، وقامت الممالك العظيمة ، التى دخلت — بالانسان — تاريخه المدون ، ودخلت بالدولة مرحلة جديدة ، تخلت بها عن تلك (الأنانية) ، التى اتسمت بها الدولة ، فيما قبل التاريخ ، على نحو ما سبق •

وتلبس هـذه (الأنانيـة) ثوبا جـديدا ، يناسب الاستقرار

---

(١١) الدكتور عبد المنعم ابو بكر : اخناتون — رقم (٣٥) من (المكتبـة الثقافية) — وزارة الثقافة والارشاد القومى — الادارة العـامة للثقافة — دار القلم بالقاهرة — ١٥ ابريل ١٩٦١ ، ص ٥ •

(١٢) أحمد فهمى القطان بك : تاريخ التربية — الجزء الأول — التربية قبل الاسـلام — مطبعـة مدرسة طنطـا الصناعية — ١٣٤٢ هجـرية — ١٩٢٣ ميلادية ، ص ٢٩ •

(١٣) آن تيرى هوايت : الأنهـار العظيمة فى العـالم — ترجمـة وتقديم العميد أ• ح• محمد عبد الفتاح ابراهيم — اشراف ومراجعة الدكتور محمد صابر سليم — رقم (١٨) من (كل شىء عن) — دار المعـارف بمصر — ١٩٦٤ ، ص ١٤ •

(١٤) هـ• هـ• سوينرتون : الأرض من تحتنا — ترجمة الدكتور محمـد يوسف حسن ، والدكتور فتح الله عوض — مراجعة الدكتـور جلال الدين حافظ عوض — رقم (٥٩٢) من (الألف كتاب) — مؤسسة سجل العرب — ١٩٦٦ ، ص ٤٠٠ •

والمستقرين — أو تستبدل بشيء جديد ، يضع مصلحة (الجماعة) ، فوق كل اعتبار •

وهذا ما سوف نراه ، من خلال استعراضنا (للدولة فى حضارات الشرق القديمة) ، و (الدولة عند الاغريق والرومان) •

الدولة فى حضارات الشرق القديمـــة :

الشرق هو مهد الحضارات القديمة ، لا جدال •

واذا كان ألدومييلى يقسم العلم القديم ، الى ثلاث مجموعات كبير ، « يمكن جعلها مستقلة ، بعضها عن بعض :

(ا) علم الصين ، فى المشرق الأقصى •

(ب) علم الهند ، فى شبه جزيرة الكنج •

(جـ) علم حوض البحر الأبيض المتوسط ، وهو ذلك العلم ، الذى كان نموه عاملا على تحقيق نشأة العلم العالمى الحديث ، وهو يشمل حضارات مصر وما بين النهرين والاغريق والرومان » (١٥) •

واذا كانت الحضـــارة الغربيـــة تعتبر نفسها بنت الحضـــارتين الاغريقية والرومانية ، فان الاغريق ، وهم أساتذة الرومان ، يعتبرون تلاميذ الشرقيين فى كل شيء ، فقد « نقلوا حروفهم (الأبجدية) ، من البلاد العربية جميعا » (١٦) ، كما « كان معظم اليونان ، يعتقدون أن عناصر كثـــيرة من حضـــارتهم ، قد جاءتهم من مصر » ، « عن طريق

---

(١٥) الدومييلى : العلم عند العرب ، وأثره فى تطور العلم العالمى — نقله الى العربية : الدكتور عبد الحليم النجـــار ، والدكتور محمـــد يوسف موسى — قام بمراجعته على الأصـــل الفرنسى : الدكتـــور حسين فوزى — جامعة الدول العربية — الادارة الثقافية — الطبعة الأولى — دار القلم — ١٩٦٢ ، ص ٢٣ ، ٢٤ •

(١٦) عباس محمود العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين — رقم (٣٠٩) من (المكتبة الثقافية) — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٤ ، ص ٣١ •

فينيقية وكريت » (١٧) ، حتى لقد كانوا « يرون أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة ، وفى فنونهم الرفيعة بوجه خاص » (١٨) ، فقد أخذ « الاغريق عن المصريين ، الكثير من معارفهم الدينية والفلسفية والعلمية » (١٩) .

أو على حد تعبير أمين سامى باشا ، ان مصر (الشرقية) ، « هى أول بلاد ، تشكلت فيها الدول ، وسرى منها العمران الى بلاد اليونان ، وانتقلت منها الحضارة فى قديم الزمان ، الى بلاد الرومان » (٢٠) .

ولا ننسى هنا أن مصر ، التى يفتخر الاغريق بتلقى علومهم وحضارتهم عنها ، لا تعدو أن تكون منارة شرقية ، كما أن أهلها فى أساسهم شرقيون ، أى قادمون اليها من الشرق ، وخاصة من الجزيرة العربية ، « فما الفراعنة والفينيقيون ، الا موجة من موجات الجزيرة العربية » (٢١) .

ولقد سبق الشرق الغرب على طريق الحضارة ، لأنه قد سبق على طريق الاتحاد فى جماعة ، ثم على طريق (الدولة) ، فلقد « دل التنظيم البدائى القبلى للحياة ، على أن الجماعات الاجتماعية ، كانت ضرورية لحماية الانسان ، أثناء رحيله من مكان الى آخر بحثا عن الطعام والأمن .

(١٧) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور القديمة ، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦١ ، ص ٨٥ — نقلا عن :
— Mahaffy, J.P., What Have The Greeks Done For Modern Civilization ? — New-York, 1908, p. 11.

(١٨) طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر — مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر — ١٩٣٨ ، ص ١٧ .

(١٩) السيد محمود أبو الفيض المنوفى : اصالة العلم ، وانحراف العلماء — رقم (٤) من (موسوعة وحدة الدين والفلسفة والعلم) — دارنهضة مصر ، للطبع والنشر — ١٩٦٩ ، ص ١٠ .

(٢٠) أمين سامى باشا : التعليم فى مصر ، فى سنتى ١٩١٤ و ١٩١٥ — مطبعة المعارف ، بشارع الفجالة بمصر ، ١٩١٧ ، ص ٤ .

(٢١) أنور الجندى : من التبعية الى الأصالة ، فى مجال التعليم والقانون واللغة — دار الاعتصام — ١٩٧٧ ، ص ٢٣ .

وقد أصبح التنظيم الاجتماعى أكثر ضرورة ، حين بدأ الانسان يقيم فى وديان أنهار دجلة والفرات فى العراق ، ووادى النيل فى مصر »، حيث « ظهرت نظم سياسية واقتصادية ودينية ، محددة تماما » (٢٢) •

وكان الدين من العوامل الرئيسية التى اعتمدت عليها الدولة فى الشرق والغرب على السواء ، ومن ثم « وجد فكر دينى معين ، فى كل مجتمع من المجتمعات القديمة ، وصل الى درجة معينة من الحضارة ، وذلك قبل أن تتنزل رسالات السماء ، فوجدت البراهمانية والبوذية والكونفوشيوسية والتاوية والزرادشتية والمزدية ، وغيرها ، وكل منها — ببساطة — ليس الا تفسيرا للحياة ، يذهب اليه رجل عبقرى ، يعكس به ظروف مجتمعه ، وفلسفته وقيمه ، ومثله العليا ، أكثر مما يقدم ذلك التفسير الحقيقى للحياة ، كما فعلت الأديان السماوية بالفعل ، فيما بعد » (٢٣) •

والى هذا الدين الذى ظهر فى بلاد الشرق ، تعزى قوة الدولة ، فى كل مجتمع شرقى قديم ، لأن هذا الدين ، كانت الدولة ، والنظرة اليها ، جزءا منه ، ومن ثم كان استقرار الحكم ، نتيجة من نتائجه ، وبالتالى كانت قدرة هذا الحكم ، على تحقيق ما حققه من تقدم ونهوض بالبلاد ، عائدة اليه أيضا •

ففى الامبراطورية الفارسية الشهيرة ، على سبيل المثال ، « أعاد الملوك الساسانيون الى الدين الزرادشتى ، ما كان له من سلطان ورونق ، فوهبت الأراضى والعشور الى الكهنة ، وأسس نظام الحكم على أساس الدين ، كما كان الحال فى أوربا ، وعين كاهن أكبر ، ذو سلطان ، لا يفوقه الا سلطان الملك نفسه » (٢٤) • « وكان سن

---

(٢٢) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور القديمة (مرجع سابق) ، ص ٤٩ •

(٢٣) دكتور عبد الغنى عبود : دراسة مقارنة ، لتاريخ التربية (مرجع سابق) ، ص ٨٤ •

(٢٤) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول ، من المجلد الرابع (١٢) (عصر الايمان) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ص ٢٨٠ •

القوانين ، من عمل الملوك ومستشاريهم والمجوس ، وكانوا يعتمدون فى سنها ، على قوانين الأبستاق القديمة ، وكان يترك للكهنة ، تفسير هذه القوانين وتنفيذها » (٢٥) •

وفى بابل ، « لم تكن سلطة الملك ، يقيدها القانون وحده ، ولا الأعيان وحدهم ، بل كان يقيدها أيضا الكهنة • ذلك أن الملك لم يكن من الوجهة القانونية ، الا وكيلا لاله المدينة » (٢٦) •

وفى مصر القديمة ، كانت « طبقة الكهنة ، هى أشرف الطبقات وأعلاها » ، و « كانت تملك ثلث الأراضى المصرية ، معفى من الضرائب ، ولم تكن أعمال أفرادها مقصورة على الخدمات الدينية ، كما يتوهم ، بل كانوا يشغلون جميع مناصب الحكومة ، ومراتبها الرفيعة ، ويتولون جميع الأعمال والشئون ، التى تحتاج فى ادارتها ، الى المهارة والعلم ، فكانوا الأطباء والمهندسين والمعلمين والقضاة والمؤرخين •• » (٢٧) •

وقد استمد الكهنة منزلتهم تلك ، من أن الدين فى مصر ، كان على حد تعبيرول ديورانت — « من فوق كل شىء ، ومن أسفل منه ، فنحن نراه فيها ، فى كل مرحلة من مراحله ، وفى كل شكل من أشكاله ، من الطواطم ، الى علم اللاهوت • ونرى أثره فى الأدب ، وفى نظام الحكم ، وفى الفن » (٢٨) •

أى أنهم استمدوها ، من كونهم « دعامة العرش ، كما كانوا هم الشرطة السرية ، القوامة على النظام الاجتماعى » (٢٩) •

---

(٢٥) المرجع السابق ، ص ٢٨٤ •
(٢٦) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثانى من المجلد الأول (الشرق الأدنى) — ترجمة محمد بدران — الطبعة الثانية — الادارة الثقافية، فى جامعة الدول العربيـة — لجنة التـأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٦ ، ص ٢١١ •
(٢٧) مصطفى امين : تاريخ التربيـة — الطبعـة الأولى — مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر — ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٥ م ، ص ١٣ •
(٢٨) ول ديورانت : قصـة الحضارة — الجـزء الثانى ، من المجلد الأول (الشرق الأدنى) (المرجع الأسبق) ، ص ١٥٥ •
(٢٩) المرجع السابق ، ص ١٦٢ •

ولم يغفل الدين فى حضارات الشرق القديمة تلك ، تنمية مفهوم (الدولة) ، فى الاتجاه الذى رأيناه ، من الفرد الى الأسرة الى القبيلة الى الدولة ، ومن ثم كان ما رأيناه ، من اعلاء لشأن الأسرة ، والكبار فيها ، فى حضارات الشرق القديمة ، بنفس القدر الذى نراه من اعلاء لشأن الدولة ، والهيئة الحاكمة ، فى هـذه الحضارات ، حيث يلاحظ فورستر فى هـذه الحضارات الشرقية ، « التأكيد دوما ، على واجب الصغير نحـو أبيه ، خاصة اذا كان كبير السن » ، وذلك فى مقـابل « التأكيد فى الغرب ، على واجب الأب نحو ابنه أو طفله » (٣٠) •

وفى اليابان ، يرى تيدمان ، أن «الأسرة فى اليابان ، عظيمةالأهمية، ونموذج تكوينهـا ، ينعكس فى الغالب ، على الجماعات الأخـرى » ، « فاليابانى يفضل أن يعمل كجـزء من جماعة ، على أن يعمل كفرد ، وهـو يحس بشـعور الاخلاص والولاء للجماعة ، ويميل الى مراعاة مقاييسها ومعاييرها ، بدقة كبيرة » (٣١) •

ومن أجل ذلك ، رفعت الشنتية Shintoism ــ ديانة اليابانيين ، رب الأسرة اليابانية ــ الامبراطور ، الى مصاف الآلهة (٣٢) •

وعندما (اضطرت) اليابان الى (استيراد) الحضارة الغربية ، كغيرها من بلاد الشرق ، فى القرن التاسع عشر ، ظلت هـذه (الروح اليابانية) ، هى السائدة ، فى تعامل اليابانيين مع الحضارة الغربية ، فقد « كان الصبغ بالطابع الغربى ، يعنى ادخال المعرفة والطرق الغربية ، فى البنيان القـائم ، والقيم الأساسية ، للمجتمع اليابانى • وغالبـا ما يجرى التعبير عن المثل الأعلى ، بأنه (الروح اليابانية ، والمواهب

---

(30) FORSTER, LANCELOT : The New Culture in China, with an Introduction by : Sir Michael E. Sadler; Goerge Allen & Unwin Ltd., London, 1936, p. 109.

(٣١) آرثر تيدمان : اليابان الحديثة ــ ترجمة وديع سعيد ــ مراجعة على رفاعة الانصارى ــ رقم (٢٢٢) من (الالف كتاب) ــ مكتبـة الأنجـلو المصرية ، ص ٢ •

(٣٢) المرجع السابق ، ص ٢٠ •

المغربية » (٣٣) .

وقد أكد ذلك ، ذلك المرسوم الامبراطورى الشهير ، الذى وقعه الامبراطور ميجى Miji فى ٣٠ أكتوبر ١٨٩٠ ، بهدف اصلاح التعليم ، مؤكدا « فضائل الولاء للامبراطور ، والتقوى البنوية » ، وقد كان « التهذيب الخلقى ، المبنى على الموافقات المقدسة ، للسلطة الامبراطورية » ، « حافزا عظيما ، لتغيير نسيج الاقتصاد كله »(٣٤) .

وقد تطور نمو الدولة فى الصين ، فى نفس الطريق الذى سار فيه هذا النمو فى اليابان ، فان « قوة الصين كشعب ، تكمن فى نظام الأسرة بها » (٣٥) .

ومن ولاء الصينى لأسرته ، تولد ولاؤه لامبراطوره ، بوصفه (ربا) للأسرة الكبرى ، أو رئيسا للدولة ، تماما كما حدث فى اليابان — فلقد كان امبراطورر الصين يستمد سلطته من السماء ، وكان يوصف بأنه « (ابن السماء) ، بحكم نيابته عن الخالق » (٣٦) ، وكان هذا الولاء للسلطة الامبراطورية — على حد تعبير بانيكار — هو الذى خلق « القدرة ، التى كان نواب الملك بالصين ، ينفذون بها سياسات الادارة المركزية ، وذلك حتى حين كانت حكومة بيكين نفسها ، ضعيفة وفاسدة ،

---

(٣٣) تاريخ البشرية — المجلد السادس (القرن العشرون) — التطور العلمى والثقافى — الجزء الثانى — ٢ (صورة الذات ، وتطلعات شعوب العالم) — اعداد اللجنة الدولية ، باشراف منظمة اليونسكو — الترجمة والمراجعة : عثمان نويه وآخران — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٢ ، ص ١٠٦ .

(٣٤) آدم كيرل : استراتيجية التعليم ، فى المجتمعات النامية (دراسة للعوامل التربوية والاجتماعية ، وعلاقتها بالنمو الاقتصادى) — ترجمة سامى الجمال — مراجعة د. عبد العزيز القوصى — الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(35) FORSTER, LANCELOT; Op. Cit., P. 51

(٣٦) دكتور سعد مرسى أحمد ، ودكتور سعيد اسماعيل على : تاريخ التربية والتعليم — عالم الكتب — ١٩٧٢ ، ص ٥٢ .

وعديمة الكفاءة » (٣٧) .

ويرى ول ديورانت ، أنه « اذا كانت الدولة المثالية ، هى التى تجمع بين الدمقراطية والأرستقراطية ، فان الصينيين قد أنشأوا هذه الدولة ، منذ ألف عام أو تزيد ، واذا كانت خير الحكومات ، هى أقلها حكما ، فقد كانت حكومة الصين ، خير الحكومات ، على الاطلاق » . ذلك أن المسافات الشاسعة ، التى كانت « تفصل كل مدينة عن الأخرى، وتفصل المدن كلها عن عاصمة الامبراطورية ، والجبال الشامخة ، والصحارى الواسعة ، والمجارى التى تتعذر فيها الملاحة » ، « كانت هذه كلها عوامل ، تضطر الدولة ، لأن تترك لكل اقليم من أقاليمها ، استقلالا ذاتيا ، يكاد يكون كاملا ، من كل الوجوه » (٣٨) .

ورغم ذلك — يتم ول ديورانت حديثه — فقد « كان الامبراطور ، يشرف على هذه الملايين الكثيرة ، من فوق عرشه المزعزع ، وكان يحكم من الوجهة النظرية ، بحقه المقدس ، فقد كان هو (ابن السماء) ، وممثل الكائن الأعلى فى هذه الأرض » (٣٩) .

ولو أننا تتبعنا كل حضارات الشرق القديمة ، لوجدنا هذه (الظاهرة) ، التى رأيناها فى الصين واليابان ، وهى أن مفهوم (الدولة) ، قد نما نموه الطبيعى ، من الانسان الفرد ، الى الأسرة التى صار ينتمى اليها ، ثم الى القبيلة .. وأخيرا الى الدولة .

ولم يجد الشرقى تناقضا مطلقا ، بين ولائه لأسرته ، وولائه لدولته ، وانما وجد ولاءه لأسرته ، على العكس ، يقوى فى نفسه .. ولاءه لدولته .

---

(٣٧) ك . م . بانيكار : آسيا ، والسيطرة الغربية — ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد — مراجعة أحمد خاكى — من الفكر السياسى والاشتراكى — الجمهورية العربية المتحدة — وزارة الثقافة والارشاد القومى — الادارة العامة للثقافة — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ ، ص ٧٠ .

(٣٨) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الرابع ، من المجلد الأول (٤) (الشرق الأقصى) (الصين) — ترجمة محمد بدران — الطبعة الثانية — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٧ ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

(٣٩) المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

الدولة عند الاغريق والرومان :

اذا كان الاغريق هم تلاميذ الشرق ، كما سبق (٤٠) ، فى الوقت الذى يعتبرون فيه أساتذة الرومان فى كل شىء ، على نحو ما رأينا فى كتابنا السابق من كتب السلسلة (٤١) ، فان الاغريق أخذوا من الشرقيين (كل شىء) ، الا أنهم لم يستطيعوا أن يأخذوا من الشرقيين ، هذا (النمو) الطبيعى ، من الذات ــ أو من الانسان الفرد ، على حد ما عبرنا سابقا ــ الى الأسرة ، ثم القبيلة ، ثم الدولة ــ وانما هم بدءوا فى نموهم من الذات ، وارتدوا اليها مرة ثانية ، ولا زال كل تفكيرهم يدور حولها •• وحدها •

ويذكرنا ذلك ، بما سبق أن قلناه ، عن تعامل اليابانيين مع الحضارة الغربية ، فقد تعاملوا معها ، كشرقيين ، كما تعامل الاغريق من قبل ، مع حضارات الشرق ، كغربيين •

ويرى ول ديورانت ، أن « الحياة فى بلاد اليونان ، لم تكن حياة دنيوية ، كما يصفها المؤرخون ، بل كان للدين فيها شأن كبير ، فى كل مكان »،الا أنه « بينما كان الكهنة فى مصر ، وبلاد الشرق الأدنى ، يسيطرون على الدولة ، كانت الدولة فى بلاد اليونان ، هى التى تسيطر على الكهنة ، وكان لها الزعامة فى الشئون الدينية ، ولم يكن الكهنة سوى موظفين صغار فى الهياكل » (٤٢) •

ثم يتم ول ديورانت لنا جوانب الصورة ، فيرى أنه « لم يكن للدولة دين رسمى ، يتمسك به جميع أفرادها ، أو عقائد ثابتة مقررة ،

---

(٤٠) ارجع الى ص ٤٣ ، ٤٤ من الكتاب •

(٤١) دكتور عبد الغنى عبود : الحضارة الاسلامية ، والحضارة المعاصرة ــ الكتاب الحادى عشر من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) ــ الطبعة الأولى ــ دار الفكر العربى ــ ١٩٨١ ، ص ٧٦ وما بعدها من الكتاب •

(٤٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ــ الجزء الأول من المجلد الثانى (حياة اليونان) ــ ترجمة محمد بدران ــ الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية ــ لجنة التاليف والترجمة والنشر ــ ١٩٥٣ ، ص ٣٤٨ •

ولم يكن قوام الدين ، هو الاقرار بعقائد معينة ، بل كان قوامه الاشتراك فى الطقوس الرسمية ، وكان فى وسع أى انسان ، أن يؤمن بما يشاء من العقائد ، على شريطة ألا يكفر بآلهة المدينة ، أو يسبها . وملاك القول ، أن الدين والدولة ، كانا شيئا واحدا ، فى بلاد اليونان » (٤٣) .

وهو أمر لم تشذ فيه بلاد اليونان ، عن غيرها من البلاد ، على نحو ما رأينا فى الفصل السابق (٤٤) .

وقد كانت هذه (الفردية) الدينية ، هى التى جعلت « الدين عاملا فى التفرقة بين اليونان ، بقدر ما كان عاملا فى وحدتهم » (٤٥) ، على حد تعبير ول ديورانت ، فقد كان « التوحيد مستحيلا ، فقد كان لكل أسرة فى أيام اليونان القديمة ، الهها الخاص ، توقد له فى البيت النار ، التى لا تنطفىء أبدا ، وتقرب له القربان من الطعام والخمر ، قبل كل وجبة » (٤٦) .

« كذلك كان لكل جماعة ، بطنا كانت أو عشيرة أو قبيلة أو مدينة ، الهها الخاص » ، « وكان وسط المدينة ، وأعلى مكان فيها ، ضريح الهها ، وكان الاشتراك فى عبادة الهها ، رمز مواطنيها ، وميزتهم ، والواجب المفروض عليهم » (٤٧) .

كما « كان لكل حرفة ، ولكل مهنة ، ولكل فن ، اله خاص ، أو راع حارس ، بلغة هذه الأيام » (٤٨) ، « وكانت الأرض لا السماء ، موطن معظم الآلهة اليونانية » (٤٩) .

---

(٤٣) المرجع السابق ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .
(٤٤) ارجع الى ص ٣١ ، ٣٢ من الكتاب .
(٤٥) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الثانى (حياة اليونان) (المرجع السابق) ، ص ٣١٧ .
(٤٦) المرجع السابق ، ص ٣١٧ .
(٤٧) المرجع السابق ، ص ٣١٨ .
(٤٨) المرجع السابق ، ص ٣١٩ .
(٤٩) المرجع السابق ، ٣٢٢ .

« وكانت قوانين اليونان ، ترى المروق من الدين — أى الامتناع عن عبادة الآلهة اليونانية — جريمة كبرى ، يعاقب عليها بالاعدام ، وهذا هو القانون ، الذى حكم به على سقراط بالموت » (٥٠) .

ولقد كانت هذه (الفردية) اليونانية ، المتعـددة الجوانب ، هى التى فتحت المجال للاغريق ، ليسبقوا الشرقيين فى مجال الفلسفة ، وذلك لأن الدولة فى الشرق ، كانت « تقوم معها ، الى جانب الدولة الحاكمة ، دولة دينية ، من الكهان ورؤساء الدين ، يسيطرون على شئون العقيدة ، ومباحث الفكر فى أسرار الطبيعة ، وما وراءها من الغيب المجهولة » ، بينما بلاد اليونان ، « لم تحكمهـا دولة عريقة ، ولم تكن فيها الى جانب الدولة الحاكمة ، دولة من دول الكهانة » (٥١) .

وكان لابد أن تقـوم للاغريق دولة ، عندما تعرضت بلاد اليونان للأخطـار الخارجيـة ، ومن ثم فانهم « ما لبثوا جيلا أو جيلين ، حتى اصـطدموا بسلطان الدين وسلطان الدولة ، فقتل سـقراط ، وتشرد أفلاطون ، وقضى أرسطو بقية حياته ، فى عزلة واهمال ، وكان عـدد الهاربين من فلاسفتهم ، أكثر من عدد المقيمين الآمنين » (٥٢) .

أو على حد تعبير ول ديورانت ، عند حديثه عن نتائج الغزو العسكرى اليونانى للشرق ، ان اليونانيين لم يؤثروا فى الشرق ، « بل حدث عكس هـذا ، حدث على مر الأيام ، أن جاشت أساليب التفكير والاحساس الشرقية ، وغمرت الطبقة اليونانية الحاكمة ، ثم نقلها هؤلاء الى الغرب ، فكانت هى التى بدلت العالم الوثنى » .

و « سرعان ما قبل اليونان آلهة الشرق ، ورأوا أنهم فى جوهرهم ، آلهتهم هم ، ولكن اليونانى لم يكن فى واقع الأمر ، يؤمن بالآلهة ، كما

---

(٥٠) ول ديورانت : قصـة الحضـارة — الجزء الخامس من المجلد الرابع (١٦) (عصر الايمـان) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافيـة ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ص ٩١ .

(٥١) عباس محمود العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين (مرجع سابق) ، ص ٤٤ .

(٥٢) المرجع السابق ، ص ٤٥ .

كان يؤمن بهـــا الشرقى ، وبهــذا بقى الاله الشرقى ، ومات الاله اليونانى » (٥٣) •

ولكن هذا الاله الشرقى ، يبدو أنه لم يعمر طويلا ، فى بلاد غريبة عنه ، فلقد ظلت الروح الفردية تلك ، هى الروح المتأصلة ، على نحو ما سنرى •

ولكن هناك (مصالح مشتركة) ، لم يكن ممكنا اغفالها ، ومن ثم كان لابد من الديموقراطية ، التى اشتهرت بها أثينا ، ولا يزال الغرب يفخر بها ، « فلم يكن بين الأحرار فى أثينة ، طوائف ممتازة ، وأخرى غير ممتازة • وكان فى مقدور الرجل ، أن يرقى بجهوده وحدها ، الى أية مرتبة فى الحيـــاة » (٥٤) •

ويرى ول ديورانت ، أنه « بفضل هــذا النظــام ، ذى النزعة الاقتصادية الفردية ، تخففت من حدتهــا النظم الاشتراكية ، ازدادت الثروة فى أثينة ، وانتشرت فيهــا انتشارا يحول بينهــا وبين الثورة المتطرفة ، وبذلك ظلت الملكية الفردية آمنــة فى أثينــة ، الى آخــر أيامهــا » (٥٥) •

وكان بيركليس يرى فى خطابه الذى ألقــاه سنة ٤٣١ ق•م ، أن « أساس الفطنة الأثينية ، يكمن فى دستورها الديموقراطى ، حيث تعمل الحكومة لمصلحة الكثرة ، لا القلة ، ويتاح الاسهام فى الخدمة العــامة ، لكل الناس ، من أهل المواهب ، بصرف النظر عن حالتهم الاقتصادية» (٥٦) •

---

(٥٣) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث من المجلد الثانى (حياة اليونان) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٤ ، ص ٤٦ ، ٤٧ •

(٥٤) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثانى ، من المجلد الثانى (حياة اليونان) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ص ٦٩ •

(٥٥) المرجع السابق ، ص ٧٨ ، ٧٩ •

(٥٦) كلنتون هارتلى جراتان : البحث عن المعرفة ، بحث تاريخى فى تعلم الراشدين — ترجمة عثمان نويه — تقديم صلاح دسوقى — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٢ ، ص ٤٥ •

بيد أنه لم يكن يتاح للجميع — بالفعل — أن يساهموا فى الخدمة العامة ، كما يدعون ، فلقد كان المواطنون المقصودون ، هم المواطنون الأحرار ، لا العبيد ، فى الوقت الذى كان عدد العبيد فى أثينا ، فى عصر أفلاطون — أى فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد ، أربعة أمثال عدد الأحرار (٥٧) — أى أن أغلبية سكان أثينا ، كانوا محرومين من حق المشاركة فى الحياة العامة ، ولذلك لم يكن عجيبا ، أن يعتبر سقراط «الديموقراطية ، سخفا وعبثا»(٥٨) ، وأن يكفر أفلاطون — بعدسقراط — بهذه الديموقراطية كفرا ، من خلال ذلك (التصور) الذى قدمه ، لمجتمع شيوعى ، تعلو فيه مصلحة المجموع على مصلحة الفرد •• وذلك فى كتابه الشهير (الجمهورية) ، الذى اعتمدت عليه كل الأفكار الاشتراكية (الشيوعية) بعده ، بما فى ذلك الأفكار الشيوعية المعاصرة ، على نحو ما سنرى عند الحديث عن (الدولة الشيوعية) فى الفصل الرابع •

ولا تختلف (الدولة الرومانية) فى كثير عن (الدولة الاغريقية) ، فلقد « ورثت الدولة الرومانية هذا الفكر اليونانى الهلينى ، الذى هو تراث أوربا ، الذى مازال ممتدا خلال الامبراطورية الرومانية ، والذى جددته أوربا فى عصر النهضة ، وعبرت عن أنها امتداد له ، وما تزال تؤمن بذلك حتى اليوم — هذا التراث ، الذى يقوم على الوثنية ، وعبادة الفرد ، قامت عليه الحضارة الرومانية ، التى عمرت أكثر من ألف عام » (٥٩) •

فنزعة الاستعلاء العنصرى ، التى تميز بها الاغريق ، والتى جعلتهم

---

(٥٧) جمهورية افلاطون — ترجمة ودراسة الدكتور فؤاد زكريا — راجعها على الأصل اليونانى : الدكتور محمد سليم سالم — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٤ ، ص ٨٨ — من الدراسة •

(٥٨) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثانى ، من المجلد الثانى (حياة اليونان) (مرجع سابق) ، ص ٢٣٦ •

(٥٩) أنور الجندى : الاسلام والغرب — دار الاعتصام بالقاهرة — ١٩٧٦ ، ص ٣٠ •

يرون غيرهم دوما برابرة (٦٠) ، انتقلت منهم الى الرومان ، خاصة بعد أن استطاع اللاتين منهم ، السيطرة على مقدرات البلاد (٦١) • وكانوا يشتهرون « باعتقادهم أنهم أعظم الأجناس البشرية وأنبلها ، وبأنهم خلقوا للسيادة والتحكم ، وعلى ذلك ، فقد حاربوا غيرهم من القبائل والأجناس ، واستعبدوا من انتصروا عليه » (٦٢) •

وبالرغم من أن الرومان لم يكونوا « بطبعهم شعبا فنيا » ، على حد تعبير ول ديورانت ، « فقد كانوا قبل أغسطس محاربين ، وكانوا بعده حكاما » (٦٣) ، ولكنهم — رغم ذلك — كانوا ممتازين « فى النواحى التطبيقية •• فقد استعاروا أفكار اليونانيين القدماء ، وترجموها الى أعمال — استعاروا منهم الرياضة والعلوم ، وطبقوها فى رصف الطرق والبناء ، واستعاروا أفكارهم عن تنظيم المجتمعات ، فساعدتهم هـذه الأفكار على سن القوانين ، التى صارت — وما زالت — مرجعا للأمم الحديثة ، فى شئونها المعقدة » (٦٤) •

وحتى الأفكار الدينية ذاتها ، استعاروها من اليونانيين ، وان تركوا عليها بصمتهم ، التى تميزهم عن الاغريق ، بوصفهم شعبا محاربا ، بينما كان الاغريق شعبا مفكرا •

---

(60) DEWEY, JOHN : Democracy and Education, An Introduction to the Philosophy of Education; The Macmillan Company, New York, 1916, p. 337.

(٦١) كانت ايطاليا فى أول الأمر تتكون من ثلاث جنسيات : الاترسكانيون ، النازحون اليها من آسيا الصغرى ، واليونانيون ، واللاتين ، القادمون اليها من أوربا .

(٦٢) فتحية حسن سليمان : التربية عند اليونان والرومان — مكتبة نهضة مصر ، ص ٧٣ .

(٦٣) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثانى من المجلد الثالث (١٠) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ص ٢٥٠ .

(٦٤) فتحية حسن سليمان (المرجع الأسبق) ، ص ٧٤ .

والمفكر يطلب الحرية ، ولكن المحارب يطلب مع الحرية .. جماعة يحارب بها ولها .

ولذلك يلاحظ ول ديورانت ، أن « الأسرة » كانت محور حياة الرومانى ، وقد « كانت الأسرة الرومانية ، رابطة بين الأشخاص والأشياء من جهة ، والآلهة من جهة أخرى . وكانت هى المركز الذى يلتف حوله الدين ، والخلق ، والنظام الاقتصادى ، وكيان الدولة بأجمعها ، كما كانت هى المنبع ، الذى تستمد منه هذه المقومات كلها»(٦٥) .

ويلفت نظر الدارسين للتاريخ الرومانى ، تركيبة تلك الأسرة الرومانية ، ومثالياتها ، والدور الذى كانت تلعبه الأم فيها ، فجودسل يرى أنه « على عكس اليونانيين ، كان الآباء الرومان ، لا يتركون أبناءهم لرعاية العبيد . وكانت كل أم رومانية تعتنى بأبنائها بنفسها » . « وكان هناك مجهود كبير يبذل ، فى سبيل الحيلولة بين الأطفال ، وسماع أى حديث لا يليق ، حتى يكون جو البيت كله ، ذكاء وحصافة ، وحسن تصرف .

وكان الطفل يتعلم على يد أمه أولا ، ثم على يد أبيه ، تلك الصفات الأسرية والاجتماعية ، كالاقتصاد ، وضبط النفس واحترامها ، والتقوى والشجاعة والولاء للدولة » .

« وكان الطفل فى سن السادسة أو السابعة ، لا يفارق أباه ، سواء فى زراعته ، أو فى ميدان التدريب العسكرى » . « وعلى ذلك كان الغلام الرومانى ، يدرب فى مدرسة الحياة ، ليتحمل المسئوليات ، التى ستلقى عليه بعد ذلك فعلا » (٦٦) .

---

(٦٥) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الثالث (٩) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م ، ص ١٢٢ .

(66) **GOODSELL, WILLYSTINE : A History of the Familly, as a Social and Educational Institution; The Macmillan Company, New - York, 1923, pp. 126, 127.**

وعن الاغريق ، أخذ الرومان تعدد الآلهة ، الا أن هذه الآلهة كانت « فى بعض الأحيان ، معنويات مجردة ، كالصحة ، أو الشباب ، أو الذاكرة » (٦٧) ، وكانت هذه الآلهة ، تتنوع وتتعدد ، « وفى رومة القديمة، حيث كان الآلهة حلفاء الدولة ، وأصدقاءها الأوفياء ، كان الخروج عليهم، أو التجديف فى حقهم ، من جرائم الخيانة العظمى ، التى يعاقب عليها بالاعدام » (٦٨) — كما كان الأمر عند الاغريق .

وظهرت (البصمة) الرومانية المتميزة ، المستمدة من الأسرة ، فى نظام العبادة ، فلم يكن تغلب عليه (الفردية)، كما كان الحال عند الاغريق، بل بدأت تغلب عليه سمة الجماعة ، التى تلعب (الأسرة) دورا واضحا فيها ، فقد « كان الأب فى منزله كاهنا ، ولكن الصلوات العامة كان يرأسها جماعات (Collegia) من الكهنة » ، « ويرأسها كلها حبر أعظم » (٦٩) .

وكان ذلك أساس نظام الكهنوت ، الذى قامت عليه المسيحية فيما بعد — على نحو ما سنرى .

وكان هذا النظام (الكهنوتى) ، هو المحور الذى دارت حوله الدولة الرومانية أيضا ، متمثلا فى القوانين التى تقدس ، والامبراطور الذى يقود المسيرة ، والبرلمان الذى ترجع اليه السلطة التنفيذية ، فى اتخاذ القرار — أو على حد تعبير ول ديورانت ، وهو يتحدث عن حكم أغسطس (سنة ٢٧ م) ، ويرى أنه « وفر الحماية لجميع طبقات

---

(٦٧) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الثالث (٩) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) (المرجع الأسبق) ، ص ١٢٣ .

(٦٨) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الخامس ، من المجلد الرابع (١٦) (عصر الايمان) (مرجع سابق) ، ص ٩١ .

(٦٩) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الثالث (٩) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) (المرجع الأسبق) ، ص ١٣٠ .

الأمة ، بسن القوانين ، وبالدقة فى تطبيقها ، ووضع فى الطرق العامة ، حراسة قوية » (٧٠) .

ولم يكن غريبا ، أن تتجسد آمال روما كلها فى أغسطس ، خاصةحين « تزعم حركة احياء الدين ، وسار على نهجها ، وكان يرجو أن يكون الناس أكثر قبولا لاصلاحاته السياسية والأخلاقية ، اذا ما ربطها ربطا وثيقا ، بالآلهة الرومانية » ، حتى « كان أغسطس نفسه ، من أكبر المنافسين لآلهته ، وكان قيصر قد ضرب له المثل فى هذا التنافس . ذلك أن مجلس الشيوخ اعترف بألوهية قيصر ، بعد عامين من مقتله ، وما لبثت عبادته أن انتشرت فى سائر أنحاء الامبراطورية » (٧١) .

ولا ننسى هنا أن عبادة الانسان المصلح ، قد انتقلت هى الأخرى الى المسيحية فيما بعد — على نحو ما سنرى أيضا .

ويعلق ول ديورانت على عبادة الفرد تلك ، التى انتقلت من الرومان الى المسيحية ، بقوله : انه « لم يكن تأليه الأباطرة ، دليلا على اجلال الطبقات العليا لحكامها ، بقدر ما كان شاهدا على قلة اجلالها لآلهتها » (٧٢) .

واذا كانت (الفردية) هى السمة الأساسية ، التى أخذها الغرب الحديث عن الاغريق ، مضافا اليها نزعة التعالى العنصرى ، فقد أضاف الرومان الى هذه السمة ، سمة جديدة ، ميزت الغربيين أيضا ، وهى سمة التوسع الاستعمارى والسعى للسيطرة على العالم ، منذ نجح القياصرة الرومان ، فى ضم أجزاء كبيرة من أوربا وآسيا وأفريقيا ، تحت سيطرتهم ، على حد تعبير أوليخ (٧٣) .

---

(٧٠) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثانى من المجلد الثالث (١٠) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) (مرجع سابق) ، ص ٢١ .

(٧١) المرجع السابق ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٧٢) المرجع السابق ، ص ٣٥٤ .

(73) ULICH, ROBERT : The Education of Nations, A Comparison in Historical Perspective; Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, 1961, pp. 5, 6.

وعلى هاتين السمتين ، بنيت الدولة المسيحية فى العصور الوسطى ، قبل الغرب الحديث .

الدولة فى العصور الوسطى المسيحية :

وعلى هـذا الأساس — اليونانى / الرومانى — قامت (فكرة) الدولة فى العصور الوسطى المسيحية فى الغرب .

وقـد كان ظهور المسيحية فى فلسطين ، التابعـة للامبراطورية الرومانيـة ، بمثـابة مسمار كبير ، دق فى نعش هـذه الامبراطورية الرومانية ، ولكن هـذا المسمار ، لم يؤد الى تصدع الامبراطورية ، الا بعد ثلاثة قرون تقريبا ، حيث (سقطت) الامبراطورية ، فى يـد المسيحية ، بدلا من أن تتمكن الامبراطورية ، من القضاء على المسيحية .

ويرى ول ديورانت ، أن « سقوط رومة ، كقيامها ، لا يعزى الى سبب واحد ، بل الى كثير من الأسباب » ، وأن « الحضارة العظيمة ، لا يقضى عليها من الخارج ، الا بعد أن تقضى على نفسها من الداخل ، وشاهد ذلك ، انا نجد الأسباب الجوهرية لسقوط رومة ، فى شعب رومة نفسه ، أى فى أخلاقها ، وفى النزاع بين طبقاتها ، وفى كساد تجارتها ، وفى حكومتها الاستبدادية البيروقراطية ، وفى ضرائبها الفادحة الخانقة ، وحروبها المهلكة » (٧٤) .

كما يرى أن « صفات الرجولة ، التى نشأت من بساطة العيش ، وتحمل المشاق ، ودعمهـا ايمان قوى — نقول ان هذه الصفات ، قـد أضعفها بهرج الثروة ، وحرية عدم الايمان » ، وأن « المسيحية كانت أهم أسباب سقوط الدولة الرومانية ، لأن هذا الدين » ، « قـد قضى على العقائد القديمة ، التى كانت هى الدعامة الخلقية للنفوس الرومانية ، والدعامة السياسية للدولة الرومانيـة ، لأنه ناصب الثقافة القـديمة العداء — فحارب العلم والفلسفة ، والأدب والفن » ، « وحول أفكار

---

(٧٤) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث من المجلد الثالث (١١) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التاليف والترجمة والنشر — ١٩٥٥ ، ص ٤٠٤ .

الناس ، عن واجبات هـذا العالم ، ووجههم الى الاستعداد لاستقبال كارثة عالمية ، وهو استعداد مضعف للعزيمة ، وأغراهم بالجرى وراء النجاة الفردية ، عن طريق الزهد والصلاة ، بدل السعى للنجاة الجماعية، بالاخلاص للدولة ، والتفانى فى الدفاع » (٧٥) •

واذا وضعنا فى اعتبارنا ، انحلال « صفات الرومانى القديم : من قوة وبأس وشجاعة وكرامة » (٧٦) ــ على حد تعبير بول مونرو ، فانه يكفى أن يؤدى الى انهيار الدولة التى كانت قوية ، انهيار الأساس ، الذى تقوم عليه أية دولة ، وهو شعبها ذاته ، على نحو ما رأينا فى الفصل الأول من الكتاب (٧٧) ، فكان أن انهارت « الحكومة المركزية ، على أثر غزوات البرابرة » (٧٨) ، وكانت هذه فرصة للكنيسة ، التى كانت تسعى الى تحطيم الامبراطورية ، لتتولى هى السلطة ، حتى صار « البابا صاحب السلطان الأعلى فى رومة » ، « ولمـا اعتنق البرابرة الغربيون المسيحية ، زاد ذلك من سلطة كرسى رومة ونفوذه ، زيادة كبرى »(٧٩) ــ وحتى صارت الكنيسة ــ على حـد تعبير ول ديورانت ــ « فى واقع الأمر ، دولة أوربية ، فوق الدول جميعـا ، تضطلع بشئون العبادات والأخلاق والتعليم والزواج والحروب العامة والحروب الصليبية والموت والوصايا ، لنصف سكان قارة من القارات ، وتشترك اشتراكا فعليا ، فى تصريف الشئون الزمنية » (٨٠) •

---

(٧٥) المرجع السابق ، ص ٤٠٨ •

(٧٦) الدكتور بول منرو : المرجع ، فى تاريخ التربية ــ الجزء الأول ــ ترجمة صالح عبد العزيز ــ راجعه حامد عبد القادر ــ الطبعة الثانيــة ــ مكتبة النهضة المصرية ــ ١٩٥٨ ، ص ٢٣٢ •

(٧٧) ارجع الى ص ٢٠ ــ ٢٢ من الكتاب •

(٧٨) ول ديورانت : قصة الحضارة ــ الجزء الأول من المجلد الخامس (١٨) (النهضة) (مرجع سابق) ، ص ٨١ •

(٧٩) ول ديورانت : قصة الحضارة ــ الجـزء الأول من المجلد الرابع (١٢) (عصر الايمان) (مرجع سابق) ، ص ١٠٥ •

(٨٠) ول ديورانت : قصة الحضارة : الجـزء الخامس من المجـلد الرابع (١٦) (عصر الايمـان) (مرجع سابق) ، ص ٦٨ •

ومنــذ القــرن الرابع الميلادى ، أى منذ اعتنــاق الامبراطور قسطنطين المسيحية ، (والصراع) على أشده بين البابا والامبراطور ، على قيادة الدولة ، فالأقوى منهما هو الذى يقود ، ولكن هذا الصراع كان غير ظاهر ، وانما كانت نتائجه هى الظاهرة — بل ان هذا الأقوى قــد يكون (امرأة) فى (حريم) البابا ، أو فى حــريم الامبراطور ... كمــا نرى فى عهــد الامبراطور الرومانى جستنيان ، فى القرن الســادس ، حيث زوجتــه ثيودورا ، هى التى تدير شــئون البلاد ، وقــد كانت قبل زواجها بالامبراطور ، « ممثلة ومومسا ، تثير مشاعر أهل القسطنطينية » ، « ونجحت أكثر من مرة فى اجهــاض نفسها ، ولكنهــا ولدت ابنا غير شرعى » ، « ثم أحبهــا جستنيان ، فاتخذها عشيقة له ، ثم تزوج بها ، وجعلها ملكة » .

« وأيا كان منشأ ثيودورا ، فانها أضحت بعد زواجها بالامبراطور ، سيدة لا يستطيع أحد أن يتهمها فى عفافها . وكانت تحب المال والسلطان ، حبا جما » ، و « لكن جستنيان ظــل طول حياته يحبها ، رغم هــذه الصفات » ، « وقــد اشتركت اشتراكا فعليا فى السياسة الخارجية ، والشــئون الكنسية ، وكانت تنصب البابوات والبطارقة ، وتخلعهم ، وتعزل أعداءها من مناصبهم » [٨١] .

ويرى ول ديورانت ، أن الكنيسة ، لم تستطع أن تصل الى هذا (الوضــع) ، فتكون (شريكا) فى الحكم ، الا من خلال ما (منحته) لنفسها من سلطة مقدســة ، ومن (عصمة) ، فى « تحديد الدين » ، وفى « أداء الأسرار المقدســة » ، و « كان التعميد أهم تلك الأسرار كلها » ، و « وأهم من هذا مراسم الكفارة » [٨٢] .

« وكان العشاء الربانى أهم الأسرار المقدسة ، بعد التعميد » [٨٣] ،

---

(٨١) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الرابع (١٢) (عصر الايمان) (المرجع الأسبق) ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٨٢) ول ديورانت : قصة الحضــارة — الجــزء الخامس من المجلد الرابع (١٦) (عصر الايمــان) (المرجع الأسبق) ، ص ١٤ ، ١٥ .

(٨٣) المرجع السابق ، ص ١٨ .

كما « جعلت (الكنيسة) الزواج ، من الأسرار المقدسة » (٨٤) .

وكان « فى آخـــر الأسرار المقدسة ، وهو المسح الأخير ، يستمع القس الى اعترافات المسيحى ، وهو يلفظ أنفاســه الأخيرة ، ويمنحه المغفرة ، التى تنجيه من النار » (٨٥) .

ومن خلال ما أعطته الكنيسة لنفسها من حقوق ، كانت « الكثرة الغالبة من المسيحيين » ، تعتقد أن « الكنيسة قد أقامها ابن الله ، وأنه وضع عقائدها الأساسية ، ومن ثم فان أية حركة ، تقوم للقضاء عليها — أيا كانت الأخطاء التى يرتكبها الآدميون ، الذين يصرفون شئونها — انما هى خروج على السلطة القدسية ، وخيانة للدولة الزمنية ، التى كانت الكنيسة درعها الأخلاقى الواقى .

واذا لم تثبت هذه الفكرة الأساسية فى عقولنا ، لم نستطع فهم تلك الوحشية ، التى دفعت رجال الدين وغير رجال الدين ، الى الاشتراك معا فى القضاء على دعوة الالحاد » (٨٦) .

ومرة ثانية ، يردنا ول ديورانت الى الأصول الاغريقية/الرومانية، لهذه الوحشية ، فى مواجهة الخصوم الدينيين ، أو الملحدين على حد تعبيره، فقد « كانت قوانين اليونان ، ترى المروق من الدين — أى الامتناع عن عبادة الآلهة اليونانية — جريمة كبرى ، يعاقب عليها بالاعدام ، وهـــذا هو القانون الذى حكم به على سقراط بالموت . وفى رومة القديمة ، حيث كان الآلهة حلفاء الدولة ، وأصدقاءها الأوفياء ، كان الخروج عليهم ، أو التجديف فى حقهم ، من جرائم الخيانة العظمى ، التى يعاقب عليها بالاعـــدام » .

---

(٨٤) المرجع السابق ، ص ٢٠ .
(٨٥) المرجع السابق ، ص ٢٠ .
(٨٦) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الخامس (١٨) (النهضة) (مرجع سابق) ، ص ١١١ .

« ولقد كان من المبادىء العامة ، لدى المسيحيين ـــ ولدى كثيرين من الضالين أنفسهم ـــ أن الكنيسة قد أقامها ابن الله ، وتبعا لهذا المبدأ ، كان كل هجوم على المذهب الكاثوليكى جريمة موجهة الى الله نفسه»(٨٧)٠

ويدافع ول ديورانت عن الكنيسة فى هذا المجال ، فيرى أنه « اذا كانت الكنيسة تشعر بأنهـــا جزء لا يتجزأ من حكومة أوربا الأخلاقية والسياسية ، فقد كانت تنظر الى الضلال ، كما تنظر الدولة الى الخيانة : أى أنه عمل يراد به تقويض أسس النظام الاجتماعى » ، وأنه « كان الشعب نفســه ، الا فى جنوبى فرنسا وايطاليا ، أشد الناس حماسة فى اضطهاد المخالفين » ، « فان الغوغاء أنفسهم قد عاقبوا الضالين ، قبل أن تشرع الكنيسة فى اضطهادهم ، بزمن طويل » (٨٨) ٠

ثم يشير الى أن « أشد قوانين الاضطهاد ، (كان) هو القانون ، الذى سنه فردريك الثانى ، فيما بين عامى ١٢٢٠ و ١٢٣٩ ، وقضى بأن يسلم الضالون ، الذين تحكم عليهم الكنيسة الى (اليد الزمنية) ، أى الى ولاة الأمور المحليين ٠٠ وأن يحرقوا أحياء » (٨٩) ٠

وقد امتدت مطاردة الملحدين تلك ، من داخل أوربا المسيحية ، الى خارجها ٠٠ حيث قامت (الحروب الصليبية) ، بهدف مطاردة الملحدين٠٠ المسلمين ، على نحو ما سنرى فى بدايات الفصل التالى ـــ الثالث ٠

ويلخص ول ديورانت القصة كلها ، حين يقول : لقد « أمدت رومة المسيحية بالنظام ، كما أمدتها اليهودية بمبادئها الخلقية ، وكما أمدتها بلاد اليونان بفلسفتها الدينية ٠ وقد دخلت هــذه كلها فى بناء الدين المسيحى ، مع ما دخله وما امتصه من الأديان المعارضة ٠ ولم يكن كل ما أخــذته الكنيسة من رومة ، هو العــادات والمراسم الدينية ، التى

---

(٨٧) ول ديورانت : قصة الحضارة ـــ الجزء الخامس من المجلد الرابع (١٦) (عصر الايمـــان) (المرجع الأسبق) ، ص ٩١ ٠
(٨٨) المرجع السابق ، ص ٩٢ ، ٩٣ ٠
(٨٩) المرجع السابق ، ص ٩٤ ٠

كانت سائدة فى رومة ، قبل قيام المسيحية » ، « بل كان أهم من هـذا كله ، نظام الحكم الواسع ، الذى أمسى ، بعد عجز السلطة الزمنية ، صرح الحكم الكنسى ، فلم يلبث الأساقفة ، لا الحكام الرومان ، أن صاروا هم مصدر النظام ، ومركز القوة والسلطان ، فى مدائن الامبراطورية ، وكان المطارنة وكبار الأساقفة ، أكبر عون لحكام الولايات ، ان لم يكونوا قد حلوا محلهم ، كما حل مجمع الأساقفة ، محل جمعيات الولايات ، وسارت الكنيسة الرومانية ، فى الطريق الذى سارت فيه قبلها الدولة الرومانية » . « وقصارى القول ، أن رومة قضت نحبها وهى تلد الكنيسة ، واكتمل نمو الكنيسة ، بأن ورثت التبعات الملقاة على رومة ، ورضيت أن تضطلع بها » (٩٠) .

---

(٩٠) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث من المجلد الثالث (١١) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) (مرجع سابق) ، ص ٣١٩ ، ٣٢٠ .

الفصل الثالث

الدولة فى الغرب الراسمالى

تقـــديم :

تختلف الآراء حـــول بداية العصـــور الحديثة فى الغرب : أالى الاصلاح الدينى فى مطلع القرن السادس تعود ؟ أم تراها تعود الى الثورة الصناعية ، فى منتصف القرن الثامن عشر ؟ أم الى الثورة القومية، فى نفس الوقت تقريبا ؟

والحق أن العصور الحديثة فى الغرب ترتد — فى مظاهرها — الى واحد من هـــذه الأمور ، ولكن (جذورها) الحقيقية ، تعود الى مطلع القـــرن الثالث عشر ، حيث (أخفقت) الحمـــلات الصليبية على بلاد الاسلام سنة ١٢٩١م ، وكانت الحملة الأولى منها قد بدأت سنة ١٠٩٥م .

بل اننى يمكن أن أرتد بهذه العصور الحديثة ، الى مطلع القرن السابع الميلادى ، قبل الحروب الصليبية بستة قرون .. حيث أطـــل الاسلام بنوره ، فى الجزيرة العربية هناك .. بعيدا بعيدا عن الغرب الرأسمالى ، الذى نتحدث عنه ، فكان ظهوره « أجل الحوادث فى التاريخ الدينى ، لهذه العصـور » — على حد تعبير ول ديورانت — وحديثه هنا عن عصر الايمان ، ابتداء من القرن السادس الميلادى ، وذلك — عنده — بسبب « تحديه للمسيحية ، فى الشرق والغرب على السواء . ذلك أنه لم يكد دين المسيح يجنى ثمار انتصاراته على الامبراطورية الوثنية ، وعلى الشيع المسيحية الملحدة ، حتى انتزعت منه أعظم ولاياته ، عزة على الدين واستمساكا به — انتزعهـــا منـــه ، فى يسر مروع ، دين يحتقر فلسفة الالهيات المسيحية ، والمبادىء الأخلاقية المسيحية .

نعم ان البطـارقة ظلوا فى كراسيهم بأنطاكية وبيت المقـدس والاسكندرية ، بفضل تسامح المسلمين ، ولكن مجد المسيحية قد زال ، من تلك الأقاليم ، وكانت المسيحية الباقية منهـا ، « مسـيحية مارقـة قومية » (١) — على حد تعبيره أيضا .

ولقد كانت (الضربة) التى وجهها الاسلام الى المسيحية ، بمجرد ظهوره ، هى التى حولت تاريخ أوربا المسيحية وتاريخ العالم كله ، الى حيث سار .

وزاد من قيمة هذه (الضربة) وفعاليتها ، أن الاسلام لم (يفرض على) المسيحيين أن يتحولوا اليه ، بل دفعهم الى هذا التحول ، « أن حالة الكنيسة الشرقية ، التى تدهورت فى ذلك الوقت — من الناحيتين الخلقية والروحية — لابد أن تكون قد دفعت كثيرين ، الى أن يلتمسوا جـوا روحيا أسلم وأصح ، فى ذلك الدين الاسلامى ، الذى جاءهم ، وهم فى أشد ما تكون الحماسة الغضة ، قوة وعنفا » (٢) — على حـد تعبير السير توماس أرنولد .

وزاد من قسوة هذه (الضربة) ، أن المـد الاسلامى أخذ يتسع ، وأنه أخذ يشق طريقه صوب الغرب ، عن طريق شمال أفريقيا ، حتى تمت السيطرة على الأندلس ، سنة ٧١٠ م ، وحتى وصل الى أبواب باريس ذاتها سنة ٧٣٢ م ، مما دفع ليو الثالث سنة ٧٢٦ — فى نفس الوقت — تقريبا — متأثرا «بمحاورته للمسلمين ، واتصاله بهم فى الحروب

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث من المجلد الرابع (١٤) (عصر الايمـان) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافيـة ، فى جامعة الدول العربيـة — لجنـة التأليف والترجمـة والنشر — ١٩٥٦ ، ص ٣٦٣ .

(٢) سير توماس و. ارنولد : الدعوة الى الاسـلام ، بحث فى تاريخ نشر العقيدة الاسلامية — ترجمـه الى العربية وعلق عليه : الدكتور حسن ابراهيم حسن وآخران — الطبعة الثانيـة — مكتبـة النهضة المصرية — ١٩٥٧ ، ص ٨٩ .

وغيرها » (٣) — مما دفعه الى مهاجمة « عبادة الصور والتماثيل ، والحرص الشديد على المراسم والطقوس ، والاعتقاد بالخرافات » ، « وخيل اليه أن الوثنية أخذت تغزو المسيحية ، وتتغلب عليها من جديد ، بهذه الوسيلة » ، « وأراد أن يضعف من سلطان الأساقفة ، على الشعب والحكومة » ، « فعقد مجلسا من الأساقفة ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، وأذاع بموافقتهم فى عام ٧٢٦ ، مرسوما يطلب فيه ازالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس ، وحرم تصوير المسيح والعذراء ..» (٤) .

أى أن ظهور الاسلام ، قد أدى الى تقويض دعائم الدولة المسيحية التى رأيناها تقوم قبل ظهوره ، فى القرن الرابع الميلادى ، على نحو ما رأيناه فى الفصل السابق .

ومن ثم كانت سلسلة الحروب الصليبية ، التى دفعت بالغرب المسيحى ، الى عصوره الحديثة ، بقدر ما باعدت بينه وبين مسيحيته .. التقليدية .

الحروب الصليبية وآثارها :

يرى الأفغانى ، أن « فتح القسطنطينية ، تلك العاصمة العصماء ، من قبل السلطان محمد الفاتح (٨٥٦ — ٨٥٧) ، هى التى ولدت الحقد ، فى الملوك المسيحيين ، ضد المسلمين » (٥) .

ويرى ول ديورانت ، أن « الحروب الصليبية » ، كانت « هى الفصل الأخير ، من مسرحية العصور الوسطى ، ولعلها أجدر الحوادث بالتصوير ، فى تاريخ أوربا والشرق الأدنى ، ففيها عمد الدينان

---

(٣) عبد المتعال الصعيدى : **المجددون فى الاسلام ، من القرن الأول الى القرن الرابع عشر (١٠٠ هـ — ١٣٧٠ هـ)** — الطبعة الثانية — مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز بمصر — ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢ م ، ص ٦٦ .

(٤) ول ديورانت : **قصة الحضارة** — الجزء الثالث من المجلد الرابع (١٤) (**عصر الايمان**) (المرجع الأسبق) ، ص ١٥٧ — ١٥٩ .

(٥) الأعمال الكاملة ، لجمال الدين الأفغانى ، مع دراسة عن حياته وآثاره — بقلم محمد عمارة — دار الكاتب العربى ، للطباعة والنشر ، بالقاهرة — ١٩٦٨ ، ص ٢٢٨ .

العظيمان ، المسيحية والاسلام — آخر الأمر ، وبعد قرون من الجدل والنقاش ، الى الفيصل الأخير ، فيما يشجر بين بنى الانسان من نزاع ، ونعنى به محكمة الحرب العليا » (٦) •

وهو يتفق مع الأفغانى فى (السبب المباشر) للحروب ، ويزيد عليه ، فعنده أن « أول سبب مباشر للحروب الصليبية ، هو زحف الأتراك السلاجقة ، وكان العالم قبل زحفهم ، قد كيف نفسه لقبول سيطرة المسلمين ، على بلاد الشرق الأدنى » •

« وكان السبب المباشر الثانى ، من أسباب الحروب الصليبية ، ما حاق بالامبراطورية البيزنطية من ضعف شديد الخطورة » ، فكان « من الحكمة أن يحارب الأتراك فى أرض آسية ، بدل أن ينتظرهم هم ، حتى يقتحموا بجحافلهم بلاد البلقان ، الى عواصم أوربا الغربية »(٧) •

—

وتجمع لمحاربة الاسلام والمسلمين (خليط عجيب من البشر) ، على حد تعبير ول ديورانت ، مدفوعا ببواعث عدة ، متناقضة ، « وقد بلغ من أمر هذا الخليط ، أن النساء والأطفال أصروا فى كثير من الحالات ، على الانضمام الى صفوف المجاهدين ، ليقوم النساء بخدمة أزواجهن •• » ، « ولعلهم كانوا على حق فى هذا الاصرار ، لأن العاهرات سرعان ما تطوعن لخدمة المحاربين » (٨) •

ويلفت نظر أرنست باكر ، أن « بذور الحرب الصليبية ، جرى القاؤها فى قرية فرنسية ، وأن الذى بشر بالحروب الصليبية ، بابا من أصل فرنسى ، وأنها بدأت واستمرت فى جوهرها ، مشروعا فرنسيا » ، « وأن المملكة ، التى أقامها الصليبيون بالشرق ، كانت فى جوهرها مملكة

---

(٦) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الرابع من المجلد الرابع (١٥) (عصر الايمان) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٧ ، ص١١ •

(٧) المرجع السابق ، ص ١٢ ، ١٣ •

(٨) المرجع السابق ، ص ١٨ ، ١٩ •

فرنسية » ، ويرى أن « من الطبيعي أن تكون فرنسا مهد الحروب الصليبية ، اذ أنها كانت فعلا موطن الحركة الكلونية » (٩) — تلك الحركة التى بدأت بالدعوة « الى اصلاح أحوال رجال الدين ، وتدعو الي العودة الى خصائل المسيحية ، من التقوى والعفة والطهارة ، ثم تطورت الى الحرص على التخلص من سيطرة السلطات الزمنية ، وجعل البابا زعيما للعالم المسيحى » ، ثم تطورت ، فصارت مهمة البابا أن « يسعى الى نشر نفوذه الدينى ، فى خارج العالم المسيحى » (١٠) .

ومن المنطقى ، أن تتزعم فرنسا — التى دق الاسلام بابها بالفعل — مهمة القضاء على الاسلام ، وأن تجر الغرب كله وراءها الى هذا الهدف ، فيما سمى فيما بعد ، بالحروب الصليبية .

ويحكى لنا المقريزى ، فى حوادث سنة ٦٢٦ هـ ، محاولة أحد رجال الدين المسيحى دخول المسجد الأقصى ، « وبيده الانجيل » (١١) ، ويزيد ول ديورانت عليه ، أنه بعد فتح أورشليم (القدس) سنة ١٠٧٩ م ، قطعت رءوس عدد كبير من المسلمين ، وقتل غيرهم رميا بالسهام ، أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج ، وظل بعضهم الآخر يعذبون ، عدم أيام ، ثم أحرقوا فى النار» ، و «أن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحرب ، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ، ويقذف بهم من فوق الأسوار ، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد ، وذبح السبعون ألفا من المسلمين ، الذين بقوا فى المدينة . أما اليهود ، الذين بقوا أحياء ، فقد سيقوا الى كنيس لهم ،

(٩) ارنست باركر : الحروب الصليبية — نقله الى العربية : الدكتور السيد الباز العرينى — مكتبة النهضة المصرية — ١٣٧٩ هـ — ١٩٦٠ م ، ص ٢٤ .
(١٠) المرجع السابق ، ص هـ — من المقدمة ، للمترجم .
(١١) المقريزى (أحمد بن على) : كتاب السلوك ، لمعرفة دول الملوك — صححه ووضع حواشيه : محمد مصطفى زيادة — الجزء الأول — القسم الأول — الطبعة الثانية — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٦ ، ص ٢٣١ .

وأشعلت فيهم النــار ، وهم أحياء » [١٢] •

وقد حدثت مظائع أكبر بعد ذلك ، عند فتح الأندلس ، بعد حوالى قرنين من الزمان ، وكان الذى أسقطها هو فرناندو الثالث (١٢١٧ — ١٢٥٢) الذي « اتخــذ أشبيلية عاصمة لملكه ، وحول مسجدها العظيم الى كنيسة واتخــذ القصر Alcasar مسكنا له ، وكانت الكنيسة تعــده وقت مولده ابنــا غير شرعى ، ولكنهــا عدته قديســا ، بعــد وفاته » [١٣] •

ونفس الشيء ، حدث فى صقلية ، قبل الأندلس ، ففيها — قبلها — تم تحويل « المساجد الاسلامية ، كنائس فخمة زاهية » [١٤] ، الا أن ملكهــا روجر الثانى (١١٠١ — ١١٥٤) ، وكان أذكى وأعقل من ملوك الأندلس ، حيث لم يقض على غير المسلمين ، كما فعل الآخرون ، وانما « منح المسلمين واليهــود واليونان والكاثوليــك ، حريتهم الدينية ، واستقلالهم الثقافى ، وفتح أبواب المناصب العليا ، لذوي المواهب ، على اختلاف أديانهم وطبقاتهم ، ولبس هو الثياب الاسلامية ، التى يلبسها رجال الدين المسلمون ، وعاش عيشة ملك لاتينى ، فى بلاط شرقى • وظلت مملكتــه جيلا من الزمان ، (أغنى دول أوربا ، وأعظمها حضــارة) ، وكان هو آخر ملوك زمانه استنارة » [١٥] •

الا أن ما فعله روجر الثانى ، لم يكن هو القــاعدة ، وانما كانت القاعدة ، هى القضاء على الاسلام — دينا ودولة وحضارة ، بوصــفه (المعول) ، الذى هدم قلعة المسيحية ، التى كانت حصينة قبله •

وفى سبيل تحطيم هــذا المعول ، ارتكبوا أكثر الأعمال وحشــية

---

(١٢) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الرابع من المجلد الرابع (عصر الايمان) (مرجع سابق) ، ص ٢٥ •
(١٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ •
(١٤) المرجع السابق ، ص ٣٤ •
(١٥) المرجع السابق ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ •

وبربرية ، فى التاريخ البشرى كله ، ضـد المسلمين ، بما فيهم الصغار والنساء والشيوخ ، وحولوا ـ بعدها ـ مساجد المسلمين الى كنائس ، بعد أن أبادوا هؤلاء المسلمين ، فى الأندلس على سبيل المثال .

ويزيد من بشاعة ما فعله هؤلاء الصليبيون ، أن لويس التاسع ملك فرنسا ، (يشيد) بذلك ، ويفخر به ، فى رسالته التى بعث بها الى الملك نجم الدين أيوب ، والتى ينقلها المقريزى ، وفيها يقول لويس لنجم الدين: « وانه غير خاف عنك ، أن أهل جزائر الأندلس ، يحملون الينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتـل منهم الرجال ، ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار » (١٦) .

وفى سبيل تحطيم هـذا المعـول أيضا ، سعى البابا جريجورى العاشر سنة ١٢٧٤ ، ونجح فيما سعى اليه ، من توحيد « الكنيستين ، الشرقية والغربية ، فترة من الزمان » (١٧) ، ولم تتحد الكنيستان منـذ انفصلتا عبر تاريخهما الطويل ، الا على هـذا الهدف ـ هـدف القضاء على الاسلام ـ كما تحالف نفس البابا ، مع أعدى أعداء ديانات السماء على العموم فى عصره ، وهم المغول (١٨) ـ الذين فتح اللـه صدورهم للاسـلام ، بعـد انتصارهم على المسلمين ، ورغم هذا الانتصار ، فى القرن الرابع عشر الميلادى ـ فكانوا من أكبر حماته ، والمدافعين عنه ، والعاملين على نشره .

ولم تحل الحروب الصليبية مشاكل المسيحية والمسيحيين ، كمـا كانوا يتوقعون ، وانمـا زادتها تعقيدا .

---

(١٦) المقريزى (احمد بن على) : كتاب السلوك ، لمعرفة دول الملوك ـ صححه ووضع حواشيه : محمد مصطفى زيادة ـ الجزء الأول ـ القسم الثانى ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١٩٥٧ ، ص ٣٣٤ .

(١٧) ارنست باركر (مرجع سابق) ، ص ١٦٧ .

(١٨) المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

ذلك أن الحروب الصليبية قد فشلت فى نهاية الأمر ، سواء لأنها « لم تعد ملائمة للأزمنة والعصور » (١٩) ، أو لأنها ، رغم أنها « رفعت من شأن البابوية ، فانها أسهمت أيضا فى افسادها » ، حيث اتخذتها « أداة فى يدها ، استخدمتها فى كل أعمالها السيئة » ، أى أنها « أسهمت آخر الأمر ، فى الحط من شأن البابوية ، فى نظر أوربا » (٢٠) .

ومن ناحية أخرى ، فقد عاد الصليبيون ، حتى أشدهم تحمسا ضد الاسلام ، وتعصبا ضده ، وهم متأثرون به وبحضارته ، فان « زيادة اختلاط المسيحيين بالمسلمين ، وتقدير الصليبيين لفضائل خصومهم ، تقديرا أخذ ينمو على مر الزمن » ، « ثم ما كان من كثرة تقليد الفرنجة المقيمين فى الأراضى المقدسة للشرقيين ، فى عاداتهم ، وأساليب حياتهم — ان ذلك كله لم يخفق فى ايجاد تأثير متبادل فى الأفكار الدينية . ومن أظهر ألوان هذا التأثير ، ذلك المسلك السمح ، الذى سلكه كثير من الفرسان المسيحيين ، نحو العقيدة الاسلامية ، وهو اتجاه فكرى ، كان أشد ما تشكو منه الكنيسة » (٢١) .

ولقد تعدى هذا التأثير فى كثير من الأحيان ، مجرد التسامح ، الى اعتناق الاسلام ذاته ، « حتى أن نفرا من الفرسان المسيحيين » ، قد « هجروا أديانهم المسيحية ، وهجروا قومهم ، وانضموا الى المسلمين » (٢٢) — تماما كما فعل المغول ، على نحو ما رأينا سابقا .

وقد لخص ول ديورانت ، خسارة المسيحية فى هذه الحروب ، بقوله : « اذا نظرنا الى الحروب الصليبية ، من حيث أغراضها المباشرة ، التى دارت رحاها من أجلها ، قلنا أنها أخفقت لا محالة . ذلك أنه بعد أن دامت هذه الحروب قرنين من الزمان ، بقيت بيت المقدس ، فى أيدى المماليك ، وقل عدد الحجاج المسيحيين الى تلك المدينة ، وزادت

---

(١٩) المرجع السابق ، ص ١٧٢ .
(٢٠) المرجع السابق ، ص ١٩٠ .
(٢١) سير توماس و. ارنولد (مرجع سابق) ، ص ١٠٩ ، ١١٠ .
(٢٢) المرجع السابق ، ص ١١١ .

مخاوفهم • يضاف الى هـذا ، أن الحكومات الاسلامية ، التى كانت من قبل تمتاز بالتسامح مع أصحاب الأديان الأخرى ، قد ذهب عنها تسامحها ، بسبب الهجمات المتكررة على بلادها ، ولم يبق فى أيدى المسيحيين ثغر واحد ، من ثغور فلسطين والشام ، التى انتزعوها من قبل ، لتستقبل التجارة الايطالية ، وأثبتت الحضارة الاسلامية ، أنها أرقى من الحضارة المسيحية ، فى رقتها ، وأسباب راحتها ، وتعليمها ، وأساليبها الحربية » (٢٣) • و « كان أثر الحروب الصليبية ، الذى يلى فى أهميته ، اضعاف العقيدة الدينية المسيحية ، هو بث روح النشاط ، فى الحياة المدنية الأوربية ، لمعرفة الأوربيين ، بأساليب المسلمين ، التجارية والصناعية » (٢٤) •

أو بعبارة أرنست باركر : « ان هذه الحروب ، لم تنته باحتلال مسيحيى الغرب للشرق ، بل انتهت باستيلاء الشرق الاسلامى ، على الغرب المسيحى » ، وفى « القرن الخامس عشر ، انتصر الهلال على الصليب ، فى كل مكان بأوربا وآسيا ، وجرى تدمير الحروب الصليبية والبعثات التبشيرية معا » (٢٥) — بعد أن حاولت جيوش المبشرين أن تقضى على الاسلام ، بأساليب غير تلك التى استخدمها الصليبيون •

وبفشل الحروب الصليبية ، زادت نار الصليبية اشتعالا ، أو على حد تعبير باركر ، « ان الحروب الصليبية لم تفشل •• انما جرى توقفها » (٢٦) ، « ومع ذلك ، فما زال طيف الحروب الصليبية ماثلا ، فأضحت الحروب الصليبية تقليدا دبلوماسيا ، تقرر اتخاذه ، لتبرير ما يلتمسه كل عمل سياسى جاد ، من الأعذار • على أن الحروب الصليبية ظلت باقية ، فى أذهان الملاحين ، فى صورة بالغة النبل والشرف • ذلك أن فاسكودى جاما ، وكريستوف كولومبوس ، والبوكيرك ، وكثيرين

---

(٢٣) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الرابع ، من المجلد الرابع (١٥) (عصر الايمان) (مرجع سابق) ، ص ٦١ •
(٢٤) المرجع السابق ، ص ٦٧ •
(٢٥) ارنست باركر (مرجع سابق) ، ص ١٨١ ، ١٨٢ •
(٢٦) المرجع السابق ، ص ١٧٢ •

من أمثالهم ، راودتهم الأحلام ، فى شىء من الاخلاص والايمان ، بأنهم انما يعملون على تخليص الأراضى المقدسة ، واتخذوا الصليب على صدورهم » (٢٧) .

أصول الغرب الحديث :

بالمسيحية فى الغرب ، بدأ الغرب القديم ، وبالاسلام بدأ الغرب الحديث .

ذلك أن المسيحية قد أدت الى تخلف الغرب ، بنظرتها الى الحضارتين اليونانية والرومانية ، على أنهما حضارتان وثنيتان ، مع أن وثنيتهما قد تسربت — كما سبق — الى صلب العقيدة المسيحية (٢٨) — ومن ثم حاربت أجمل ما فى هاتين الحضارتين ، وهو الجانب الفكرى والتقدم المادى ، وتشبثت بأسوأ ما فيهما ، وهو الوثنية ، بل انها حاربت فى سبيل هذه الوثنية طويلا ، حتى ثبتتها فى داخل حدوده ، ثم خرج يحارب ، لنشرها فى خارج هذه الحدود (٢٩) .

وبالاسلام ، عاد الغرب الى التقدم من جديد ، بعد احتكاكه المباشر بالحضارة اليونانية / الرومانية ، وقد ارتدت فى ديار الاسلام ثوبها الجديد ... القشيب .

ولما كان المسيحيون الغربيون ، أبناء الاغريق والرومان ، وثنيين بطبعهم ، فان أعينهم لم تقع من حضارة الاسلام ، الا على ما يتفق وطباعهم ... أى أنهم أخذوا الاسلام ، كما فهموه ... فكانت العودة الى الاغريق والرومان من جديد .

أما الاسلام الرحب الشامل ، فلم يكن فى مقدورهم أن يفهموه ويستوعبوه ، ليتخذوه أسلوب حياة .

---

(٢٧) المرجع السابق ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٢٨) ارجع الى ص ٦٢ ، ٦٣ من الكتاب .

(٢٩) تفصيل ذلك فى كتابنا الرابع عشر من كتب السلسلة باذن الله ، عن (المسيح ، والمسيحية ، والاسلام) ، والى بعضها أشرنا سريعا ، عند حديثنا عن (الدين والدولة) ، فى الفصل الأول ، ص ٣٣ — ٣٦ .

وكان أول تأثير اسلامى فى الغرب الحديث ، هو اعادة النظر الى العقل الانسانى ، واحترام معطياته ، ولم يكن هذا العقل بالمحترم يوما فى المسيحية ، بل لقد اتجهت اليه الحرب المسيحية ، أول ما اتجهت، ومن ثم اتجهت الى كل من دعا الى استخدامه ، فوظيفة العقل والعلم معا ، كان هو خدمة المسيحية ، و « طلب العلم ، اذا لم يقصد به خدمة الدين ، هو الوثنية بعينها » (٣٠) — على حد تعبير ول ديورانت ، ومن ثم انصب جام غضبها على جان روسلان Jean Roscellin (حوالى ١٠٥٠ — حوالى ١١٢٠) وعلى تلميذه أبيلارد Abelard (١٠٧٩ — ١١٤٢) ، « وكان الذى أزعج الكنيسة ، أكثر من أى الحاد معين تبينته عند أبلار ، هو افتراضه أن لا أسرار فى الدين ، وأن العقائد كلها يجب أن تكون قابلة للتفسير » (٣١) .

ورغم ذلك ، فقد كانت مثل هذه الأفكار ، الداعية الى (منطقة) الدين ،بداية الحركة المدرسية ، التى ظهرت فى أحضان الكنيسة ذاتها ، والتى دعت الى « تحرر العقل من ربقة العقيدة ، فزعم أن العقيدة لا تستطيع أن تحيا حياة مدعمة قوية ، بغير علم ومعرفة » (٣٢) ، ثم زاد القديس توماس الأكوينى St. Thomas Aquinas (١٢٢٥ — ١٢٧٥) من قوتها ، حين رأى « أنه لا تعارض بين اللاهوت والفلسفة ، أو بين الحقيقة المعلنة ، والعقل الانسانى ، لأن الله هو خالق كل حقيقة » (٣٣) .

ويرى ول ديورانت ، أن الفلسفة المدرسية « فى القرن الثانى عشر والثالث عشر ، (كانت) تقدما ثوريا فى التفكير البشرى ، أو فى اعادته

---

(٣٠) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء السادس من المجلد الرابع (١٧) (عصر الايمان) (مرجع سابق) ، ص ٨٧ .

(٣١) المرجع السابق ، ص ٨٦ .

(٣٢) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية ، فى العصور الوسطى ، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ ، ص ١٠٤ .

(٣٣) المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

الى سابق عهده . ذلك أن التفكير (الحديث) ، يبدأ بنزعة أبلار العقلية، ويسمو الى ذورته الأولى ، فى وضوح تومس اكويناس ومغامرته »(٣٤). كما يرى أيضا ، أن « الفلسفة المدرسية (كانت) مأساة يونانية ، تكمن فى جوهرها الأسباب التى قضت عليها . ذلك أن فى محاولتها اثبات الدين عن طريق العقل ، اعترافا ضمنيا بسلطان العقل ، وأن اعتراف دنز اسكوتسى وغيره ، بأن الدين لا يمكن اثباته بالعقل ، قد حطم الفلسفة المدرسية ، وأضعف الدين ، فى القرن الرابع عشر ، اضعافا أدى الى نشوب الثورة ، على طول جبهة العقائد الكنسية » (٣٥) .

وكانت أول ضربة اتجهت للحركة المدرسية والكنيسة معا ، تلك الضربة التى وجهها روجر بيكون Roger Bacon (١٢١٤ — ١٢٩٤) ، وهو واحد من أبناء الغرب ، الذين قصدوا الى الجامعات الاسلامية فى الأندلس ، « يرتوون من معينها الفياض » (٣٦) ، فعاد الى أوربا ، ونقل اليها المنهج العلمي فى التفكير والدراسة ، كما تعلمه على يد أستاذه الحسن بن الهيثم (٩٦٥ — ١٠٣٩ م) ، ودعا الى « استخدام الملاحظة والتجربة وفرض الفروض ، للوصول الى الحقائق العلمية » (٣٧) ، فكان — بحق — « رسول الطريقة التجريبية » (٣٨) ، من الشرق الاسلامى ، الى الغرب المسيحى .

وزاد من قيمة روجر بيكون ، أنه كان دائما « يعترف بفضل أولئك السباقين عليه ، ويثني عليهم ، ثنـاء لا حد له ، وكان يعترف كذلك بما

---

(٣٤) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجـزء السادس من المجلد الرابع (١٧) (عصر الايمـان) (مرجع سابق) ، ص ١٥٧ .
(٣٥) المرجع السابق ، ص ١٥٦ .
(٣٦) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : المدنية الاسلامية ، واثرها فى الحضارة الأوربية — الطبعـة الأولى — دار النهضة العربية — ١٩٦٣ ، ص ٤٣ .
(٣٧) الدكتور عبد الباسط محمد حسن : أصول البحث الاجتماعى — الطبعة الثانية — لجنـة البيان العربى — ١٩٦٦ ، ص ٦٦ .
(٣٨) د. م. تيرنر : الكشف العلمى — ترجمة أحمد محمد سليمان — مراجعة د. محمد جمال الدين الفندى — العدد (٥) من (العلم للجميع) — دار الكاتب العربى ، للطباعة والنشر ، ص ١٥ .

للعلوم والفلسفة الاسلامية من فضل عليه وعلى العالم المسيحى كلـه • وبما هو مدين به لليونان ، عن طريق العلماء المسلمين ، وأشار الى أن علماء اليونان والمسلمين (الكفرة) ، كانوا هم أيضا ممن تلقوا الوحى والهداية من اللـه »(٣٩) •

وبفضل روجر بيكون ، انتقل الغرب الى حضارته الحديثة ، فقد أدت هـذه العلوم الحديثـة ، الاسلامية المصـدر ، الى الثـورة الصـناعية ، فى منتصف القـرن الثـامن عشر ، والى سلسة الثوارت الأخرى التى تبعتها •

ولكن روجر بيكون ، ما كان ممكنا أن يتجه وجهته ، بدون الحركة المدرسية ، التى لم تكن بدورها لتقوم ، لولا الاسلام ، وما وجهـه من ضربة الى المسيحية ، على نحو ما رأينا من قبل •

وهكذا ، بفضل الاسلام وظهـوره ، انتهى فى الغرب « الايمـان بالروحية وبالرهبنة ، والانصراف عن هذا الوجود (الدنيا) ، على نحو ما تطلب الكنيسة — الى انكار الروحية والرهبنة والايمان ، عن طريق التشبث بهـذا الوجود وحـده ، والتركيز فيه ، واقامة حيـاة مادية اقتصادية ، أفضل ، فى داخله ، وليس فى خارجه •• فوقه أو بعده •

وهكذا تحول نظر الانسانية ، من أفق الى أفق ، وتحول هدفها من وضع الى وضع ، وتحول سعيها من طريق ، الى طريق آخر » (٤٠) •

وكانت ضربة قاضية للكنيسة ، أن يتحول الناس عنها ، وأن تدول دولتها ، فى حياة الغرب ، ولكن الكنيسة أثبتت فى الوقت نفسه ، أنهـا

---

(٣٩) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجـزء السادس من المجـلد الرابع (١٧) (عصر الايمـان) (مرجع سابق) ، ص ٢٠٦ •

(٤٠) الدكتـور محمـد البهى : الفكر الاسـلامى والمجتمع المعاصر (مشكلات الحكم والتوجيه) — الطبعة الثانية — دار الكتـاب اللبنانى — ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ •

قادرة دوما على أن (تتلون) ، بحيث تجد لهـا دورا فى حياة الناس ، حتى ولو أدى تلونها هذا ، الى بعدها عن جوهر المسيحية ، كما حدث فى تاريخ الكنيسة الأول • ومن ثم كان الاصلاح الدينى الذى قام به مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) فى الغرب سـنة ١٥١٥ ، تطـورا بالمسيحية ، ألفتـه ، ولم يكن شيئا بعيدا عن مألوف ما تعودته •

ولكن اصـلاح مارتن لوثـر ، لم يأت الا بعـد هـذه الضربة بقـرون •

وفى أثناء هـذه القـرون ، ، صارت الدولة فى يـد « أقلية من التجـار ، ذوى المـال ، ولكن أكثر من كانوا يحكمونهـا ، هـم (المستبدون) ، على اختـلاف درجات اسـتبدادهم » ، « وكانوا فى العقود الأولى من حكمهم ، يديرون شئون المدن بالدسائس والرشاوى والاغتيال الخفى الهادىء ، وساروا على سنن مكيفلى كلها ، قبل أن يولد مكيفلى نفسه ، ثم أحسوا بعد عام ١٤٥٠ ، بأنهم أصبحوا أكثر أمنا ، لأن الزمن خلع على حكمهم ، شيئا من القداسة ، فاقتنعوا فى حكمهم الداخلى،بالوسائل السلمية ، لكنهم كانوا يكمون أفواه الناقدين ، ويخمدون أنفاس المتذمرين المنشقين ، ويستخدمون لهذا الغرض ، جيشا كبيرا ، من الجواسس » . « غير أنهم رغم هذا ، قد نالوا احترام رعاياهم » (٤١) •

وكان منطقيا فى هـذه الفترة ، أن تتجـاهل الدولة الجـديدة ، الكنيسة ، « فان مجلس الشيوخ نفسه ، الذى يشبهه بترارك بمجلس من الآلهة ، كثيرا ما سخر من سلطة الكنيسة ، وتجاهل أشد القرارات البابوية رهبـة ، ولم يبـال بلعناتها وقرارات حرمانها ، وظـل يرحب باللاجئين من المتشككين المتبصرين (حتى عام ١٥٢٧) ، ووجـه أشـد

---

(٤١) ول ديورانت : قصة الحضارة ـ الجـزء الثـانى من المجـلد الخامس (١٩) (النهضة) — ترجمـة محمـد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر — ١٩٥٩ ، ص ٦ ، ٧ •

اللوم ، لأحد الرهبان ، لأنه هاجم يهوديا » [٤٢] .

وبرغم ذلك ، ظل للكنيسة نفوذها الروحي وحده ، ومن ثم « كان الفجور والدعارة ، يوجدان » ، « الى جوار الاعتقاد الدينى القوى والصلاح ، الذى يتمثل فى الصلوات ، والذهاب الى الكنائس كل أسبوع » . « وحتى العاهرات ، كن يأتين الى ذلك المكان ، بعد أن يسأمن من صناعتهن طوال الليل ، يخفين المنديل الأصفر ، الذى يحتم عليهن القانون لبسه ، رمزا لجماعتهن ، وذلك لكى يطهرن نفوسهن ، بالأدعية والصلوات » [٤٣] .

وقد كان مما لفت نظر رفاعة الطهطاوى فى فرنسا فى القرن الماضى ، هذا (التناقض) الغريب فى نفوس الفرنسيين ، فعجب لتدين الفرنسيين الشديد ، أو لبعضهم على الأصح ، ومع ذلك فانه لم يجد « لهم من دين النصرانية غير الاسم ، فهم داخلون فى اسم الكتابيين ، فلا يعتنون بما حرمه دينهم أو أوجبه ، أو نحو ذلك » [٤٤] .

الا أن ظروف فرنسا (الخاصة) ، هى التى جعلت (المشكلة) تستمر بها ، حتى عهد الطهطاوى ، بل وحتى اليوم .. ولكن بلاد أوربا الأخرى ، استطاعت أن تجد (صيغة ملائمة) ، تجد الكنيسة فيها مكانا .. فى الدولة الغربية الحديثة .

كانت أوربا العصور الوسطى موحدة ، وكان منطقيا ، أن تكون هناك (بابوية) ، تحكم كنائس أوربا ..ثم صارت أوربا فى عصورها الحديثة، مفتتة مجزأة .. قومية ، فكان منطقيا أن (تتفتت) وحدة الكنيسة ،

---

(٤٢) المرجع السابق ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٤٣) المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(٤٤) « كتاب تخليص الابريز ، فى تلخيص باريز » ، أو « الديوان النفيس ، بايوان باريس» — من : **الأعمال الكاملة ، لرفاعة رافع الطهطاوى — دراسة وتحقيق : محمد عمارة** — الجزء الثانى (السياسة والوطنية والعربية) — الطبعة الأولى — المؤسسة العربية ، للدراسات والنشر — بيروت — تشرين أول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، ص ١٥٥ .

فصارت هناك « كنيسة فرنسية مستقلة ، رئيسها ملك فرنسا نفسه » ، كما أنشئت « كنيسة قومية فى ألمانيا » ، « ووصف كبير أساقفة البابا ، بأنه (وحش سفر الرؤيى) ، ولاح أن صرح الكنيسة كله قد تحطم ، وأصبح لا يرجى شعب صدعه ، وأن الاصلاح القومى للكنيسة ، قد توطدت دعائمه ، قبل لوثر بمائة عام » (٤٥) .

أى أن الكنيسة قد رضيت — فى هذه المرحلة الأخيرة — بأن تكون (تابعة) للسلطة السياسية فى ادارة الدولة الغربية ، وقد عاشت طوال العصور الوسطى هى (القائدة) ، التى تتلقى منها السلطة السياسية ، الأوامر والنواهى .

وقد جاء الاصلاح الدينى سنة ١٥١٥ ، ليفلسف هذا الدور الثانوى للكنيسة .. فهو خير من أن يختفى دورها فى حياة الغرب تماما .. كما نرى فى ... البلاد الشيوعية اليوم .

الدولة فى الغرب الحديث :

كان ظهور الاسلام ، هو الذى وجه الحياة الانسانية ، الى عصورها الحديثة ، على نحو ما قلنا فى تقديمنا لهذا الفصل (٤٦) ، وكان أول رد فعل لظهوره ، هو ظهور (الحركة المدرسية) ، فى داخل الكنيسة ذاتها ، على نحو ما سبق فى هذا الفصل (٤٧) .

ولم يكن غريبا — لذلك — أن تنتقل (الأفكار الاسلامية) الى داخل الكنيسة ومعاهدها ، فقد لاحظ جون ديوى ، أن (جامعات) العصور الوسطى ، كانت « هى التى كونت الحركة الفنية والفكرية ، التى نسميها الاصلاح » (٤٨) ، فقد كانت ، « وان تك لم تتحرر تماما

---

(٤٥) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث من المجلد الخامس (٢٠) (النهضة) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٦ ، ص ١٩ .

(٤٦) ارجع الى ص ٦٦ من الكتاب .

(٤٧) ارجع الى ص ٧٥ من الكتاب .

(48) DEWEY, JOHN : Education To-day; G. P. Putman's Sons, New - York, 1940, p. 181.

من وصاية الكنيسة ، كانت مع ذلك ، التفتح الأول للعلم الحر » (٤٩) — على حد تعبير الدكتور عبد الله عبد الدائم .

ومن ثم نجح مارتن لوثر ، فى ثورته الاصلاحية ، فى الوقت الذى فشل فيه قبله على نفس الطريق ، كل من ويكليف Wycliff (١٣٢٤ — ١٣٨٤) ، وهس Huss (١٣٧٣ — ١٤١٥) ، وارازمس Erasmus (١٤٦٧ — ١٥٣٦) ، لأن « الجـــو العقلى والعاطفى ، قد أعـــد تماما للثـــورة » (٥٠) .

« ولمـــا كانت هذه الدعوى الجديدة ، تنقض السلطة البابوية من أمرها ، وانما كانت مجرد (احتجاج) ، « على بيع الصكوك (صكوك الغفران) خاصة ، وعلى مبدأ الغفران عامة » .

« ولمـــا كانت هذه الدعوى الجديدة ، تنقض السلطة البابوية من أساسها ، فقـــد سارع البابا الى انكار عقائد لوثر ، والى دعوته الى الخضوع للسلطة الدينية ، بلا شرط ولا قيد . ولكن هذا المصلح الثائر ، أحرق كتاب البابا ، وقانونه الاكليركى ، على مشهد من الناس ، فأعلن البابا حرمانه من رحمـــة الكنيسة ، بحيث أصـــبح من واجب السلطة الزمنية ، طبقـــا للتقاليد القديمة ، (أن تنقله من نار الدنيا ، الى نار الآخرة) ، حتى لا يتبين ، أن هذا الراهب الوضيع ، أقوى نفوذا ، من البابوية والامبراطورية معـــا » (٥١) .

---

(٤٩) الدكتور عبد الله عبد الدائم : تاريخ التربية — من منشـــورات كليـــة التربيـــة بجامعـــة دمشق — مطبعـــة جامعـــة دمشق — ١٩٦٠ ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

(50) THUT, I.N. : The Story of Education, Philosophical and Historical Foundations; McGraw - Hill Company, Inc., New-York, 1957, p. 92.

(٥١) محمد قاسم ، وحسين حسنى : تاريخ أوربا الحديثة ، من عهد النهضة الأوربيـــة ، الى نهاية عهد الثورة الفرنسية ونابليون — المطبعـــة الأميرية ببولاق — القاهرة — ١٩٣٤ ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

وقــد دفع ذلك مارتن لوثر الى بحث الموضوع برمته ، بدلا من الاكتفاء بجزئية أو اثنتين من جزئياته ؛ فاتجه الى « بحث العقائد على اطلاقهـا ، فوضـع أساس عقيدته الدينية وعقيدته السياسية ، التى تضمنت علاقة الكنيسـة بالحكومة — فى مجلدات ثلاث ، تعرف باسم (رسائل الاصلاح Reformation Tracts) » (٥٢) •

وقد أيد مارتن لوثر ، فى دعوته تلك ، بعض رجال الدين (٥٣) ، كما أيده « العديد من الأمراء الألمـان » ، « كما جاء الفلاحون فى صفه أيضا » • « غير أن لوثر تخلى عن الفلاحين ، حينما اصطدموا بالأمراء ، لحاجته الى الأخيرين ، فى نشر عقيدته الجديدة » (٥٤) •

ويرى كثير من الباحثين ، أن دعوة مارتن لوثر ، « كانت — على علاتها — أبرز مظهر للتأثر بالاسلام ، أو بعض عقائده ، كما اعترف المؤرخون » (٥٥) ، وأنه كان متأثرا بالاسلام بصورة واضحة ، « فى مثل ابطال الكهنوتية ، وتحريم صكوك الغفران » (٥٦) •

ويرى بلاو ، أن الاصلاح الدينى ، كان هو الذى يقف وراء كل ما حـدث فى أوربا من (تغيرات) اجتمـاعية ، فان « حركة الاصلاح الدينى » ، « كان من نتائجها الاجتماعية — بغض النظـر عن مغزاها الروحى — التقشف فى الحياة الدنيا ، أى أن يروض المرء نفسه ، على أن يبذل فى القيام بعمله أو مهنته ، قصارى جهده • والبروتستانتى ليس له

---

(٥٢) المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(53) GUEST, GOERGE : The March of Civilization; G. Bell. and Sons, Ltd., 1951, pp. 115, 116.

(٥٤) الدكتور احمـد سويلم العمـرى : بحوث فى المجتمع العـربى (دراسات سياسية) — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٠ ، ص ١٨٠ .

(٥٥) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العـالم ، بانحطاط المسلمين — الطبعة العاشرة — مطابع على بن على — الدوحة — ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م ، ص ١٣٩ .

(٥٦) الدكتورة عائشـة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) : القـرآن وقضايا الانسـان — الطبعـة الأولى — دار العـلم للملايين — بيروت — ١٩٧٢ ، ص ١٠٥ .

من بابا أو كاهن ، يزوده بالارشادات الروحية ، ويحله من خطاياه ، بل يجب عليه فى النهاية ، أن يعتمد على ضميره وعلى ايمانه ، مما يشجع ظهور نظام خاص ، يفرضه الرجل على نفسه » ، ومما يمهد « الطريق ، للمنهج العقلى » • « فالبرونستانتية اذن ، نقلت الحرص المتقشف على العمل الشاق » ، « من حياة الدير والتنسك » ، « الى شئون الحياة الاقتصادية الدنيوية • ومع أن الغاية الصريحة من حركة الاصلاح الدينى ، كانت تتعلق بالحياة الأخرى ، لا بالحياة الدنيا ، الا أن الاستعداد النفسى الذى خلقته ، كان من نتائجه التى يحسب حسابها ، العمل على قلب أوضاع العمل الدنيوى » • و « لولا هذا الاستعداد ، والاقبال على الجهد غير المنقطع ، والمسلك العقلى ، باعتبارهما قيمتين أخلاقيتين بحد ذاتهما ، لما قامت الرأسمالية ، ولما قامت كذلك البيروقراطية المكتملة النضج ، لأنها هى أيضا تعتمد على المسلك العقلى » (٥٧) •

ونتيجة لذلك ، نجد اجماعا بين الباحثين ، على أن كل ما حدث فى أوربا من تغيرات ، كان نتيجة لهذا الاصلاح الدينى ، فقد صارت الحياة — بفضله — « سعيا وعملا » ، و « العلم والثروة والتكنولوجيا ، فضلاً عن أنها أسباب ، انما هى نتائج لهذه الحقيقة » (٥٨) — حقيقة « التغير الأساسى الذى حدث فى حياة الناس ، نحو أنفسهم ، ونحو عالمهم الذى يعيشون فيه » (٥٩) •

واذا كانت المسيحية الأولى قد قامت على أساس الصراع الذى قام بين بولس وبطرس ، أو بين البساطة والزهد والتقشف ، وبين

(٥٧) بيتر م. بلاو : البيروقراطية فى المجتمع الحديث — ترجمة اسماعيل الناظر ، ومعد كيالى — دار الثقافة — بيروت — ١٩٦١ ، ص ٥٢ ، ٥٣ •

(58) ULICH, ROBERT; Op. Cit., p. 45.

(59) HUDSON, WILLIAM HENRY : The Story of the Renaissance; Goerge G. Harrap & Company Ltd., London, 1928, p. 3.

الفخفخة ، والسعى للسيطرة على الحياة وتوجيهها ، فان ول ديورانت يرى أنه اذا كان بطرس قد انتصر على بولس طوال العصور الوسطى ، فقد « كانت البروتستنتية نصرا لبولس على بطرس ، وكان الاعتقاد بأن النجاة انما تكون بالايمان والعقيدة ، نصرا لبولس على المسيح » (٦٠) .

ونعلنا نكون أوضح ، اذا نحن قلنا ان الصراع منذ بداية المسيحية، صراع بين الفكرتين اليونانية والرومانية ، وقد أتيح للفكرة الرومانية ، التى تلتفت الى الجماعة ، وتوليها قدرا من اهتمامها ، أن تنتصر طوال العصور الوسطى ، ثم أتيح للفكرة الاغريقية ، التى تركز على الفرد ، وتوليه القدر الأكبر ، أن تنتصر فى النهاية .. حيث نجد الانسان الغربى ، « تتغلغل الفردية فى عقيدته الدينية ، كما تتغلغل فى أنظمته السياسية والاقتصادية » (٦١) ، وذلك « على الأقل منذ القرن الثامن عشر » (٦٢) .

وقد عادت هذه (الفردية) الى الغرب المسيحى ، من خلال الاسلام ، ومن ثم يلاحظ أن تأثر الغرب بالاغريق ، كان تأثرا اسلاميا.

ويضرب محمد أسد مثلا على ذلك ، بالديموقراطية الغربية ، حيث يستعمل اللفظ « فى الغرب فى أغلب الأحوال ، بالمعنى الذى أعطته اياه ، الثورة الفرنسية ، ونعنى به الدلالة على مبدأ المساواة فى الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية لجميع المواطنين ، ورقابة الأمة على الحكومة ، عن طريق هيئة نيابية ، يشترك فى انتخاب أعضائها ، كل البالغين من أفراد الشعب » .

---

(٦٠) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث ، من المجلد الثالث (١١) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) (مرجع سابق) ، ص ٢٧٠ .

(٦١) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث (الهند وجيرانها) — ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٠ ، ص ٥٠ .

(62) DUBIN, ROBERT : Human Relations in Administration, with Readings; Third Edition, Prentice Hall of India Private Limited, New - Delhi, 1970, p. 77.

و «من الواضح أن مثل هذا التصور المعاصر للديموقراطية ، يختلف اختلافا بينا ، عن التصور الذى كان سائدا عنها ، فى أذهان واضعى هذا التعبير فى الأصل ، وهم الاغريق القدماء • فبالنسبة الى الاغريق ، كانت عبارة (حكم الشعب للشعب) — وهى جوهر الديمقراطية — يقصد بها على وجه التحديد ، حكومة طبقة خاصة ، لا حكومة الشعب كله » ، « وكانت هذه الطبقة مقصورة على سكان الدولة الأحرار ، الذين كانوا لا يزيدون فى العادة ، على عشر مجموع السكان ، بينما كان الباقون من العبيد والأرقاء » (٦٣) •

ومن ثم يختتم محمد أسد كلامه هذا ، بأن « النظر الى مفهوم الديموقراطية ، من خلال هذه الحقيقة التاريخية ، يجعلنا نرى أن الديموقراطية الغربية السائدة اليوم ، هى فى الواقع ، أكثر قربا ، وأوثق نسبا ، بتصور الاسلام للحرية ، منها بتصور الاغريق القدامى لها » (٦٤) •

نظم الحكم فى الغرب الحديث :

يرى ول ديورانت ، أن « قوة الايمان المسيحى (ترجع) الى أنه يعرض على الناس ، الايمان ، لا المعرفة ، والفن لا العلم ، والجمال لا الحقيقة ، وقد فضله الناس فى صورته هذه ، وكانوا يرون أن ليس فيهم من يستطيع أن يجيب على أسئلتهم ، ولهذا كانوا يشعرون بأن من الحزم أن يؤمنوا بالأجوبة ، التى ينطق بها رجال الدين ، ويؤكدوها توكيدا يزيل مخاوفهم • ولو أن الكنيسة قد اعترفت بأنها تخطىء تارة ، وتصيب تارة أخرى ، لفقدوا ثقتهم فيها » • « وهكذا استسلم العقل فى العصور الوسطى للايمان فى أغلب الأوقات والحالات ، وجعل كل اعتماده على الله وعلى الكنيسة ، كما يثق رجل هذه الأيام بالعلم

---

(٦٣) محمد اسد : منهاج الاسلام فى الحكم (مرجع سابق) ، ص ٤٧ ، ٤٨ •

(٦٤) المرجع السابق ، ص ٤٩ •

وبالدولة » . « لقد كان عصراً ثملا بنشوة الايمان بالله » (٦٥) .

وقد أقام الغرب الحديث حياته ، على أساس مغاير تماما لما أقام عليه غرب العصور الوسطى حياته ، فكفر بما آمن به الغرب القديم ، وآمن بما كفر به .

وصار الجديد فى الغرب دينا ، يؤمن به الغربيون ، مثلما كان القديم فيه دينا يؤمن به الغربيون ، وكلا الدينين — القديم والجديد — بعيد عن المسيحية ، وانما هو تراث الغرب عن الاغريق والرومان ، غير أنه بينما رجحت كفة الرومان فى العصور الوسطى ، رجحت كفة الاغريق فى الغرب الحديث ، وكان الغرب فى الحالين (يتمحور) دينه حول ذاته ، راغبا فى بسط سلطانه على الآخرين ، واذلالهم .

فكما حاول الاغريق أغرقة المصريين سنة ٢٠٠ ق.م ، « وأخفقت عملية الأغرقة فى مصر اخفاقا تاما مع المصريين واليهود على السواء ، وكان سبب هذا الاخفاق ، أن المصريين فى خارج الاسكندرية ، عضوا بالنواجذ على دينهم ، وعلى لباسهم أو عريهم ، وعلى أساليبهم التى ورثوها من أقدم الأزمنة » (٦٦) — فان ورثة الاغريق المحدثين فى الغرب حاولوا بسط نفوذهم على العالم ، خاصة فى عصر التوسع الاستعمارى الكبير ، ولم يعدموا فى الحالين (تطويع) الدين ، لخدمة مصالحهم ، « فبدلا من أن يخضع الغربيون سلوكهم وأفعالهم لمعايير القانون الأخلاقى ، الذى هو — على أية حال — الغاية القصوى لجميع الأديان ، أصبحت (المصلحة) فى اعتبار القوم ، هى القانون الوحيد المهيمن ، الذى يجب أن تعالج على ضوئه ، كافة الشؤون العامة » (٦٧) .

---

(٦٥) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الخامس من المجلد الرابع (١٦) (عصر الايمان) (مرجع سابق) ، ص ١٢ ، ١٣ .

(٦٦) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث من المجلد الثانى (حياة اليونان) (مرجع سابق) ، ص ٧٨ .

(٦٧) محمد أسد : منهاج الاسلام فى الحكم (مرجع سابق) ، ص ٢١ ، ٢٢ .

والمصلحة هنا ، هى مصلحة الدولة القومية ، التى ولدت فى الغرب اثر انهيار النظام الكنسى ، ومن ثم قامت سلسلة مروعة من الحروب ، اثر هذا الانهيار ، بسبب هذه الدولة القومية ، بين دول أوربا ذاتها ، لعل أشهرها تلك الحرب الطويلة بين انجلترا وفرنسا ، بسبب وبغير سبب — أو بين فرنسا وألمانيا ، على سبيل المثال .

وغالبا ما تربط بين أبناء الدولة القومية ، مجموعة من الروابط ، مثل وحدة الأرض ، ووحدة اللغة ، ووحدة التاريخ ، ووحدة المصالح ، ووحدة الدين ، وغيرها — على نحو ما رأينا فى الفصل الأول[٦٨] ، وكلها « تنشىء للأمم المتحدة قوة الاتحاد ، وائتلاف الشمل ، وتفضيل الشرف على لذة الحياة ، وتبعثها على اقتناء الفضائل ، وتوسيع دائرة المعارف ، وتنتهى بها الى أقصى غاية فى المدنية » [٦٩] — على حد تعبير جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده .

وقد لا تكون هذه الروابط واضحة تماما فى أيام السلم ، لأن الحوادث تجرى فيها على مألوف ما اعتادت أن تجرى ، ولكنها تبدو واضحة للعين ، عندما يهدد الأمة أى خطر ، أو عندما يترك الانسان وطنه لأى سبب ، فيكون دائم الحنين اليه ، دواما يحول هذا الحنين الى مرض عضال ، لا يحس به الا من ذاقه ، يسمونه بالانجليزية Home-sickness ، أى مرض الحنين الى الوطن .

وقد صارت هذه (الروابط المشتركة) ، هدفا أساسيا من أهداف الحرب الحديثة ، فاليها تتجه اليوم (الحرب النفسية) التى تعد « أحدث أسلحة الحرب » ، كما تعد « جزءا من الحرب الشاملة ، تشن قبل الحرب ، وفى أثنائها ، وفى أعقابها » [٧٠] . وقد تغنى هذه الحرب النفسية ، عن الحرب التقليدية ، بالأسلحة والجنود ، فتوفر للأمة

---

(٦٨) ارجع الى ص ٢٩ من الكتاب .

(٦٩) جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده : العروة الوثقى (مرجع سابق) ، ص ٦٢ .

(٧٠) صلاح نصر : الحرب النفسية ، معركة الكلمة والمعتقد — الجزء الأول — دار القاهرة ، للطباعة والنشر ، ص ١٠٨ .

المحاربة ، الكثير من المال والرجال ، وتحقق لها كل ما تريد من أهداف ، وهو ما يسمونه (بالغزو الفكرى) ، الذى يعنى (زعزعة) ثقة الأمة التى يراد غزوها ، فى لغتها أو تاريخها أو ثقافتها ، أو « عاداتها وتقاليدها » (٧١) ، أو فى هذه جميعا ، مما يؤدى الى (مسخ) شخصية الأمة ، وبالتالى يسهل ابتلاعها ، والقضاء عليها .

وبرغم وضوح هذه الروابط ، التى تربط بين أبناء الأمة الواحدة ، فهناك شواهد كثيرة على عدم حتميتها ، فهناك بلاد كثيرة ، لها أكثر من لغة مشتركة ، لعل أشهرها الاتحاد السوفيتى وسويسرا وبلجيكا ، وهناك بلاد تضم أكثر من جنسية عرقية ، لعل أشهرها اليوم الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، وهكذا .

بل ان الولايات المتحدة ، تشكلت بلا أصل من هذه الأصول على الاطلاق ، ومع ذلك صارت دولة عظمى ، فى أقل من ثلاثة قرون من الزمان ، من بدء الهجرة اليها — كما شكلت دولة اسرائيل ، دون أصل منها ، سوى .. الدين اليهودى .. المشترك .

ثم جاء القرن العشرون ، وخاصة النصف الثانى منه ، بعد الحرب العالمية الثانية ، وأدى التقدم العلمى والتكنولوجى ، الى ربط العالم ، بريا وبحريا وجويا ، بحيث صار العالم (قطعة واحدة) ، أو (وطنا واحدا) ، وصارت الهجرة من بلد الى بلد ، أمرا بالغ السهولة ، وصار التاريخ المشترك ، واللغة المشتركة ، والتقاليد المشتركة ، وغيرها ، رجعة الى الوراء ، لا يفكر فيها أحد ، و « لم تعد فكرة العالم الواحد ، والأسرة الانسانية الواحدة ، مجرد رؤيا من رؤى الأنبياء ، بل حقيقة كاملة منتهية ، باعتبار من الاعتبارات . الا أنها حقيقة ، فرضها علينا التقدم التكنولوجى ، لا النمو الخلقى ، وذلك لأننا من الناحية الخلقية ،

---

(٧١) الدكتور على عبد الحليم محمود : الغزو الفكرى ، واثره فى المجتمع الاسلامى المعاصر — الطبعة الاولى — دار البحوث العلمية — الكويت — ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م ، ص ١٢ .

ما زلنا نعيش فى عوالم كثيرة ، منفصلة » (٧٢) •

ولكن الاسلام أقر هـذه الحقيقة ، قبل أن تفرضها (متغيرات) العصر ، بأربعة عشر قرنا من الزمان ، حين قال سبحانه :

ــ « يأيها الناس ، انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير »(٧٣) •

والخطاب فى الآية متجه « الى الناس جميعـا ، لا الى المسلمين وحدهم » (٧٤) ، على حـد تعبير عبد الله يوسف على ، « فلا محـل للتفاخر بالأنساب ، وقـد كانوا يتفاخرون بها ، ويزدرون بالضـعفاء والفقراء » (٧٥) ، والغرض من « خلق الناس شعوبا وقبائل » ، ليس « التناحر والخصام ، انما هى التعارف والوئام ، فأما اختلاف الألسنة والألوان ، واختـلاف الطبـائع والأخـلاق ، واختـلاف المواهب والاستعدادات ، فتنوع لا يقتضى النزاع والشقاق ، بل يقتضى التعاون للنهـوض بجميـع التكاليف ، والوفاء بجميع الحاجات ، وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هـذه المعانى ، من حساب ، فى ميزان الله ، وانما هناك ميزان واحد ، تتحدد به القيم ، ويعرف به فضـل الناس (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) » •

وهكذا « حارب الاسلام هذه العصبية الجاهلية ، فى كل صورها وأشكالها ، ليقيم نظامه العـالمى ، فى ظل راية واحدة : راية الله ،

---

(٧٢) فيليب هـ. فينكس : التربيـة والصـالح العـام ــ ترجمـة السيد محمـد العزاوى والدكتور يوسف خليل ــ مراجعة محمـد سليمان شـعلان ــ تقـديم السيد يوسـف ــ الجمهورية العربية المتحدة ــ وزارة التربيـة والتعليم ــ ١٩٦٥ ، ص ٢٨١ •

(٧٣) قرآن كريم : الحجرات ــ ٤٩ : ١٣ •

(74) ALI, ABDULLAH YUSUF : The Qur-an, Text, Translation and Commentary, Volume Two; Hafner Publishing Company, New - York, U.S.A., p. 1407.

(٧٥) الشيخ حسنين محمد مخلوف : القـرآن الكريم ، ومعه صفوة البيـان ، لمعـانى القـرآن ــ الطبعة الأولى ــ مطابع دار الكتاب العربى بمصر ــ ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٦ م ، ص ٣٤٥ •

لا راية الوطن ، ولا راية القومية ، ولا راية البيت ، ولا راية الجنس ، فكلها رايات زائفة لا يعرفها الاسلام » (٧٦) ٠

وكأنما كان القرآن الكريم ، يتحدث للقــرن العشرين ، لا لمطلع القرن السابع الميلادى، يوم تنزلت آياته ٠٠ حيث صارت (القومية) ، التى كانت توجه العالم كله يوما قبله ٠٠ دعوة من دعاوى الجاهلية ، يشجب دعاتها فى المنظمات الدولية ، ويلعنون على كل لسان ، لا خوفا على جرح المشاعر ، ولكن خشية الحرب الشاملة ، التى ستقضى على الجنس البشرى لو تفجرت ٠

ويرى أبو الأعلى المودودى ، أنه « مع أن لفظ (قوم) و (قومية) بمعنــاه الاصــطلاحى المخصــــوص ، يعــد من مخترعات العصر الحديث ، الا أن المعنى الذى يطلق عليه هذا اللفظ ، قديم قدم المجتمــع نفسه ، (تقوم) و (قوميــة) ، هو تلك التركيبة ، التى كانت فى مصر وبابل وبلاد الروم واليونان ، وهى التى فى فرنسا وبريطانيا وألمــانيا وايطاليا اليوم » (٧٧) ٠

و « لقد أطلق القرآن على جمــاعة المسلمين لفظ (حزب) ، لأن (القوم) ينشــأ عن الجنس والنسب ، أما (الحــزب) ، فعلى المبــدأ أو المنهج » (٧٨) ٠

وهكذا ، تكون « فكرة ادماج البشرية فى وطن واحد ، دون الاهتمام بالأجناس والألوان واللغــات ، أو التقيــد بالحدود الجغرافية ، هى الهدية ، التى أهدتها جامعة الاسلام الى المدنية البشرية ، وهى الترياق

---

(٧٦) سيد قطب : فى ظلال القــرآن ـــ المجلد السادس (الأجزاء : ٢٦ ـــ ٣٠) ـــ الطبعة الشرعية الرابعــة ـــ دار الشروق ـــ ١٣٩٧ هـ ـــ ١٩٧٧ م ، ص ٣٣٤٨ ٠

(٧٧) أبو الأعلى المودودى : الحكومة الاســلامية (مرجع سابق) ، ص ١٣٨ ٠

(٧٨) المرجع السابق ، ص ١٦٥ ٠

الوحيد ، لسم الأحقاد الدولية » ، « وان فشــل المسيحية فى هـــذه الناحية ، لذريع ، فالمسيحيون البيض ، ما زالوا حتى اليوم يضمرون العداوة للمسيحيين السود ، مع أنهم قد يعيشون فى قطر واحد»(٧٩) •

ويتولى شئون الدولة فى العــالم الغربى الرأسمالى (حكومة) ، مفوضة عن شعبها ، فى ادارة شئون البلاد ، وهى مختارة بحرية تامة من شعبها ، كما أنها عرضة لمساءلته ، وطرح الثقة به • • وكم طرحت الثقة بالحكومات ، فى العالم الغربى الرأسمالى الحديث •

وقد تكون هذه الحكومات ، ملكيات وراثية ، كما نرى فى انجلترا ، ولكنها ملكيات تملك ولا تحكم ، اذ يتولى شئون الحكم بالفعل ، حكومة منتخبة انتخابا شعبيا حــرا نزيهــا ، على نقيض ما ألفنــاه نحن من انتخابات ، فى عالمنــا العربى والاسلامى •

كما قد تكون هــذه الحكومات ، جمهورية ، رئاسية ، أو نيابية • ولكن رئيس الجمهورية فيها عرضــة للمساءلة ، شأنه فى ذلك شــأن وزرائه الذين يختارهم لمعاونته ، أو شأن رئيس الوزراء ، الذى يكلفــه باختيار الوزارة •• وهو عرضة ــ كذلك ــ لطرح الثقة به ، وابعاده عن السلطــة •

وليس سقوط ونستون تشرشل فى انجلترا ، فى انتخابات ما بعــد الحرب العالمية الثانية ، بخافية ، عنا هنا ، برغم ما لعبــه من دور ، فى قيــادة انجلترا المــاهرة ، فى فترة الحرب • • وليس خذلان ديجول فى استفتائه المشــهور ، برغم فضــله على فرنسا فى انقاذها من كارثة الجزائر وما صاحبها من خراب اقتصادى •• وليست فضيحة ووترجيت ، التى أبعدت نيكسون عن رئاســة الولايات المتحــدة •• ليست هــذه كلهــا ببعيدة عنا •• اليــوم •

---

(٧٩) مولاى محمــد على : الاسلام ، والنظام العالمي الجديد (مرجــع سابق) ، ص ١٦ ، ١٧ •

واذا كانت « الديمقراطية ، التى طبقتها أثينا » ، « تعد تعبيرا الى حد كبير ، عن مصالح التجارة ، واستبعد من نطاق التمتع بها بطبيعة الحال ، العبيد ، وغيرهم ممن يزاولون الحرف اليدوية » (٨٠) ، فان الديموقراطية الغربية المعاصرة ، تعد تعبيرا عن جماهير الشعب العريضة، الا ان الممارسة العملية لها ، تدل على أنها تعبير عن مصالح الرأسماليين ، الذين يملكون الأموال الضخمة ، فيكون بيدهم — وجدهم — تمويل الحملات الانتخابية الباهظة التكاليف ، للمرشحين المختلفين ، ليرد لهم هؤلاء المرشحون الجميل ، ويقدموا لهم الخدمات ، بعد توليهم السلطة ، « ومن ثم صارت الحرية فى هذه المجتمعات الغربية .. الرأسمالية . حرية القلة ، على حساب شقاء الكثرة — حرية القلة القوية ، على حساب الكثرة المنهكة .

ولم يكن غريبا أن تنتشر الجريمة بشكل لافت للنظر ، فى هذا الغرب الرأسمالى ، بحثا عن وسائل القوة تلك .. سواء فى ذلك المال ، والصحف ، والمراكز ، والوظائف .. والعصابات أيضا » (٨١) .

وكان هذا هو منشأ الأفكار الاشتراكية ، أو الشيوعية ، فى الغرب أيضا ، وما أوجدها هناك ، « الا حاسة (الانتقام) ، من جور الحكام والأحكام ، وعوامل الحسد فى العمال ، من أرباب الثراء ، الذين انما أثروا من وراء كدهم وعملهم » .

« فكل عمل يكون مرتكزا على الافراط ، لابد أن تكون نتيجته التفريط » (٨٢) .

---

(٨٠) جورج سول : المذاهب الاقتصادية الكبرى — ترجمة وتقديم راشد البراوى — الطبعة الثالثة — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٦٢ ، ص ١٨ .

(٨١) دكتور عبد الغنى عبود : قضية الحرية ، وقضايا أخرى — الكتاب السابع من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — يناير ١٩٧٩ ، ص ٥٣ .

(٨٢) الأعمال الكاملة ، لجمال الدين الأفغانى ، مع دراسة عن حياته وآثاره (مرجع سابق) ، ص ٤١٤ .

الفصل الرابع

الدولة فى الشرق الشيوعى

تقديم :

لم يكتب كارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣) نظريته الاشتراكية الحديثة ، لروسيا ، أو لبلد من البلاد المتخلفة غيرها ، وانما كتبها للبلاد المتقدمة ، وعلى وجه التحديد ، لانجلترا أو ألمانيا أو فرنسا ، حيث وصل التطور الرأسمالى درجة ، كان منطقيا — فى نظره — أن تتطور هذه المجتمعات بعدها •• الى الشيوعية ، حسب التطور المادى الحتمى للمجتمعات فى تصوره •

ففى البيان الشيوعى Communist Manifesto الذى أصدره سنة ١٨٤٨ ، والذى سنعرض له بعد قليل ، تنبأ كارل ماركس ، « بأن أول البلاد التى ستقود الثورة الشيوعية ، هى (ألمانيا) » ، ثم كتب « فى مايو سنة ١٨٤٩ قائلا : (ن الجمهورية الحمراء) تبزغ فى سماء باريس » (١) •

وكان منطقه فى هذا التحديد ، هو ما حققته هذه البلاد من نهضة صناعية ، « وبفضل النهضة التى عرفتها الصناعة الكبيرة فى جميع البلدان ، أوجد النظام البرجوازى فى كل مكان ، خلال السنوات الخمس والأربعين الأخيرة ، بروليتاريا كثيرة العدد ، متمركزة وقوية • وهكذا أوجد ، كما يقول (البيان) ، حفارى قبره » (٢) •

---

(١) وحيد الدين خان : الاسلام يتحدى ، مدخل علمى الى الايمان — ترجمة ظفر الاسلام خان — مراجعة وتقديم دكتور عبد الصبور شاهين — الطبعة الخامسة — المختار الاسلامى — ١٩٧٤ ، ص ١١٢ •

(٢) ماركس وانجلس : بيان الحزب الشيوعى — دار التقدم موسكو — ١٩٦٨ ، ص ٣٤ (من مقدمة الطبعة الايطالية عام ١٨٩٣ — بقلم فردريك انجلس) •

ولم تبزغ (الجمهورية الجمراء) ، لا فى ألمـانيا ، ولا فى سـماء باريس ، وانما طوردت هناك ، « فحيثما ظلت الحركات البروليتارية المستقلة تظهر عليهـا دلائل الحياة ، فقـد كان يقضى عليهـا بعنف وقسوة » (٣) ، على حـد تعبير فردريك انجلز (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥) ، شريك كفاح ماركس ، وشريكه فى كتابة البيان الشيوعى ، وكان فى تفجر الثورة فى روسيا المتخلفة ، سنة ١٩١٧ « أكبر معول هـدم ولا ريب ، فى أساس الاشتراكية العلمية ، كما شرحها صاحبها ومريدوه .

كانت نبوءات (كارل ماركس) تقضى بقيام الشيوعية ، فى البلاد التى بلغت بالصناعة الكبرى غاية أشواطها ، فاذا بالشيوعية تقوم فى البلاد التى لم تعرف من الصناعة الكبرى ، غير خطواتها الأولى ، واذا بهـذه القاعدة تسرى فى البلاد المتأخرة ، فلا تقوم للشيوعية قائمة فى غيرها ، ولو الى حين .

وكان من لوازم الاشتراكية المـادية ، أو الاشتراكية العلمية ، أن تكون الصناعة الكبرى هى التى تخلق النظـام السياسى ، وتمهد له ، بانتهاء الصناعة الكبرى الى نهايتها ، فاذا بالنظام السياسى هو الذى يخلق الصناعة الكبرى ، فى البلاد الروسية ، وغيرها من البـلاد التى تقتدى بثورتها » (٤) .

يضاف الى ذلك ، أن التجربة الشيوعية فى روسيا ، لم يتح لهـا أن تطبق سلميا ، كما ادعى (البيان الشيوعى) ، بل استخدمت فى سبيلها أشد أدوات القمع والارهاب ، « ولم يحصر التاريخ من ضحايا الأديان، منذ أيام الجهالة ، الى العصر الحاضر ، عشر معشار الضحايا ، الذين ضاعوا بالملايين ، قتلا ونفيا وتعذيبا ، فى سبيل النبوءات المـاركسية ، ولم تثبت بعد ذلك كله ، نبوءة من تلك النبوءات ، بل ثبت بما لا يقبل

(٣) المرجـع السابق ، ص ١٤ (من مقـدمة الطبعة الانكليزية عام ١٨٨٨ ـ بقلم فردريك انجلس) .

(٤) عباس محمود العقاد : الشيوعية والانسانية ـ الطبعة الثانية ـ دار الاعتصام ـ ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م ، ص ١٧ .

الشك ، انها مستحيلة على التطبيق » (٥) .

ولا يمكن فهم الشيوعية المعاصرة مع ذلك ، دون فهم جذورها التاريخية ، والجو العام الذى نشأت فيه كفكرة ، والجو العام ، الذى طبقت فيه .

الجــذور التاريخية للشيوعية :

يرى الدكتور عماد الدين خليل ، فى تفسيره الاسلامى للتاريخ ، أن كارل ماركس ، لم يكن هو « منشىء التفسير الديالكتيكى للتاريخ ، وانما أخــذ مادبته من آخرين كثيرين ، سلكوا السبيل نفسه ، وصب فلسفته ، فى القالب الذى اقترحه ديالتيك هيغل » (٦) .

ويستعرض الدكتور عماد أسماء كثير ممن أرسوا دعائم هــذا التفسير الديالكتيكى المــادى للتاريخ قبل ماركس ، فى الغــرب ، ثم ينتقل من الغرب الى الشرق ، فيرى امكانية اضافة « محاولات عديدة أخرى ، قد نسقت فى اطار فكرى ، أو نفذت عبر تجربة عملية ، شهدها تاريخ الشرق ، قبل قرون عديدة ، لمعطيات هؤلاء ، نكتفى منها بالاشارة الى حركات : مزدك ، وبابك الخرمى ، والقرامطة » (٧) .

والحق أن الجــذور التاريخية للشيوعية كفكرة ، ترتد الى أعمق أعماق الزمن ، حينما (اضطر) الانسان الى (الجماعة) ، (لتحمى) وجوده الفردى ، على نحو ما رأينا عند حديثنا عن (الجذور التاريخية للدولة) ، فى الفصل الأول (٨) ، حيث بدأت ملحمة الصراع الانسانى ، بين الحرية الفردية ، ومصلحة الجماعة .

---

(٥) المرجع السابق ، ص ١٥ .
(٦) الدكتور عماد الدين خليــل : التفسير الاســلامى للتــاريخ — الطبعــة الأولى — دار العلم للملايين — بيروت — كانون الثــانى (يناير) ١٩٧٥ ، ص ٤٠ .
(٧) المرجع السابق ، ص ٤٢ .
(٨) ارجع الى ص ٢٦ من الكتاب .

ولذلك يلاحظ أن مثل هذه الأفكار ، التى نادت (بوجود أكبر) للدولة ، يقابله تضحية بحريات الأفراد ، وذوبان لفرديتهم فى اطار الجماعة .. ظهرت حيث وجد خطر يتهدد الجماعة .. وبالتالى يتهدد هؤلاء الأفراد أنفسهم .

بل اننا رأينا فى الفصل الثانى ، عن (الدولة عبر التاريخ) ، أن الملكيات القوية ، وجدت فى القديم ، حيث تحققت نهضة ، أغرت الآخرين بالعدوان على الجماعة .. فى الوقت الذى كان النظام القبلى .. هو السائد فى الصحارى ، حيث لا استقرار ، ولا تقدم حضارى .

بل ان هذه الملكيات المهددة ، وصل الأمر بشعوبها ، الى حد تأليه ملوكها ، بوصفهم محققى (الأمن) المنشود ، لشعوبهم .

فلم يكن تأليه الملوك فيها امتهانا للشعوب ، بقدر ما كان عرفانا من هذه الشعوب لحكامها بالفضل ، وعرفانا منها لهم بالجميل (٩) .

على أن الدارسين يجمعون ، على أن الجذور التاريخية المكتوبة ، ترتد الى أفلاطون Plato (٤٢٧ — ٣٤٨ ق ٠ م) ، الذى بلورها فى أثينا ، فى ظروف صراعها مع اسبرطة ، حيث سادتها القلاقل والاضطرابات ، تماما كتلك الظروف التى كانت تعيشها أوربا القرن التاسع عشر ، بعد الثورة الصناعية بها ، وبسببها ، وكان هدف أفلاطون مما كتبه ، هو « تحقيق الاتحاد التام ، بين سكان المدينة الواحدة » ، حتى « تصبح مصلحة المجموع ، ومصلحة الفرد ، شيئا واحدا » (١٠) .

وبين أفلاطون الحالم الأول بمجتمع طوباوى Utopian ، لا يمكن أن يتحقق على الأرض ، وكارل ماركس ، حالم المجتمع الشيوعى المعاصر ، الذى حول أتباعه حلم نبيهم بالقوة ، الى واقع حى .. وقعت

---

(٩) ارجع الى الفصل الثانى كله ، ص ٣٩ وما بعدها ، خاصة الجزء الخاص منه بالحديث عن (الدولة فى حضارات الشرق القديمة) ، ص ٤٣ وما بعدها .

(١٠) الدكتور أحمد محمد ابراهيم : الاقتصاد السياسى — الجزء الأول — الطبعة الثالثة — المطبعة الأميرية ببولاق — ١٩٣٥ ، ص ٧٦ .

سلسلة من (الأحلام) ، فى ظروف شبيهة بظروف أثينا القلقة ، وبظروف القرن التاسع عشر القلقة ، حيث كان الرجلان يعيشان — لعل أشهرها سنوات الاصلاح الدينى فى الغرب ، وما سبقهـا ، وما عاصرها من أحداث قلق واضطراب ، دفعت بالسير توماس مور Sir Thomas More الذى كان مستشارا لملك انجلترا ، على سبيل المثال ، الى أن ينشر « سنة ١٥١٦ مؤلفا باللغة اللاتينية ، عن جزيرة أيتوبيا الجديدة (أو جزيرة الخيـال) » . « وفى هـذا الكتاب ، يصف المؤلف ، هيئة اجتمـاعية شيوعية » (١١) .

وقد كان سير توماس مور ، « مؤسس علم الاجتماع الحديث » ، « متأثرا بطريقة مباشرة ، بأفلاطون ، وقـد اعترف بمصـدر أفكاره بصراحة » (١٢) ، وكان — بعـد ذلك — ذا تأثـير كبير ، فى الكتـاب الاجتماعيين ، الذين ظهروا فى فجر القرن التاسع عشر ، والذين « عرفوا (بالمثاليين) ، أو (الطوباويين) Utopians ، حيث كان اتصالهم بمور ، معروفا الجميع » (١٣) .

ويختلف كارل ماركس فى نظريتـه ، عن كـل من سـبقوه ، فى (شمولية) نظرة من سبقوه ، وضيق منظور ماركس ، فقد كان (الوضع الاقتصادى) ، هو (مدخل) ماركس الى نظريته الطوباوية ، ومحور حديثه فيها ، كما يتبين لنا من عنوان (كتابه المقدس) ، الذى وضعه للشيوعية المعـاصرة ، والشيوعيين المعـاصرين ، وهو كتاب (رأس المـال) ، بأجزائه الثلاثة ، الذى نشر الجـزء الأول منه ، « فى عام ١٨٦٧ » ، « ثم قام انجلز باصـدار الجـزءين الثانى والثالث ، فى عامى ١٨٨٠ و ١٨٩٥ ، على التوالى ، بعـد موت المؤلف ، ويتضمن المجـلد الأول جوهر تعاليم ماركس » (١٤) .

---

(١١) الدكتور عبد الحليم الرفاعى : الاقتصاد السياسى — الجـزء الأول — الطبعة الأولى — ١٩٣٦ ، ص ٥٤ .

(12) HANS, NICHOLAS; Op Cit., p. 195.

(13) Ibid., p. 195.

(١٤) جورج سـول (مرجع سابق) ، ص ٩٥ .

وهكذا ، نجد قضية « العيش والاقتصاد ، حقيقة بسيطة غير معقدة ، الا أنها تتحول فى هيكل الفكر الماركسى الى فلسفة متكاملة ، فيصبح الاقتصاد تلقائيا ، القضية الأساسية للحياة ، بدلا من أن يبقى فى مكانته الأصلية ، كقضية عادية ، من قضايا كثيرة تتعلق بالحياة ، وتؤثر فيها » (١٥) .

ونتيجة لهذا المنظور الماركسى الى الاقتصاد ، صار كل شئ فى المجتمع ، خاضعا للاقتصاد ، وصار الانسان ذاته « لا شخصية له ، فهو يصاغ فى مجتمعه ، كما يصاغ الصابون فى المصنع » (١٦) .

وواضح أن ماركس كان فى كلامه هذا ، وفى تفكيره كله ، أسيرا لظروف الحياة فى القرن التاسع عشر ، « حيث العامل هو عامل يدوى ، كادح مطحون ، مسحوق ، لا يكاد يجد لقمته .. ولم يتصور ما ستحدثه ثورة العلم والتكنولوجيا ، فى القرن العشرين ، حيث العامل رجل مرفه » ، « وحيث لا يوجد جيش من العمال المرهقين ، وانما جيش آخر ، من الموظفين المرفهين ، ومن ورائهم نقابات عمالية ، وقوانين للتأمين ضد العجز والشيخوخة والمرض » (١٧) .

أوربا القرن التاسع عشر والشيوعية :

فى الغرب كتبت آخر فكرة شيوعية ، ولهذا الغرب دون غيره ، نظمت وبوبت ، وعلى ساحة الغرب كان مصرعها ، لولا ذلك الخلل الادارى ، الذى وجد فى دولة القياصرة ، منذ نهايات القرن الثامن عشر ،

---

(١٥) وحيد الدين خان : حكمة الدين ، تفسير عناصر الاسلام ومقتضياته — ترجمة ظفر الاسلام خان — الطبعة الأولى — المختار الاسلامى ، للطباعة والنشر والتوزيع — ١٩٧٣ ، ص ٨ .

(١٦) وحيد الدين خان : الاسلام يتحدى ، مدخل علمى الى الايمان (مرجع سابق) ، ص ٣٦ .

(١٧) مصطفى محمود : الماركسية والاسلام — دار المعارف بمصر — ١٩٧٥ ، ص ١١ ، ١٢ .

وتذكر هنا — مجرد تذكير — بما فعله اتحاد نقابات العمال فى بولاندا ، فى مطلع عام ١٩٨١ ، من أحداث ، هزت الحكم ، وهزت المعسكر الشيوعى كله ، وعلى رأسه الاتحاد السوفيتى ذاته .

مما مكن الشيوعيين ، من الاجهاز على السلطة فى روسيا القيصرية ، وبعث الحياة من جديد ، فى جسم الماركسية ، قبل أن يصيبها التعفن .

والمتتبع للغرب منذ تشكلت ملامح الحياة فيه ، على عهد الاغريق ، لا يسعه الا أن يرى بوضوح ، أن الصراع كان قائما دوما ، ولو فى الخفاء ، بين حرية الفرد ، كما عبر عنها الاغريق ، وبين مصلحة الجماعة ، كما عبر عنها الرومان ، متأثرين فيه — أيضا — بأفكار واحد من هؤلاء الاغريق ، وهو أفلاطون .

وجاءت المسيحية فى العصور الوسطى ، فرجحت كفة الرومان على كفة الاغريق ، فى ذلك الصراع الخفى بين الجانبين ، ثم جاء مارتن لوثر ، فرجحت — على يديه — كفة الاغريق من جديد .

وتفتتت أوربا وقد كانت مجمعة ، حيث « حافظت الكنيسة الى حد ما ، على وحدة أوربا الغربية ، التى حققتها الدولة الرومانية ، وحافظت كذلك شعائرها وعظاتها ومدارسها ، على تراث رومانى ، لم يبق له وجود فى هذه الأيام » (١٨) .

وكانت نتيجة ذلك ، أن حل « التعصب الوطنى ، محل التعصب الدينى ، الذى كان سائدا فى القرن السابع عشر » . « وكان من أثر هذا ، أن أسست الأخلاق على نفس الأساس السياسى » ، فقد أصبحت الأخلاق «أخلاقا قومية ، دعا اليها ميكيافيللى وهوبز ، وأتباعهما»(١٩) .

ومن أجل ذلك ، قامت سلسلة من الصراع الطويل بين دول أوربا ، كحرب المائة عام بين فرنسا وانجلترا (٢٠) ، التى دفعت برئيس وزراء

---

(١٨) ول ديورانت : **قصة الحضارة** — الجزء السادس ، من المجلد الرابع (١٧) (عصر الايمان) (مرجع سابق) ، ص ١ .

(١٩) أحمد أمين : « الانسانية ، والقومية » — **فيض الخاطر** — الجزء الثالث — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٤٢ ، ص ١٣١ .

(20) LLOYD, CHRISTOPHER : Democracy and Its Rivals, An Introduction to Modern Political Theories; Longmans, Green and Co., London, 1940, p. 5.

بريطانيا ، الى أن يرى ، أن « مملكة بريطانيا العظمى ، والجمهورية الفرنسية ، لا يمكن أن تعيشا معا » (٢١) .

وكان منطقيا ، فى ظل هـذا الجو ، أن تبرز الفكرة الرومانية الى السطح من جديد ، اتجمع ما تفرق ، وتؤلف ما تنافر .

ولكن مثل هـذا العمل ، لم تكن تقدر عليه الا دولة قوية ، حتى ولو اضطرت فى فرض نفوذها ، وبسط سيطرتهـا ، الى أن تدوس بأقدامها كل من يعترض سبيلها .

ولتكون هذه الدولة قوية ، فانها لابد أن تكون كنيسة أيضا ، على ألا تضيع وقتها فى الاهتمام بيوم آخر ، قد لا يأتى ، بل تضيع هـذا الوقت ، فى اصلاح حال الدنيا ، التى يعيش فيها الناس بالتأكيد .

وحـول هـذه الأفكار ، النابعـة من واقع أوربا ما بعد الثورة الصناعية ، دارت أفكار الحالمين من الكتاب والفلاسفة من أمثال كانت وفيخت وشيلنج وهيجل ، فى ألمـانيا ، ودارت ــ قبلهم ــ أفـكار هوبز وهارنجتن فى انجلترا .

ومن أجل هذا ، رحب جميع المفكرين «بالثورة الفرنسية» ، « رغم اشفاقهم من الارهاب » ، « ودعوا الى عهد جديد ، وتحمسوا لتنظيم الدولة والمجتمع ، على أسـاس عقلى ، من أجـل حمـاية الفـرد ومصالحه » (٢٢) .

أى أن الوجود الفردى المهدد منذ منتصف القرن الثامن عشر ، حيث الثورة الصناعية ، هو الذى ألجأ النـاس الى البحث عن الدولة القوية ، التى تحمى هذا الوجود الفردى .

---

(21) COUPLAND, R. (Selected by); The War Speeches of William Pitt, the Younger: Third Edition, Oxford, at the Clarendon Press, 1940, p. 265.

(٢٢) عبد الفتاح الديدى : فلسفة هيجل ــ مكتبـة الانجلو المصرية ــ ١٩٧٠ ، ص ٣١ .

وهى قصة يقربنا من فهمها ، وضع لبنان المعاصر ، وما أدت اليه الحرية الفردية فيه ، من تضييع ، شمل لبنان ، أفرادا وجماعات ، وصارت ضالة الجميع فيه ، هى : هذه (الدولة القوية) .

وقد كان هؤلاء الذين هتفوا للثورة الفرنسية مرحبين ، هم هم الذين بلوروا الأفكار الاشتراكية ، وعنهم أخذ كارل ماركس ، وفردريك انجلز ، فقد « كانت السمة الغالبة على ذلك المجتمع ، وجود طبقتين اجتماعيتين متعاديتين ، طبقة بورجوازية رأسمالية ، مستحوزة على ركائز الانتاج والاقتصاد والمال والسياسة ، وطبقة كادحة ، صناعية أو زراعية أو حرفية ، خاضعة لسيطرة الطبقة الأولى » ، « وكان الدين الذى تمثله الكنيسة ، على حظ كبير من القوة والتأثير ، بل بدأ وكأنه حليف الرجعية والسلطة » (٢٣) .

ويرى ميرزا محمد حسين ، أن مثل هذه الثورات ، الفكرية والمسلحة ، على السواء ، كانت انذارا «بخطر (رجل الطبقة الدنيا) !! ولم يتح للمسيحية ، تطويق هذا الخطر ، لأن المسيحية نفسها ، قد وقعت فى الشرك . فالانجيليون المسيحيون ، قد حسبوا أنهم قد استأصلوا كل نزعات القتال ، من رجل (الطبقة الدنيا) ، حين مسحوا ببلسمهم المسكن ، على روحه وفكره ، اذ مجدوا الفقر والحاجة — الى حد يدعو الى الدهشة — باعتبارهما يهديان الى الجنة » (٢٤) — فاذا بهذا البلسم ، يضيع مفعوله ، تحت وطأة الفقر والحاجة ، والاحساس الشديد بالظلم .

ولا شك أن كارل ماركس ، كان مفتونا بصفة خاصة ، بالتقدم العلمى الذى تحقق فى عصره ، و « ما كان للعلوم الطبيعية من بريق

---

(٢٣) الدكتور أحمد عروة : الاسلام فى مفترق الطرق — نقله عن الفرنسية : الدكتور عثمان آمين — دار الشروق — ١٩٧٥ ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٢٤) ميرزا محمد حسين : الاسلام وتوازن المجتمع — ترجمة فتحى عثمان — رقم (٣٥) من (سلسلة الثقافة الاسلامية) — دار الثقافة العربية ، للطباعة — ذو القعدة ١٣٨١ هـ — مايو ١٩٦٢ م ، ص ٤٦ .

خارجى » (٢٥) ، ومن ثم كانت ماديته « مناقضـــة للدين ، ففى عالم لا مكان غيبـه لغير المـادة ، لا يكون هناك مكان لاله • ولذلك لم يكن صـدفة ، أن الكنيسة دائمـا اضطهدت المـادة ، والباحثين فيهـا ، ومؤيديهم » (٢٦) ، وذلك لأن الدين يزدهر ، حيث يكون هناك « جهـل بالأسباب الحقيقية ، الكامنة وراء الظواهر الطبيعية والاجتماعية »(٢٧) ، ولم يعد لهذا الجهـل بالأسباب مكان ، فى أوربا القرن التاسع عشر — قرن العلوم والمخترعات •

وهكذا تمكنت الشيوعية ، من أن « تصل الى مكانتها كفلسفة ، لأن الدين فى معناه الحقيقى ، قد انحسر وتراجع »(٢٨) •

ومع ضعف سلطان الدين المسيحى على النفوس — أى مع وجود (فراغ) دينى ، كان لابد من سـده ، مضافا الى ذلك ما زرعه نجاح الرأسماليين فى تحقيق أرباح طائلة ، أطمعتهم فى زيادة قبضـتهم على مقـدرات الأوربيين ، خاصة الطبقات العاملة ، المحرومة والفقيرة •• زرع فى النفوس يأس ، كان يدفعها الى السير وراء من (يمنونهم) ، ولو بمعسول الكلام ، فى مستقبل أفضل ، أو على حـد تعبير (البيـان الشيوعى) ، الذى هيج كل عمال أوربا ، مصـدرا بعبارة (يا عمال العالم اتحدوا) : « ان كل الطبقات ، التى كانت تستولى على السلطة فيما مضى ، كانت تحاول تثبيت أوضاعها المكتسبة ، باخضاع المجتمع بأسره ، لأسـلوب التملك الخـاص بهـا • ولا تستطيع البروليتاريا الاستيلاء على القوى المنتجة الاجتماعية ، الا بهـدم أسلوب التملك الخاص بها حاليا ، وبالتالى بهدم كل أسلوب للتملك ، مرعى الاجراء الى يومنا هذا • ولا تملك البروليتاريا شيئا خاصا بها ، حتى تصونه وتحميه ،

---

(٢٥) الدكتور عماد الدين خليـل (مرجع سابق) ، ص ٥٠ •

(26) AFANASYEV, A. : Marxist Philosophy, **A Popular Outline; Third Edition, Progress Publishers, Moscow, 1968, p.11.**

(27) **Ibid., p. 340.**

(٢٨) ميرزا محمـد حسين (مرجع سابق) ، ص ٤٥ •

فعلينا اذن أن نهدم كل ما كان يحمى ويضمن الملكية الخاصة » (٢٩) •

واذا كان « كارل ماركس ، امام الشيوعية » ، لم يرث عن أبيه ، الكاهن اليهودى ، الذى ترك اليهودية فى الظاهر ، وتنصر ، لا حبا فى المسيحية ، ولكن ليحظى بامتيازات حيـاة المسيحيين فى مجتمعهم — لم يرث عنه « غير الانتهاز ، والاتجار بالضمير » (٣٠) ، فقد كان هـذا هو ميراثه من بعده لورثتـه ، الذين تراهم فى كل مكان يحـركون « كتل الغوغاء ، ويتملقون كثرة العمال والفلاحين ، وينادونهم بالطليعة وصناع التاريخ وبناة المستقبل ، لا عن صـدق واقتناع ، ولكن عن انتهازية ، ليستعملوهم فى عمليات التهييج والتحريض »(٣١) — اذا كان كارل ماركس هكذا ، واذا كان هذا هو تراثه ، فقد كان القرن التاسع عشر فى أوربا ، هو القرن المناسب لهم ، لأنه القرن الذى تشوهت فيه ملامح المسيحية فى الغرب كدين ، وضاقتفيه الحياة بالأحياء ، ومعظمهم كانوا من العمال ، الذين اتجه اليهم (البيان الشيوعى) ، يطلب اتحادهم• يضـاف الى ذلك ، أن الجو الأوربى العـام ، كان ممهـدا لأفكاره ، فلم يكن كارل ماركس ، أول من هاجم الظلم الاجتماعى ، وخطط لمجتمع جديد ، يقوم على العدل ، وتكافؤ الفرص ، وان كان أكثر هؤلاء على الاطلاق حقدا وشرا وتدميرا ، ربما بتأثير الدم اليهودى الذى يجرى فى عروقه ، على حد تعبير هتلر (٣٢) ، والنفسية اليهودية « لا تعرف الوجود الا عدوانا وتدميرا وقتلا » (٣٣) ، على حد تعبير التحليل النفسى للنفسية اليهودية • وقد تمثل هذا الجو العـام ، فى تلك الأفكار التى

---

(٢٩) ماركس وانجلس : بيـان الحزب الشيوعى (مرجع سابق) ، ص ٥٢ •

(٣٠) عباس محمود العقاد : افيـون الشعوب ، المذاهب الهـدامة — الطبعة الخامسة — دار الاعتصام بالقـاهرة — ١٩٧٥ ، ص ٨٠ •

(٣١) مصـطفى محمـود : لمـاذا رفضت المـاركسية ، حوار مع خالد محيى الدين — المكتب المصرى الحـديث — ١٩٧٦ ، ص ٣٥ ، ٣٦ •

(32) HITLER, ADOLF : My Struggle, Number II; The Paternester Library, 1937, p. 149.

(٣٣) دكتور صبرى جرجس : التراث اليهودى الصـهيونى ، والفكر الفرويدى ، اضواء على الأصول الصهيونية لفكر سجمند فرويد — الطبعة الأولى — عالم الكتب — ١٩٧٠ ، ص ٢٥٤ •

نهضت تطالب بقوة للدولة ، تزرع هيبتها فى النفوس ، حتى يحس كل انسان بالأمن والأمان ، على نحو ما رأينا منذ قليل (٣٤) .

وهكذا نجد أن الشيوعية — باعتراف كارل ماركس ذاته — ان هى هو الفيلسوف الألمانى هيجل Hegel (١٧٧٠ — ١٨٣١) ، « فمن غير هيجل ، يستحيل تصور ماركس » (٣٥) ، بالرغم من أن ماركس كثيرا ما رد على أستاذه هيجل ، تماما كما رد أرسطو ، على أستاذه أفلاطون (٣٦) ، وبالرغم من أنه يدعى أن كل النظريات الاشتراكية التى سبقته ، انما هى نظريات طوباوية حالمة ، أما نظريته هو ، فهى « وليدة النظام الرأسمالى الحاضر » (٣٧) .

وهكذا نجد أن الشيوعية — باعتراف كارل ماركس ذاته — ان هى الا « أثر مباشر ، للنظام (الرأسمالى) الحديث » (٣٨) — وأنها « مدينة للغرب فى فكرها .. فان ماركس لم يأت بجديد ، وانما من التلفيق بين ما قاله هيجل ، وما قاله فيورباخ ، أقام فلسفته ، على أساس « مادية (فيورباخ) ، وجدلية (هيجل) » (٣٩) .

ورغم ذلك ، فقد (استفاد) ماركس من آراء من سبقوه ، فكانت نظريته أكثر تكاملا ، وتعبيرا عن متطلبات الزمان والمكان ، فكان — على حد تعبير جالبريت — « الرجل الوحيد ، الذى قدم تفسيرا كاملا ،

---

(٣٤) ارجع الى ص ١٠٠ من الكتاب .

(٣٥) عصر الأيدولوجية — مجموعة من المقالات الفلسفية ، قدم لها : هنرى د. أيكن — ترجمة الدكتور فؤاد زكريا — مراجعة الدكتور عبد الرحمن بدوى — رقم (٤٨٩) من (الألف كتاب) — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٣ ، ص ٨٩ .

(36) LLOYD, CHRISTOPHER; Op. Cit., pp. 145 — 148.

(٣٧) الدكتور عبد الحليم الرفاعى (مرجع سابق) ، ص ٥٨ .

(٣٨) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة — الطبعة الأولى — مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر — ١٩٦٥ هـ — ١٩٤٦ م ، ص ١٢٥ .

(٣٩) د. على محمد جريشة ، ومحمد شريف الزيبق : أساليب الغزو الفكرى ، للعالم الاسلامى — الطبعة الأولى — دار الاعتصام بالقاهرة — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ١١٣ .

متكاملا لدرجة كبيرة ، مع التجربة الانسانية (٤٠) ، و « كانت أهدافه هى أهـداف رجـل ثورى ، ولكن أدواته ووسـائله ، كانت أدوات العالم » (٤١) ، ولذلك تضمن عمله ، « قوة اقناع ، كانت أعظم بكثير ، من أى من الاشتراكيين الذين سبقوه » (٤٢) .

وكانت هذه (المميزات) ، برغم كل عيوبه ، هى التى جعلته يفشل فى ثورات ١٨٤٨ ،ولكن اليأس لم يتطرق الى قلبه .. حتى تم تحقيق مجتمعه المنشود ، فى روسيا القيصرية سنة ١٩١٧ ، بعد موته بسنوات .

وكان رأى أستاذه هيجل فى الدولة ــ موضوع كتابنا ــ رغم أنه كان على النقيض من ماركس ــ متدينا ، هو أنها « هى الله . وباسـم هـذا الشىء ، المبهم ، غير المحسوس ، يجب على ملايين البشر ، أن يعدوا أنفسهم للعمل ، وتحمل الآلام ، وتجرع غصص الموت » (٤٣) .

والحرية ــ عنده ــ « قدرة المرء على تحقيق ذاته ، وليست الذات أنا محضا ، وانما هى من الوجهة العينية شخصية ، ذات ميول وقدرات محدودة » ، « فالشخص الحر ، هو ذلك الذى يعرف كيف يفرض بنفسه على نفسه ، تلك الواجبات والمسئوليات ، التى تحملها اياه الدولة ، وهى ــ فى نظر هيجل ــ أعلى النظم الاجتماعية » (٤٤) .

ومن ثم كانت القوانين عنـده ، « هى شروط الحرية » ، وكانت « طاعة قوانين الدولة أو الأسرة ، هى طاعة المرء لنفسه ، وهى التحقق

---

(٤٠) جون كينيث جالبريث : أضواء جديدة ، على الفكر الاقتصادى ــ ترجمـة الدكتور خليل حسن خليل ــ مراجعـة الدكتور سعيد النجار ــ دار المعـرفة ــ ١٩٦٢ ، ص ٨٨ .
(٤١) المرجع السابق ، ص ٨٩ .
(٤٢) المرجع السابق ، ص ٨٣ .
(٤٣) هـ . أ . ل . فشر : تاريخ أوربا فى العصر الحـديث (١٧٨٩ ــ ١٩٥٠) ــ تعريب احمـد نجيب هاشم ووديع الضبع ــ جمعيـة التـاريخ الحديث ــ دار المعـارف بمصر ــ ١٩٥٨ ، ص ٢٠٣ .
(٤٤) المرجع السابق ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

الفعلى لحريته » [٤٥] •

وأعتقد أن هـــذه المعانى ، كانت واضحة كل الوضوح فى •• فكر ماركس •

روسيا القيصرية والشيوعية :

أصيب ماركس بخيبة أمل ، بعد فشـــل ثورات ١٨٤٨ ، حتى أنه لم يظهـــر تعـــديله لأفكاره ، على النحو الذى أراده ، الا بعد قرابة عشرين عاما ، حيث ظهر الجـــزء الأول من كتابه (رأس المـــال) سنة ١٨٦٧ ، ثم أصدر صديقه انجلز ، الجزءين الثانى والثالث من الكتاب ، بعد وفاته •

وزاد من خيبة أمله ، مطاردته هو ورفاقه ، من مكان الى مكان فى أوربا ، بوصفهم مجموعة من المحرضين على الفوضى ، وتقـــويض دعائم كل مجتمع ، يقوم بايوائهم ، أو يتسللون خلسة اليه ، فحيثما كانت « الحركات البروليتارية المستقلة تظهر عليها دلائل الحياة ، فقد كان يقضى عليها بعنف وقسوة » [٤٦] — على حد تعبير البيان الشيوعى •

وكان منطقيا أن ينقسم تلاميذه من بعده ، بين مؤيدين للعنف ، ومعارضين له •

وقد اتضح هـــذا الانقسام ، فى المؤتمر الثانى للحزب ، الذى عقد فى لندن سنة ١٩٠٣ ، وتزعمه لينين — أول رئيس للدولة الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى سنة ١٩١٧ — وزعيم فريق الداعين الى العنف ، حيث « اختلف (لينين) مع (برنشتين) ، فيما اذا كان من الأوفق ، المحافظة على الأخلاق المـــاركسية ، نحو العمل على تحقيق الاشتراكية ، وهى أخلاق : العنف ، وعدم المهادنة ، والغدر ، والخيانة ، فى الوصـــول الى تحطيم الرأسمالية ، والتعجيل باسقاطها ، أو اتباع أسلوب أخفه

---

(٤٥) عبد الفتـــاح الديدى (مرجع سابق) ، ص ٦٧ .

(٤٦) ماركس وانجلس : بيـــان الحزب الشيوعى (مرجـــع سابق) ، ص ١٤ (من مقدمة الطبعة الانكليزية عام ١٨٨٨) (بقلم فردريك انجلس) •

وطأة ، وأحب الى النفوس ، طالما أن انهيار الرأسمالية حتمى ، على نحو ما تقضى به الفلسفة الماركسية ؟

وكانت الكثرة فى هذا المؤتمر فى جانب (لينين) ، الذى تمسك بالشق الأول من السؤال ، وكانت القلة فى جانب (برنشتين) ، الذى تمسك بالشق الثانى .. وأصبح حزب لينين يعرف باسم (البلشفزم) ، وهى كلمة روسية ، تعبر عن الكثرة ، وأصبح المؤيد له يعرف باسم البلشفيك » (٤٧) .

وقد سارع لينين فى نفس العام الذى اجتمع فيه الماركسيون فى لندن ، وانشقوا (سنة ١٩٠٣) ، الى تحويل جماعته الى حزب ، أسماه الحزب الاشتراكى الديموقراطى للعمال Social Democratic Labour Party ، وكان هو الذى تحول الى الحزب الشيوعى Communist Party بعد نجاح البلاشفة فى السيطرة على السلطة سنة ١٩١٧ ، بعد أن عصفت الحرب العالمية الأولى بآل رومانوف ، وبعد أن « أتيح لبعض أتباعه ، أن يقبضوا على زمام الثورة الروسية ، بعد انهيار دولة آل رومانوف ، فجاءتهم هذه الثورة ، والمذهب الماركسى يتداعى »(٤٨)، و « لولا تلك المصادفة » ، « لكان كتاب (رأس المال) ــ كما كان ــ رزمة من الورق اللغو ، يعجب قراؤه ، لما فيه من الخلط والترقيع ، وغلبة أهواء الشر ، على قواعد التفكير » (٤٩) .

أى أن الماركسية ، قد رسمت لمجتمع قطع شوطا بعيدا فى طريق الرأسمالية ، حيث يزيد أصحاب الأعمال ، ويزيد العمال ، ويزيد الصراع بين الطرفين ، بحيث تتفجر ثورة العمال (البروليتاريا) ، لأنهم بدون الثورة ، لن يستطيعوا الحياة .

---

(٤٧) الدكتور محمد البهى : الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر (مشكلات الحكم والتوجيه) (مرجع سابق) ، ص ٢١٧ .

(٤٨) عباس محمود العقاد : الشيوعية والانسانية (مرجع سابق) ، ص ١٥ .

(٤٩) المرجع السابق ، ص ٥٢ .

أى أن مقتل الرأسمالية كامن فى طبيعتها ، ومولد الشيوعية هو النتيجة الحتمية لتطورها ، فعند ماركس أن « البرجوازية لم تصنع فقط الأسلحة التى سوف تقتلها ، بل أخرجت أيضا الرجال الذين سيستعملون هذه الأسلحة : وهم العمال العصريون ، أو البروليتاريون •

تبعا لتطور البرجوازية ، أى لتطور رأس المال ، تتطور البروليتاريا ، طبقة العمال العصريين ، الذين لا يعيشون ، الا اذا وجدوا عملا ، ولا يجدونه الا اذا كان عملهم هذا ينمى الرأسمال • وهؤلاء العمال المجبرون على بيع أنفسهم بالمفرق ، هم بضاعة ، هم مادة تجارية كغيرها ، يعانون كل تقلبات المزاحمة ، وكل تموجات السوق » •

« ان الصناعة الحديثة ، حولت ورشة المعلم الحرفى البطريركى الصغيرة ، الى مصنع كبير للصناعى الرأسمالى ، وأخذت جماهير العمال المتكدسين فى هذا المصنع ، يخضعون لتنظيم أشبه بالتنظيم العسكرى • فهم جنود الصناعة البسيطون ، الخاضعون لسلسلة كاملة ، من كبار الضباط وصغارهم ، وكأنهم فى جيش عسكرى » (٥٠) •

ولكن الماركسية فشلت وحوربت وطوردت حيث رسمت وهندست ، وكان على أصحابها المطاردين فى كل مكان ، أن يجدوا مكانا يأوون اليه ، على أن يكون مكانا غير آمن وغير مستقر ، بحيث يعيشون فى ظلامه ، ولم يكن هناك وقتها خير من روسيا القيصرية ، والفوضى تنشب بأنظفارها فيها ••• تحت حكم آل رومانوف ، والثورة على الأسرة الحاكمة ، تملأ الصدور •

وكانت فرصة لهم ، استغلوها للسيطرة على الحكم ، كما يستغلون أمثالها ، فى كل عصر ، وفى كل بلد ، واذا لم تواتهم الفرصة ، اختلقوها ، باثارة الدهماء ، فيكون الظلام الذى يستطيعون فيه أن ينقضوا •

---

(٥٠) ماركس وانجلس : بيان الحزب الشيوعى (مرجع سابق) ، ص ٤٥ ، ٤٦ •

ولم تكن الماركسية واردة على بالهم عندما انتقلت اليهم السلطة فى روسيا سنة ١٩١٧ ، بأسرع مما توقعوا ، فقد كان أمامهم — على حد تعبير المرحوم عباس العقاد « مسلك من مسلكين : اما أن يهملوا المذهب ، فيهملوا الحق ، الذى يبنون عليه قيادة الثورة ، وتأسيس الحكومة الجديدة ، واما أن يتشبثوا به لتطبيقه ، ما استطاعوا التجربة والتطبيق ، مع الاسترسال عند كل خطوة ، فى التنقيح ، وتنقيح التنقيح ، والاعتراف تارة بالقداسة ، وتارة بالعصمة ، حول دثار الضريح » (٥١) .

ولولا ظروف الحرب العالمية الأولى ، وظروف الفوضى التى وجدت فيها روسيا نفسها ، لظل كتاب (رأس مال) ، (كجمهورية أفلاطون) (٥٢) ، و (جزيرة الخيال) للسير توماس مور (٥٣) .. عملا أدبيا ، وفكرا حالما ، لا قيمة له ، أكثر من أنه يعبر عن (الضياع) ، الذى يعيش فيه أبناء عصره .

وترى اللجنة الدولية ، التى شكلتها اليونسكو لكتابة (تاريخ البشرية) ، أن لينين ورفاقه ، الذين تولوا الحكم اثر الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ ، كان يهدفون ، « برجماتيا الى مواجهة المواقف ، التى كان عليهم أن يصارعوها . وكانت هذه المواقف صعبة ، وتتطلب جهدا شاقا . فاقتصاد البلاد قد تحطم ، بسبب ما أصابها من دمار وفوضى ، من جراء الحرب العالمية الأولى ، والثورة ، وسنوات التدخل الأجنبى ، والحرب الأهلية . ونتيجة لهذه الكوارث ، كان انتاج الصناعة الكبيرة فى عام ١٩٢٠ ، لا يكاد يبلغ سبع معدل ما قبل الثورة ، وانخفض مستوى الدخل القومى ، بحيث لم يكد يتجاوز ثلث ما كان عليه . وكان عبء المشردين والمرضى واليتامى والعاطلين والمطرودين ، عبئا

---

(٥١) عباس محمود العقاد : الشيوعية والانسانية (مرجع سابق) ، ص ١٥ .

(٥٢) ارجع الى ص ٩٦ من الكتاب .

(٥٣) ارجع الى ص ٩٧ من الكتاب .

ضخما ، فكانت المهمة العــاجلة ، وهى جمع شتات المجتمع ، المهمــة الأولى ، التى واجهت القادة السوفييت ، حين كانوا يبحثون عن طريق لبناء اقتصاد قادر على البقــاء . وتطلب الأمر ستة أعوام أو سبعة ، لأداء هذه المهمة ، بعد انتهاء الحرب الأهلية ، والتدخل الأجنبى »(٥٤) .

ولانجاز ذلك كله ، كان لابد من (قبضة حديدية) ، راح ضحيتها أكثر من عشرة ملايين ، فى ســبع سنوات فقط (١٧/١٩٢٤) ، كانت هى فترة حكم لينين ، ثم ارتفع هــذا العــدد ــ عدد الضحايا ــ الى ٦٦ر٧ مليون شخص ، أعدموا بين سنتى ١٩١٧ و ١٩٥٩ .

وبدون هذه (القبضة الحديدية) ، ما كانت المــاركسية ، لتعيش الى اليوم ، فضلا عن انتشارها ، فى خارج حدود الاتحاد السوفيتى .

الدولة فى الشيوعية :

رأينا ــ عند حديثنا عن (الجذور التاريخية للدولة) فى الفصل الأول ، أن الدولة ــ بوصفها ممثلا للمجموع ــ كانت فى نظر الانسان (شرا لابد منه) (٥٥) ، وأن أكبر أساس تقوم عليه الدولة ، وتقيم عليه استقرارها ، هو أن يكون لها دين واضح ، فى ضمائر أبنائها ، يحــدد الأساس الأخلاقى الذى يحكم تصرفاتهم (٥٦) .

ولم يكن ذلك كله غائبا عن كهنة المــاركسية ، متأثرين فيه بطبيعة الحال ، بأساتذتهم على الطريق ، ابتداء من أفلاطون ، وانتهاء بهيجل وفيورباخ ، اذ « لا تعدو المــاركسية أن تكون مزيجا من مثالية هيجل Hegel ، ومادية فيورباخ Feurbach ، وان عارضهما ماركس ، فى

---

(٥٤) تاريخ البشرية ــ المجلد السادس (القرن العشرون) ــ التطور العــلمى والثقافى ــ الجزء الثانى ــ ١ (تطور المجتمعات) ــ اعداد اللجنة الدولية ، باشراف منظمــة اليونسكو ــ الترجمــة والمراجعة : عثمان نويه وآخران ــ الهيئة المصرية العامة ، للتأليف والنشر ــ ١٩٧١ ، ص ٧٤ .

(٥٥) ارجع الى ص ٢٦ من الكتاب .

(٥٦) ارجع الى ص ٣٧ ، ٣٨ من الكتاب .

أمور كثيرة » (٥٧) .

ولذلك يلاحظ الدارسـون ، أن الماركسية قـد حاربت الأديان ، ولكنها — فى الوقت ذاته — اتخذت خطهـا ، و « لم تحرز البلشفية تفوقها ، الا بانتحال أساليب الدين ووسائله ، ومن هنـا تدعى الآن (دينـا) ! . أما كتبها المقدسـة ، فهى تعاليم كارل ماركس ، التى ينظر اليها بكل اجلال ، باعتبارها كشفا والهاما ، كما ينظر اليها باعتبار أنها معصومة من أى خطـأ . وللشيوعية شراحها ومريدوها ودعاتها ، وحتى شهداؤها ، ولها عقائدها وأصولها ، وبدعها الزائفة المرفوضة ، وهى تأخذ فى مطاردة الهراطقة ، وفى تصفية الزنادقة ، وفى اقامة محاكم التفتيش ، وفى عمل المذابح ضد المتشككين والمنكرين والمرتدين ، ولهـا طرائقها فى (الالهام) و (الحرمان) ، ولها معبد أوثانها وأيقوناتها ، الفاتيكان لديها هو الكرملين ، والوثائق البابوية هى كتـابات ستالين ، ولهـا طقوسها ورموزها المعقدة ، مثل أى دين ، وانها لتشـغل قلوب أتباعها ، بوعود الخلاص ، وآمال المستقبل ، والجزاء المنتظر فى نعيم الدنيـا ! ! » (٥٨) .

وقد رأينا عند حديثنا عن (أوربا القرن التاسع عشر والشيوعية) ، أن الاطـار الفكرى المـاركسى للشيوعية ، مستوحى من فلسـفة هيجل (٥٩) ، الذى كان له فى الدولة رأى واضح ، وهو أنها « اله يمشى فى الأرض » (٦٠) .

ومن ثم فقد أعلن لينين ، أول توليه السلطة فى الاتحاد السوفيتى سنة ١٩١٧ « دكتاتورية البروليتاريا » (٦١) ، وأعلن أن « الديكتاتورية ،

---

(57) SARUP, MADAN : Marxism and Education; Routledge & Kegan Paul, London, 1978, p. 108.

(٥٨) ميرزا محمد حسين : الاسلام وتوازن المجتمع (مرجع سابق) ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٥٩) ارجع الى ص ١٠٤ من الكتاب .

(٦٠) هـ . أ . ل . فشر (مرجع سابق) ، ص ٢٠٣ .

(61) AFANASYEV, A. : Marxist Philosophy; Op. Cit., p. 291.

معنـاها (السلطة اللانهـائية) ، التى تستند على القـوة ، لا على القـانون » [٦٢] •

والبروليتاريا ، التى أعلن لينين ديكتاتوريتها صراحة ، ووضـح المقصود بتلك الديكتاتورية ، فى صراحة أيضا ، معناها الطبقة العاملة ، من العمـال والفلاحين • الا أن الواقع فعـلا فى الاتحاد السوفيتى والمعسـكر الشيوعى كلـه ، يوضح أن الذين كانوا يمارسون هـذه الديكتاتورية ، ليسوا هم العمال والفلاحين ، وانما كانوا « رجال حزب العمـال الاشتراكى الديموقراطى Social Democratic Labour Party الذى تحـول سنة ١٩١٨ الى الحـزب الشيوعى Communist Party » [٦٣] ، وكان أعضاؤه لا يمثلون سوى « ما يقل عن ١٠٪ من مجموع السكان » [٦٤] •

وكان منطق لينين فى اعتماده على هذه الفئة القليلة ، فى الحكم ، دون غيرها ، هو ضمانه لولائها ، ومن ثم ضمانه لاحكام سيطرته على البلاد من خلالها ، فقد كان يرى أنه « اذا كان القيصر ، قـد تمكن منحكم روسيا ، بمائة وثلاثين ألفا من أفراد الطبقة الأرستقراطية ، فان البلاشـفة ، يمكنهم أن يفعلوا ذلك ، بمائتين وأربعين ألفـا من البلاشفة » [٦٥] ، خاصـة وأن هؤلاء البلاشفة ، كانوا (مندسـين) فى قلب جماهير الشعب الروسى [٦٦] ، ولم يكونوا بمعزل عن هـذه الجماهير ، كما كان الأرستقراطيون الذين يساعدون القيصر فى الحكم •

---

(٦٢) دكتور وهيب ابراهيم سمعان : دراسات فى التربية المقارنة — الطبعة الأولى — مكتبة الانجلو المصرية — ١٩٥٨ ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٦٣) دكتور عبد الغنى عبود : الايديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقـارنة (مرجع سابق) ، ص ٣٥٣ .

(٦٤) دكتور وهيب ابراهيم سمعان : دراسات فى التربيـة المقـارنة (المرجع الأسبق) ، ص ٥٦ .

(65) COUNTS, GOERGE S. : The Challenge of Soviet Education; McGraw - Hill Book Company, Inc., New - York, 1957, p. 35.

(66) POSPELOV, P. N. (Edited by) : Vladimir Ilyich Lenin, A Biography; Second Edition, Progress Publishers, Moscow, 1966, p. 331.

وتضييع الحرية ، تحت أقدام السلطة الحاكمة ، وعيونها المبثوثة فى كل مكان ، ولكن الماركسيين لهم منظورهم المغاير للحرية ، كما رأيناه فى نهايات حديثنا عن (أوربا القرن التاسع عشر والشيوعية) ، فيما سبق من هذا الفصل (٦٧) ، والذى بموجبه تتحقق حرية الانسان بصورة أفضل ، كما تتحقق هذه الحرية بصورة أفضل أيضا ، من خلال (حق العمل) الذى يحصل عليه كل عامل ، والذى به « تتحقق ذاتية الانسان ، وتتحقق حريته ، ويتوفر أمنه ، ويحس بعالمية انسانيته »(٦٨).

ولضمان بسط النفوذ ، وفرض السيطرة ، ووصول الدولة الى درجة التأليه ، التى أوجبها لها هيجل ، كان التحكم فى (لقمة العيش) ، من خلال الغاء الملكية الخاصة ، « فالغاء الملكية الخاصة ، فى النظام الماركسى اللينينى — أو فيما يسمى بالنظام الاشتراكى البلشفى — لم يكن طريقا لازدهار الاقتصاد القومى ، وبالتالى لم يكن طريقا لتحقيق ما يسميه النظام نفسه : بالعدالة الاجتماعية ، بقدر ما هو طريق لمساندة الحاكم ، وتكوين رابطة له ، فى بسط نفوذه ، وتفرده بالسلطة » (٦٩) .

دليل ذلك ، أنه ما أن تمضى سنوات ، على تولى (المناضلين) — كما يحبون أن يسموا أنفسهم — السلطة ، حتى يتحولوا « الى كبار ملاك ، بما ينهبونه من قصور وممتلكات ، وما يسرقونه من أموال عامة .. يراق فى سبيل تكوينها ، عرق العامل والفلاح .. ودمه »(٧٠) .

ولذلك يرى المرحوم عباس العقاد ، فى دراسته للتجربة الشيوعية فى روسيا ، أن « رأس المال زال من البلاد الروسية ، وزال معه أغنياؤها وسراتها ونبلاؤها ، وظهرت — مع هذا — طبقة حاكمة ، من

---

(٦٧) ارجع الى ص ١٠٥ ، ١٠٦ من الكتاب .

(68) SARUP, MADAN; Op. Cit., p. 120.

(٦٩) الدكتور محمد البهى : الاسلام ، فى حل مشاكل المجتمعات الاسلامية المعاصرة — الطبعة الثانية — مكتبة وهبة — ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م ، ص ٢٠٨ .

(٧٠) دكتور عبد الغنى عبود : قضية الحرية ، وقضايا أخرى (مرجع سابق) ، ص ٨٦ .

الخبراء والمهندسين ، لا تدانيها فى سطوتها واستبدادها ، طبقة حاكمة ، فى أشهر البلاد ، باستبداد نظم الصناعة ورءوس الأموال .. » (٧١) ، وأن « من الأوهام الشائعة ، أن الحكومة الماركسية ، هى حكومة العمال والصناع » ، وأن « الجماعات ، أو اللجان ، التى يسمونها بالسوفييت ، ليست هى جماعات مؤلفة من العمال والصناع ، كما يخطر على البال ، ولكنها جماعات مختلطة من المديرين ، والمشرفين على المصانع ، والقائمين بتنفيذ المشروعات الاقتصادية » (٧٢) ، وأن « هذه الطبقة ــ طبقة الحاكمين فى البلاد الشيوعية ــ تأخذ الأقوات ، من أفواه العاملين ، لتنفقها على جيوش من الجواسيس والأرصاد ، وعلى جيوش من العساكر والضباط ، وعلى جيوش من الدعاة والمداحين » ، وأنها « تنفرد بعيشة الرخاء ، وتختار لنفسها ما تشاء من المساكن والأطعمة ، وتأمر وتنهى ، وتعز وتذل » ، وغايتها من ذلك ، « أن تحمى وجودها ، وتحفظ نفوذها ، وتقطع الطريق على كل منافسة تخشاها ، ولو هلكت الأيدى العاملة ، وطال عليها عهد التسخير والتضليل .

ولم يحدث قط فى التاريخ ، أن سلطانا غاشما مستبدا ، أنفق من الأموال ،على السلاح والجاسوسية ، ما ينفقه هؤلاء الطغاة المستبدون، فى بلاد الشيوعيين » (٧٣) .

ثم لا ينسى العقاد ، أن يقارن بين العامل الشيوعى ، والعامل الغربى (المطحون) ، فى نظر الماركسيين ، بل انه يقارن بين هذا العامل الغربى ، وسادة الكرملين أنفسهم ، على حد تعبيره ، فيرى أنه « لو كان فى مذهب الشيوعية (الفردوس) ، لاستجاب له كل الطبقات العاملة فى العالم ، أو لاستجاب له العمال فى بعض البلاد » .

« ولا يستطيع أى عبد للماركسية ، أن يتبجح ويكابر ، ويزعم أن

---

(٧١) عباس محمود العقاد : حقائق الاسلام ، وأباطيل خصومه ــ دار الاسلام ــ القاهرة ــ ١٩٥٧ ، ص ١٨٨ .

(٧٢) عباس محمود العقاد : أفيون الشعوب ، المذاهب الهدامة (مرجع سابق ، ص ٦١ ، ٦٢ .

(٧٣) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

العمال فى أمريكا أو بريطانيا ، أقل مستوى فى الفكر والفهم والمعيشة ، من زملائهم فى روسـيا ، بل ان العمال فى الغرب — وعلى الأخص فى أمريكا وبريطانيا — أرفع مستوى ، من العمال ، فى الاتحاد السوفياتى ، بل لا نسبة بين هؤلاء وأولئـك فى شىء » •

« ولا يستطيع أى عبد للماركسية ، أن ينكر أن نقابات العمال ، حمت الطبقة العاملة ، ومنحتها من الحقـوق والأجور والامتيازات ، ما لم يكن يحلم به العـامل فى روسيا ، بل ان العـامل فى أمريكا وفى بريطانيـا ، يتمتع بحريته الشخصية ، أكثر ممـا يتمتع به سـادة الكرملين » (٧٤) •

ان العـامل الغربى اليوم ، غير العامل الغربى ، الذى تبلورت أفكار كارل ماركس فى ضـوئه •• فى القـرن التاسع عشر ، على أنه « عامل يدوى ، كادح ، مطحون ، مسـحوق ، لا يكاد يجد لقمته » ، وانما هو اليوم « مرفه ، يجلس أمام أزرار » ، ولم يعد « يوجد جيش من العمال المرهقين ، وانما جيش آخـر من الموظفين المرفهين ، ومن ورائهم نقابات عمالية ، وقوانين للتـأمين ، ضـد العجز والشيخوخة والمرض ، وفرص للتعليم والعلاج •• » (٧٥) •

والعـامل الذى كان مطحونا فى القرن التاسع عشر فى الغرب ، لا يزال هو العامل المطحون فى العالم الشيوعى ، بعرقه الذى لا يجف ، ودمه الذى لا يتوقف عن النزيف ، فى سبيل ارضاء الطبقة الحاكمة ، التى لا تشبع سفك دم ، ولا سرقة مال ، و « هو نظام يمكن أن تطبقه الشعوب المتخلفة — بعض الوقت — ولكن الآدميين ، الذين يستشعرون وجودهم (الانسانى) ، لا يصبرون عليه طويلا » (٧٦) — على حد تعبير ضحية الاستبداد المـاركسى الأحمر فى مصر : الشهيد سيد قطب •

---

(٧٤) عباس محمود العقاد ، واحمـد عبد الغفور عطار : الشيوعية والاسلام — الطبعة الثانية — مطابع دار الأندلس ، للطبـاعة والنشر — بيروت — ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م ، ص ٤٥ ، ٤٦ •

(٧٥) مصطفى محمـود : المـاركسية والاسـلام — دار المعـارف بمصر — ١٩٧٥ ، ص ١١ ، ١٢ •

(٧٦) سيد قطب : المستقبل لهذا الدين — دار الشروق — ١٣٩٤هـ — ١٩٧٤ م ، ص ٦١ •

الفصل الخامس

الدولة فى الاسلام

تقديم :

فى فصول الكتاب السابقة ، رأينا أن للدولة (جذورها) الضاربة فى أعماق (التاريخ) الانسانى ، وفى أعماق (الضمير) البشرى على السواء ، وان كان الانسان قد اعتبرها (جزءا) من تكوينه النفسى ، نتيجة (لحاجته) اليها ، لتوفر له قدرا من السلامة والأمن ، لاتستحق حياته بدونه أن تعاش •

وكانت قضية الدولة ، كما رأيناها عبر فصول الكتاب ، هى قضية (الجنوح) نحو أحد طرفى العلاقة ــ الفرد ، أو المجتمع ، وهو (جنوح) كانت تفرضه مجموعة الظروف ، التى أحاطت بمجتمع ما ، كما أنه جنوح لا يتفق ومنطق الأشياء ، ومن ثم كان يؤدى الى اضطرابات وقلاقل ، تسير به فى الاتجاه المضاد •

ففى ظل الحرية الفردية الأثينية ، (نشأت) التسلطية الأفلاطونية ، فى القديم ، كفلسفة ــ وفى ظل الرأسمالية ، (ولدت) الشيوعية ، فى الحديث •

وعندما جاء الاسلام ، جاء وليس هناك (فعل) معين فى الدولة ، حتى يكون الاسلام رد فعل له ، فقد رأينا فى تقديمنا للحديث عن (نبوة الاسلام) ، فى الفصل الرابع من الكتاب السادس من كتب السلسلة ، عن (أنبياء الله ، والحياة المعاصرة) ، أن المجتمع الذى نزل فيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وأرسل منه الى الناس كافة ، « لم يكن » « مجتمعا واحدا ، ذا (تركيبة نفسية) واحدة ، كما كانت المجتمعات ، التى أرسل اليها اخوته ، الأنبياء السابقون ، عليهم السلام ، وانما كان مجموعة من المجتمعات فى مجتمع واحد •

كان فى هذا المجتمع ، الريف والحضر ، وكان فيه السكان المقيمون، والبدو المتنقلون ، وكانت السياسات فيه متباينة ، بين الملكية المستبدة ، والقبليـــة ، وكان فيه مكان (للمتسيبين) ، ممن لا يرضون بأى حكم ، ديموقراطيا كان أو ديكتاتوريا •

ويحفظ الشعر العربى بين جوانحه ، لونا من أرق ألوان الشعر وأعذبه ، لمـا يمثله من انطـلاقة ، لا تحـدها حدود •• هو شـعر الصعاليـك » (١) •

وكان هـذا (التنوع) غير المحدود ، هو الذى حدد معالم الدولة الاسلامية وملامحها ، على نحو ما سنراها فى هـذا الفصل •

دولة ربانيـــة :

و (الربانية) ، هى السمة الأولى من سمات المجتمع الاسلامى ، كما رأيناها فى كتابنا التاســع من كتب السلسلة (٢) ، الذى رأينا فى الفصـــل الثانى منه ، أن الربانيـــة لا تعنى « تحليقـــا فى آفاق من (الروحية) ، التى تحـرر روح الانسان من جسده ، أو تأخذ هـذا الانسان من مجتمعه ، ومن عالمـه المـادى ، الذى يعيش فيـه » ، « وانمـا (الربانية) ، تعنى أن يتمثل الانسان فى نفسه ، جلال الخالق سبحانه ، وبديـع خلقـه » (٣) ، ومن ثم كانت « الربانيـــة ، هى الانسانية ، فى أسـمى صورها » (٤) •

وتلك الربانيـــة / الانسانيـــة ، هى سـمة الدولة الاســلامية

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : انبياء الله ، والحياة المعاصرة ــ الكتاب السادس من سلسلة (الاســلام وتحـديات العصر) ــ الطبعة الأولى ــ دار الفكر العربى ــ سبتمبر ١٩٧٨ ، ص ١٠٢ •

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : الملامح العــامة ، للمجتمع الاسلامى ــ الكتاب التاسع من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) ــ الطبعة الأولى ــ دار الفكر العربى ــ فبراير ١٩٨٠ ، ص ٤٠ ــ ٦٤ •

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢ ، ٤٣ •

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٦ •

الأساسية ، وهى سـمة (القانون) ، الذى يحكم العلاقات بين أبنائها من جانب ، ويحكم العلاقات بين هذه الدولة والدول الأخرى ، من جانب آخر ، فان « القانون الربانى ، لايعدو أن يكون (ترجمة) للاطار الربانى للحيـاة ، وللأخلاق الربانية ، شأنه فى ذلك شأن القوانين الأخرى .. الوضعية » (٥) ، الا أن « القانون الاسلامى ، يتحول الى (عرف) ، من خلال تعبيره عن (الضمير) الاسلامى ، الفردى والاجتماعى »(٦).

وهـذه (الدولة الربانية) الاسلامية انمـا هى ترجمـة حيـة « للرؤيا الدينية الاسلامية » ، على حد تعبير أدونيس ، التى هى عنده رؤيا « غيبية وحياتية فى آن ، فهى نظرة شاملة ، للفـكر والعمـل ، للوجود والانسان ، للدنيا والآخرة . وبمـا أن هـذه الرؤيا لم تكن تكملة للجاهلية ، بل نفيا ، فقد كانت تأسيسا لحياة وثقافة جديدتين ، وكانت ، بما هى تأسيس ، أصـلا جامعا ، صـورته الوحى ، ومادته الأمة — النظام » (٧) .

ويرى المستشرق الشهير جب ، أن « المدة ما بين ٧٥٠ و ١٠٠٠ م (كانت) هى دور التكوين ، الذى طبعت فيـه المدنيـة الاسـلامية ، فى تطـورها ، بالطابع المميز لهـا ، والذى لمـا تفقـده ، الى يومنا هـذا » ، وأنه « لم تأت سنة ١٠٠٠ م ، حتى كمل هـذا التطور فى الاسلام ، من عقيدة محضة ، الى مجتمع متشعب النواحى » ، « مكن لنفسه فى أقاليم ، ذات ثقافة موروثة أخـرى ، لم يفعـل ذلك وهو بمرونته الأولى ، بل انتقل ثقافة متماسكة ، تامة النضج ، حملها معه ، أينما ذهب » (٨) .

---

(٥) المرجع السابق ، ص ٥٢ .
(٦) المرجع السابق ، ص ٥٥ .
(٧) ادونيس : الثابت والمتحول ، بحث فى الاتبـاع والابداع عنـد العرب — ١ (الأصول) — الطبعة الأولى — دار العـودة — بيروت — ١٩٧٤ ، ص ٢٠ .
(٨) هـ. ا. ر. جب وآخرون : وجهة الاسلام ، نظرة فى الحـركات الحديثة فى العالم الاسـلامى — أشرف على تحريره : الأستاذ (جب) — ونقـله عن الانجليزية : محمـد عبد الهادى ابو ريدة — المطبعة الاسلامية — ١٩٣٤ ، ص ١١ ، ١٢ (من الفصل الأول ، للأستاذ هـ. ا. ر. جب) .

ولم يكن غريبا ، أن يرى بعض المصلحين الاسلاميين ، أن الضعف قد تسرب الى العالم الاسلامى ، عندما تمسك المسلمون (بالروحانيات) ، وتركوا الماديات ، اذ « ماذا تكون الروحانيات ، اذا لم تغير صور الحياة المادية الدنيوية ؟ » ، على حد تعبير واحد منهم ، « ولقد كان الاسلام قوة فعالة ، عندما كان يشكل محور حياة المسلمين » (٩) ، فكانت « الحياة كلها عبادة ، والأرض كلها مسجد » (١٠) — على حد تعبير آخر .

ولقد تعرضت (دولة الاسلام) لكل ما تعرضت له غيرها ، من الدول ، من قلاقل واضطرابات — ابتداء من مولدها الأول غضة ، فى قلب الرسول الكريم ، يتحدث عنها صلى الله عليه وسلم لعمه ، الذى أراد أن يساومه عليها : « والله يا عمى ، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته ، حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه » .

وفى سبيل هذه (الدولة الاسلامية) ، أو (الأمر) كما عبر عنه لعمه — ربما ، رفض دولة الشرك ، حينما عرضوها عليه « وان أراد ملكا ، سودناه علينا » .

وفى سبيلها — أيضا — كانت محاصرة الدعوة ، ومطاردتها ، وكانت المقاطعة الاقتصادية للمؤمنين ، وكانت ملاحقتهم فى كل مكان ... حتى فى الحبشة ، قبل الهجرة الكبرى ... الى المدينة .

وظلت دولة الاسلام ، تعبر ، من أزمة ، الى أزمة ، الى أن اشتد عودها ، وصارت قادرة على مطاردة الفرس والروم معا ، فى داخل

---

(٩) محمد مظهر الدين صديقى : ما هو الاسلام — رقم (٣) من سلسلة (نحو وعى اسلامى) — المختار الاسلامى — ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م ، ص ٦٤ .

(١٠) محمد الحسنى : الاسلام المتحن — تقديم المفكر الاسلامى الكبير ، أبو الحسن الندوى — الطبعة الأولى — المختار الاسلامى ، للطباعة والنشر التوزيع — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ٩٢ .

حدودهما ، وزرع (الخوف) فى قلوبهما معا منها ، حتى وهى تتعرض (لهزات) داخلية ، كتلك التى أدت الى مقتــل عثمان ، وكالصراع بين علي ومعاوية ، وغيرهما — لم يفت فى عضدها أزمة من هــذه الأزمات ، بقدر ما كانت تزيدها قوة .

ونتساءل مع الدكتــور هيكل : « كيف استقرت الامبراطورية ، كل هــذه القــرون ؟ وما بالها لم تهب عليها ريح الفنــاء ، التى هبت علي امبراطورية الاسكندر ، وعلى امبراطورية المغول ؟ » .

ثم نجيب معه : لقــد « انتشرت هــذه المبادىء ، فى شبه جزيرة العرب ، لعهد النبى العربى ، فحطمت فى النفس العربيــة تقاليــدها الباليــة ، التى أورثتها اياها عبادة الأصنام ... وردت اليها هــذه الحــرية الروحية العزيزة على نفس العربى ، فاندفع الى الشـــام والى العراق ، مؤمنا بها .. » [11] ، صامدا فى وجه كل التحديات .

أو لعل ليوبولد فاس ، الذى أسلم عن عقيدة ، تحت اسم (محمد أســد) ، يجيبنا بصورة أوضح ، حين يرى « أن الاسلام أكبر من أن يكون مجرد نظام سياسى . انه منهاج كامل للعقيدة والقيم الأخلاقية ، انه نظرية اجتماعية شاملة ، ودعوة الى الاستقامة والاعتدال ، فى كل الأمور الشخصية والشعبية . انه أيديولوجية تامة ، تعتبر كل مظــاهر الحيــاة ، الأدبية منها والمــادية ، الروحية والعقليــة ، الفــردية والاجتماعية ، كلا لا يتجــزأ .

ولكن لمــا كانت أيديولوجية الاسلام تامة ، مستقلة بذاتهــا عن سواها ، فان معتنقيها لا يمكن أن يعيشوا حيــاة اسلامية صحيحة ، بمجرد اعتناقهم لعقائد الاســلام ، بل عليهم أكثر من ذلك » ، « أن يوفقوا بين مظاهر سلوكهم ، وبين مطالب العقيــدة التى يعتنقونها . ومثل هــذا التوفيق التام ، بين الايمان والعمل ، لا يمكن أن يتحقق ،

---

(١١) الدكتور محمد حسين هيكل (مرجع سابق) ، ص ٢١ .

ما لم يخضع المجتمع كلـه ، للقوانين الاجتماعية والاقتصادية ، التى شرعها الاسلام » (١٢) •

ويمكن تلخيص المقـومات العـامة ، التى تقـوم عليها الدولة الاسلامية ، مع الدكتور عبد العـزيز الخيـاط ، فى أربع مقومات ، « (الأول) الأخلاق والقيم العليا ، التى يدعو لها الاسلام • (الثانى) الأنظمـة ــ التى تنظم علاقات الأفراد ، بعضهم مع بعض • (الثالث) تنفيذ هـذه الأنظمة ، ومباشرة تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمـع الاسلامى • (الرابع) العادات والأعراف السليمة ، التى لا تتناقض مع العقيدة والتعاليم الاسلامية » (١٣) •

ولا يمكن لهذه المقومات العـامة للدولة الاسلامية أن تظهر بدون الشريعة الاسلامية ••• و « لفظ الشريعة مشتق من جـذر ، يعنى الطريق ، فالشريعة طريق يؤدى الى اللـه » (١٤) ، و « الشريعـة فى نظر المسلم ، قانون خالد ، يسمو على الطبيعة » (١٥) •

ويطرح الدكتور محمد حسين هيـكل ، سؤالا يفرض نفسه على كثير من الجاهلين بالاسـلام ، وبالدين كما يجب أن يكون ، ثم يجيب على السؤال ، أما السؤال فهو : « لم فرض الاسلام على النـاس أمورا تدخل فى نظام حياتهم فى هـذا العالم ، ولم يكتف بالعبادات وما بين المرء وخالقه ، مما يتصل بالعقيدة ؟ » (١٦) •

---

(١٢) محمد اسـد : منهاج الاسـلام فى الحكم (مرجع سابق) ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ •

(١٣) الدكتور عبد العزيز الخياط : المجتمع المتكافل فى الاسـلام ــ مؤسسة الرسالة ومكتبة الأقصى ــ ١٣٩٢ هـ ــ ١٩٧٢ م ، ص ١٦ •

(١٤) الدكتور سيد حسين نصر : الاسلام ، أهدافه وحقـائقه ــ الطبعة الأولى ــ الدار المتحدة للنشر ــ بيروت ــ ١٩٧٤ ، ص ٨٧ •

(١٥) المرجع السابق ، ص ٩٣ •

(١٦) الدكتور محمد حسين هيكل (مرجع سابق) ، ص ٦٥ •

وأما الاجابة ، فهى أن « ما جاء به القرآن من المبادىء العامة لنظام الحياة الدنيا ، جوهرى فى الاسلام ، لسلامة العقيدة ، ولذلك كانت العقيدة السليمة ، والايمان الصادق ، قوام هذا الدين ... وكانت مصدر النظام الروحى ، الذى يجب أن يقوم الخلق الحسن على أساسه » (١٧) .

ويزيد الشيخ عبد المتعال الصعيدى هذه القضية وضوحا ، فيرى أن « العبادات الاسلامية ، تمتاز على غيرها من العبادات ، بأنها لا يقصد بها مجرد التعبد ، ولا مجرد اظهار الخضوع لله تعالى ، لأن الله تعالى غنى عن عبادتنا ، وليس فى حاجة الى اظهارنا الخضوع له ، وانما يقصد منها فى الأكثر ، أمور تعود علينا بالمصلحة فى دنيانا ، قبل أن تعود علينا بشىء فى أخرانا » (١٨) .

ومن ثم كان الاسلام ضد الرهبانية (١٩) ، وكان مع الجهاد ، وما يفرضه على أبناء الأمة « من يقظة وسعى وتعبئة واحتشاد وبذل ، مما لا يكون مع العزلة فى خلوة التعبد ، والانقطاع له » (٢٠) ، سواء كان جهادا « يحمل أمانة الكلمة ، أمرا بالمعروف ، ونهيا عن المنكر ، وشهادة بالحق » (٢١) ، أو « بالعلم » ، الذى « لا يعطى ثوابه مع الانقطاع والعزلة ، بل يرى الاسلام فى حبس العلم عن الناس اثما ، يدخل فى كتمان الحق » (٢٢) .

و (يفلسف) مصطفى صادق الرافعى ، معاداة (الاسلام)

---

(١٧) المرجع السابق ، ص ٦٥ ، ٦٦ .
(١٨) عبد المتعال الصعيدى (مرجع سابق) ، ص ٦ .
(١٩) دكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) : الشخصية الاسلامية ، دراسة قرآنية — الطبعة الثانية — دار العلم للملايين — بيروت — آيار (مايو) ١٩٧٧ ، ص ٧٠ .
(٢٠) المرجع السابق ، ص ١٠٤ .
(٢١) المرجع السابق ، ص ١١٠ .
(٢٢) المرجع السابق ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

للرهبانية والزهـد ، ومناصرته للجهـاد بمعناه الواسع ، فيرى أن « الزاهد يحسب أنه قـد فر من الرذائل الى فضائله ، ولكن فراره من مجاهدة الرذيلة ، هو فى نفسه رذيلة ، لكل فضائله . وماذا تكون العفة والأمانة والصدق والوفاء والبر والاحسـان وغيرها ، اذا كانت فيمن انقطع فى صحراء ، أو على رأس جبل ؟ » (٢٣) .

وهكذا تكون (ربانية) الدولة الاسلامية ، هى وحدها المحققـة لرسالة الانسان ، التى من أجلها خلق فى هذه الأرض ، وهى رسالة .. الاستخلاف ، التى تعنى تعمـير الأرض ، ونشر الحـق والخـير والجمـال فيها .

ودولة انسانيـة :

ولا تعنى (ربانيـة) دولة الاسلام ، أنهـا دولة (مثاليـة) ، تتغافل طبيعة الانسان وحاجاته ، وما به من نقاط ضعف ، تعـود الى (الطين) ، الذى يعد جزءا من تشكيله ، ومن هنـا كان (جهاده) ، وما يحتله هـذا الجهاد من منزلة عند ربه ، بالمعنى الواسع لهـذا الجهـاد .

ومن ثم فدولة الاسلام دولة (انسانية) ، ترتبط بالأرض ارتباطها بالسماء ، ومن ثم « قال معظم مفكرى الاسلام المحدثين ، أن (المسلمين ليسوا مسلمين) . والكلمة صائبة تمـاما . لكن الأصوب أن يقـال ، انهم لم يكونوا ولن يكونوا مسلمين أبدا ، بمعنى أنهم سيظلون دوما بعيدين عن تجسيد الاسلام ــ الحقيقة ، أو الاسـلام ــ الوحى فى التاريخ ــ الزمان ، لأن ما يدخل فى الزمان ، لا يلبث أن يعتريه صروفه وأقداره ، ولأن الحقيقة ــ الوحى ، تفارق عالم الانسان ، وتعلو عليه ، ولا يمكن أن تكون خالصـة نقيـة مطلقة ، الا فى عالم الأزليـة

---

(٢٣) مصطفى صادق الرافعى : وحى القـلم ــ الجـزء الثانى ــ الطبعة السابعة ــ المكتبة التجارية الكبرى ، ص ٩٧ .

الثابت » (٢٤) •

ومن ثم كان المجتمع الاسلامى ، كغيره من المجتمعات البشرية ، مجتمعا بشريا ، فيه نقاط القوة ونقاط الضعف ، ولم يكن هذا المجتمع — كما توهم بعض الدعاة الى الاسلام بحسن نية — مجتمعا « خاليا من كل عيب ، نظيفا من أى فساد ، نقيا من أى زيغ ، وانحراف فى العقيدة والمسلك » ، لأن التاريخ يثبت أنه « كان فيه عصاة وبغاة ، ومنافقون وفاسدون ، وكان فيه زنادقة وملحدون ، وأصحاب بدع وأهواء ، وكان فيه ظلم وظالمون ، وسراق ولصوص ، ولكن العبرة بسيادة الشريعة فى العقيدة والأنظمة ، والأعراف والتقاليد ، والاستهداء بالكتاب والسنة ، فى استنباط الأحكام والتطبيق ، والحكم لمجموع الأمة ، التى لا تعرف غير الاسلام قانونا وشريعة ، ومرجعا وسيادة ، تعود اليها فى هدى المنحرفين الى الصواب ، وقمع الضالين عن الضلال » (٢٥) •

« فالمجتمع الاسلامى — بانتسابه الى الاسلام — لم يخرج عن كونه مجتمعا بشريا ، يتكون من أفراد ، لهم ميول فردية ، توحى بها طبائعهم ، ككائنات حية ، لها من فطرتها غرائز مختلفة ، بجانب ما تميزت به من قدرة على التفكير •

ودور الاسلام ازاء هذه الطبائع البشرية ، لا يتعدى توجيهها أو تهذيبها » • « ولهذا يقر الاسلام : ميل الانسان الى التملك ، وميله الى النسل ، وميله الى الاطلاع والمعرفة ، وميله الى الاجتماع • يقر الاسلام ميل الانسان الى حب الذات ، وكذا ميله الى مشاركة الغير مشاركة وجدانية • يقر الاسلام هذه الميول للانسان ، ويقر غيرها ،

---

(٢٤) الدكتور فهمى جدعان : أسس التقدم ، عند مفكرى الاسلام ، فى العالم العربى الحديث — الطبعة الأولى — المؤسسة العربية ، للدراسات والنشر — بيروت — كانون الثانى (يناير) ١٩٧٩ ، ص ٤٩ ، ٥٠ •

(٢٥) الدكتور عبد العزيز الخياط (مرجع سابق) ، ص ٦ ، ٧ •

مما له من طبيعته » (٢٦) ٠

وايجابية الاسـلام كدين هنـا ، تكمن فيما منحه من مرونة ، فيما يتصل (بتطور) الحياة من حـول الانسان ، وضرورة استجابته لهذا التطور ، وان كان فى « مجال العقيدة ، لا يقبل التطور » ، كما « لا تختلف الأخلاق الاسلامية أيضا ، من بيئة الى أخرى ، ولا من مكان الى مكان » (٢٧) ٠

وبهذه القـدرة الاسـلامية على (التطور) ، استطاعت الأمة الاسـلامية « أن تقاوم المؤثرات الخارجية العنيفة ، والتقلبات ، التى لا تكاد تنتهى ، واختلاف الزمان والمكان ، وقد كان بعضه يكفى للقضاء على ديانة قوية قديمة ، أو تحريفها على الأقل ، كما وقع مرارا فى تاريخ الأديان » (٢٨) ٠

ومن ثم « لم يكن ضعفا فى القرآن ، أنه لم يحدد منهجا سياسيا ، ولم يرسم دستورا محددا ، وانما كان ذلك أحد أدلة قوته واعجازه ٠٠ فقد أراد الله أن يفتح سبيل الاجتهاد ، والأخذ بالعلوم ، واستنباط المناهج والأحكام ، من الظروف المتغيرة ، دون تكبيل بمنهج سماوى جامد محدد » (٢٩) ، لأنه لا « يناسب جوهر الدين ، أن يفصل للناس نظم الاقتصـاد أو نظم السياسة ، تفصيلا مبرما » ، فان « أحوال المعيشـة الاقتصادية والنظم السياسية ، تتقلب من زمن الى زمن ، وتختلف بين أمة وأخرى » ٠ لذلك « قرر الاسلام ، أن يمنع الاحتكار ،

---

(٢٦) الدكتور محمد البهى : الاسـلام فى حياة المسلم — الطبعـة الخامسة — مكتبـة وهبـة — رجب ١٣٩٧ هـ — يونيـه ١٩٧٧ م ، ص ٣٢٧ ٠

(٢٧) الدكتور عبد الحليم محمود : منهج الاصـلاح الاسـلامى فى المجتمع — مطبوعات دار الشعب بالقـاهرة — ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م ٠ ص ٢٨ (من المقدمة) ٠

(٢٨) ابو الحسن الندوى : رجال الفكر والدعوة فى الاسـلام — الطبعة الرابعة — دار القلم بالكويت — ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م ، ص ١٥ ٠

(٢٩) مصطفى محمود : المـاركسية والاسلام (مرجع سابق) ، ص ١٨ ٠

وكنز الأموال ، وقرر أن يمنع الاستغلال بغير عمل » • « كذلك فرض الاسلام ، أن يقوم الحكم على أساس الشورى ، وأن يقوم التشريع على أساس الكتاب والسنة ، واتفاق الامام والرعية ، ولا ضير بعد ذلك أن يتبعوا هذا النظام ، أو ذاك » (٣٠) •

ومن خلال قدرة الاسلام على (التطور) ، فى ضوء العقيدة الاسلامية وهداها ، كانت قدرة الاسلام على الصمود رغم كل التحديات ، لأنه — فى نظر المستشرق جب Gibb — « ليس دينا بالمعنى المجرد الخاص ، الذى نفهمه اليوم من هذه الكلمة ، بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال ، يقوم على أساس دينى ، ويشمل كل مظاهر الحياة الانسانية ، لأن ظروف نموه » ، « أدت أول الأمر ، الى ربط الدين بالسياسة ، بل الى ربط علم الكلام بالسياسة ، وقد أكد هذه النزعة الأصيلة ، ما تلا ذلك ، من صوغ القانون الاسلامى ، والتنظيم الاجتماعى » (٣١) •

ومن ثم كان من يرى أن الاسلام « دين ، وليس دولة ، دين ينتظم الوجود الانسانى كله ، ويضع الأسس الأخلاقية والاجتماعية ، لأرقى حضارة فى الوجود ، حضارة تتسق فيها الروح والمادة ، وتتوازن فيها النزعات الفردية والجماعية ، وتحقق للانسانية متعة الحياة ، ونعيم الآخرة ، ويقوم عليه مجتمع كامل ، يستهدى قانونه من شريعته ، ويسوس دنياه على قواعد دينه ، فالاسلام دين ودنيا — كما قلنا — قبل أن يكون دينا ودولة » (٣٢) — وان نسى من يقول بذلك ، أن دنيا الناس ، هى هى الدولة ، وما الحكومة فى مجتمع من المجتمعات ،

---

(٣٠) عباس محمود العقاد : ما يقال عن الاسلام — دار الهلال — ١٩٧٠ ، ص ١٥٠ ، ١٥١ •

(٣١) هـ. أ. ر. جب وآخرون : وجهة الاسلام ، نظرة فى الحركات الحديثة فى العالم الاسلامى (مرجع سابق) ، ص ١٥ ، ١٦ (من الفصل الأول : مقدمة ، للأستاذ هـ. أ. ر. جب) •

(٣٢) الدكتور حسين فوزى النجار : الاسلام والسياسة ، بحث فى أصول النظرية السياسية ونظام الحكم فى الاسلام — مطبوعات الشعب — ١٩٧٧ ، ص ٧٤ •

الا تجسيد حى للحالة الدنيوية ، التى وصل أليها هؤلاء الناس ، أو هى تصوير لشخصيتهم القومية ، فى الزمان والمكان ، على نحو ما رأينا فى الفصل الأول ، عند حديثنا عن (المعنى الاصطلاحى للدولة) (٣٣) •

الدستور الاسلامى :

وتظل (ربانية) الدولة الاسلامية و (انسانيتها) رغم ذلك ، كلاما تغلب عليه صفة العمومية ، أو اطارا عاما عريضا ، لابد أن يترجم الى (سلوكيات) — أى الى قانون ، يحكم تصرفات الناس •

ورغم أن مثل هذا القانون ، أو الدستور ، غير موجود فى بلد من بلاد العالم الاسلامى ، لأن هناك قانونا (مدنيا) ، هو الذى يحكم هذه البلاد ، فان هذا القانون أو الدستور ، يعيش فى أعماق كل انسان مسلم ، وكل مجتمع مسلم ، فالدستور الاسلامى على ذلك دستورمتبع فى بلاد العالم الاسلامى ، وان كان غير مدون ، وكل ما نريده ، على حد قول العلامة أبو الأعلى المودودى ، هو « أن نحول دستورا غير مدون (Unwritten Constitution) ، الىدستورمدون (Written Constitution)

فان الدستور الاسلامى ، شىء لم يعمل على تدوينه بعد » •
« وليس الدستور غير المدون ، بشىء غريب لم تعهده الدنيا ، فانه ما زالت جميع الدول فى العالم ، تجرى نظمها على الدساتير غير المدونة ، الى القرن الثامن عشر ، ولا تزال دولة كبيرة من دول العالم — بريطانيا — تجرى شئونها الى يومنا هذا ، من غير ما دستور مدون » (٣٤) •

على أن الدستور الاسلامى ، رغم أنه غير مدون ، يعتبر مدونا ، اذا قورن بالدستور الانجليزى ، الذى (تبتدع) نصوصه حسب الموقف ، مستوحاة من ضمائر القضاة والمحلفين ، وظروف الزمان

---

(٣٣) ارجع الى ص ٢٠ — ٢٢ من الكتاب •
(٣٤) أبو الأعلى المودودى : تدوين الدستور الاسلامى — الطبعة الثانية — دار الفكر (دمشق) ، ص ٣ ، ٤ •

والمكان ؛ بينما الدستور الاسلامى ، واضح الحدود والمعالم ، فالاسلام « لم يكتف بتنظيم العبادات ، وترك ما وراء ذلك لقيصر ، أو لغيره من الناس ، بل نظم المعاملات والعلاقات والحقوق والواجبات ، بين أفراد الأسرة ، وأفراد الأمة ، وبين الأمم المختلفة » (٣٥) ، وهذه التنظيمات ، تكون فى مجموعها ، اطار « النظرية السياسية فى الاسلام » (٣٦) ، على حد تعبير الدكتور حسين فوزى النجار ، التى لا يقف الثواب والعقاب فيها ، عند حد الحاكم ، المسئول عن تنفيذ (شرع الله) ، بل يتعديان ذلك الى الله سبحانه ، يوم القيامة ، أى أن الأمر يتعدى ذلك ، الى « مسئولية الانسان أمام الله مباشرة » (٣٧) .

ويرى الشهيد سيد قطب ، أن « الحكم الاسلامى » « يستمد » « عدالته ، أول ما يستمد ، من عدالة القانون ذاته » . « فأما عند التنفيذ ، فقد ناط الاسلام ذلك ، بوضوح القانون ، وبضمير القاضى ، ورقابة الجماعة . وكل فرد فى الجماعة الاسلامية ، منوط به هذه الرقابة ، منوط به أن يدفع الظلم حين يقع ، وأن ينبه الحاكم حين يطغى ، والقاضى حين يخطىء » (٣٨) .

وهكذا ، نجد الدستور الاسلامى (يفرض) نفسه من خلال أمرين ، أولهما ، هو « التوجيه الذى يوجد فى المسلم تقوى من الله ، تدفعه الى مراقبته وخشيته ، وقيامه بالعمل طواعية واختيارا ، لا يشعر الا برقابة الله ، ولا يبالى الا بأمر الله ، ومن هنا لا يشعر المسلم بغضاضة ، من تنفيذ القانون » (٣٩) — « وثانيهما — العقوبات ، التى وضعها لمن خالف الأوامر الاسلامية ، وهذه لا يلجأ اليها الا بعد اثبات الذنب ، بصورة لا تحتمل الشك ولا الشبهة ، فاذا لم تثبت كذلك ،

---

(٣٥) عبد الرحمن عزام (مرجع سابق) ، ص ٣٩ .
(٣٦) الدكتور حسين فوزى النجار (مرجع سابق) ، ص ٧٦ .
(٣٧) المرجع السابق ، ص ٩٢ .
(٣٨) سيد قطب : السلام العالمى والاسلام — الطبعة السادسة — دار الشروق — ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م . ص ١٢٦ ، ١٢٧ .
(٣٩) الدكتور عبد العزيز الخياط (مرجع سابق) ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

لم توقع العقوبة » (٤٠) .

والتاريخ الاسلامى الطويل ، يشهد على حالات كثيرة ، كان (الواقع فى الخطأ) فيها ، يعرض نفسه ، لينال عقابه ، فيخفف عنه من عقاب الله يوم القيامة .. وقصة الفتاة الزانية ، التى تابت توبة ، (لو وزعت على أهل الأرض جميعا لكفتهم) ، على حد تعبير الرسول الكريم لعمر — هنا ، قصة معروفة ، وهى من القصص ، التى يحب خطباء المساجد ، ترديدها كثيرا ، فى خطب الجمعة .

أى أن (ربانية) الدستور الاسلامى ، هى التى تكتب لهذا الدستور (الحياة) فى المجتمع الاسلامى ، سواء كان هذا الدستور مكتوبا ، أو غير مكتوب ، فان « الشعب لا يحترم القوانين ، التى وضعها الأشخاص ، بأكثر مما يحترم الأشخاص الذين وضعوها . كما أن القوانين التى تعبر عن ارادة الأشخاص ، سوف تتحطم بلا هوادة ولا رحمة ، على أيدى أشخاص آخرين ، تتعارض مصالحهم — فى معركة صراع المصالح — مع مصالح واضعى القوانين » .

« وهكذا يتولد عن الايمان الكامل ، بأن القوانين لا يضعها الا الأشخاص ، عدم الاكتراث ، والاضطراب ، وافلات الزمام » (٤١) — على حد تعبير الفيلسوف الأمريكى فيليب فينكس .

ومن هنا كانت قوة (الدستور الاسلامى) ، مقارنة بأى دستور آخر ، من صنع البشر : أن (صاحب السيادة) فيه ، هو الله سبحانه ، ومن ثم كان ساريا على الحاكم سريانه على المحكوم ، لأنه « شرعه الله ، اله الجميع ، ومالك الجميع ، لمصلحة الجميع ، والخضوع له خضوع لله ، لا لعبد من عباده ، والضمانات فيه للجميع ، لأنه مشروع للجميع .

---

(٤٠) المرجع السابق ، ص ٥٨ — ٦٠ .
(٤١) فيليب هـ. فينكس : التربية والصالح العام (مرجع سابق) . ص ٢٦٣ .

وتلك ميزة قيام الدولة ، على شريعة الله وقانونه » (٤٢) ٠

ولم يستثن من هذه القاعدة ـ قاعدة الخضوع لشرع الله ـ حتى صاحب الرسالة ذاته ، صلى الله عليه وسلم ، فهــا هو يقول لفاطمة بنته ، رضى الله عنهــا (يا فاطمة بنت محمد ، لا أغنى عنك من الله شيئا) مرة ، ويقول عنها مرة أخرى (والله لو سرقت فاطمة بنت محمد ، لقطعت يدها) ٠ وقوله لها وعنها ، مستوحى ـ ولا شك ـ من روح الاســلام ، الذى يقول كتابه الكريم ، موجهــا خطابه اليه صلى الله عليــه وسلم :

ـ « ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك : لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين » (٤٣) ٠

ويدل هــذا (التحذير) ، حتى للمصطفين من خلق الله ، وعلى رأسهم زعيمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، على أن الاسلام « دين لا يعتمد على شخصــية مؤسسه ، بل على اللــه ذاته ، وليس النبى ســوى السبيل ، الذى بواسطته تلقى البشر رســالة تتعلق بطبيعة المطلق ، وبالتالى بطبيعة النبى ، رسالة تحتوى عقيدة وطريقة ، وعليه فان الله ذاته ، هو الحقيقة الأساسية فى الدين » ، ومن ثم فانه « وفقا للنظرة الاسلامية ، نؤثر أن نسمى الدين الاسلامى ، بـ (الالهى) ، اذا اقتضى الأمر ، لأن هــذه التسمية ، أفضــل من تسميته بالدين المحمــدى » (٤٤) ٠

ووفق هذا (التحذير) ، لا نجد داعيا « لطائفة خاصة ، تأخذ لنفسها الحق ، دون غيرها ، فى الرأى فى دين الله ، وقــد لا تعرفه أو تتعرفه ٠٠ وتتزيى بزى خاص ، يضفى عليها لونا من القداسة ، للخداع ، وليس للتعبير عن واقع » ، و « ان الاجماع فى الاسلام

(٤٢) ســيد قطب : الســلام العالمى والاســلام (مرجع سابق) ، ص ٦٢ ، ٦٣ ٠

(٤٣) قــرآن كريم : الزمر ـ ٣٩ : ٦٥ ٠

(٤٤) الدكتور سيد حسين نصر (مرجع سابق) ، ص ١٣ ٠

كان دليلا فقهيا ، وليس سلطة تمارس ، وتفرض الطاعة ، وكانت مرتبته فى الدلالة ، تأتى بعد كتاب الله ، وسنة رسوله .. وان أئمة الفقهاء فى الاسلام ، لم تكن حرفتهم الفقه ، واستنباط الأحكام ، بل كان مصدر رزقهم فى معيشتهم ، تجارة ، أو حرفة أخرى » (٤٥) .

وهكذا ، لم تكن دولة الاسلام دولة ثيوقراطية ، تستمد سلطانها من (حق الهى مقدس) ، وانما كانت دولة دينية ، تنفذ شرع الله ، على نفسها وعلى الناس ، وتخطىء وتصيب ، فان أصابت وجدت العون والتأييد ، وان أخطأت ، وجدت من يصحح لها مسارها ، ويضعها على طريق الشريعة .. الغراء .

ومن ثم يرى الشهيد سيد قطب ، أنه « ليس المجتمع الاسلامى ، هو الذى صنع الشريعة ، انما الشريعة ، هى التى صنعت المجتمع الاسلامى ، هى التى حددت سماته ومقوماته ، وهى التى وجهته وطورته ، ولم تكن الشريعة مجرد استجابة للحاجات المحلية الموقوتة — كما هو الشأن فى التشريعات الأرضية — انما كانت منهاجا الهيا ، لتطوير البشرية كلها ، وصياغتها صياغة معينة ، ودفعها الى أوضاع ، يتم بها تحقيق المجتمع الاسلامى المنشود » (٤٦) .

ورغم أن الشريعة الاسلامية ، الهية المصدر ، فانها — من خلال مصادرها — قادرة على الاستجابة لظروف الزمان والمكان ، حيث نجد « الفقه الاسلامى من صنع البشر ، استمدوه من فهمهم وتفسيرهم وتطبيقهم للشريعة ، فى ظروف خاصة ، وتلبية لحاجات خاصة ، واستيحاء لأوضاع جيلهم الذى عاشوا فيه » (٤٧) .

---

(٤٥) الدكتور محمد البهى : الفكر الاسلامى ، والمجتمع المعاصر (مشكلات الحكم والتوجيه) (مرجع سابق) ، ص ٤٤٢ ، ٤٤٣ .

(٤٦) سيد قطب : نحو مجتمع اسلامى — الطبعة الثانية — دار الشروق — ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م ، ص ٦٤ .

(٤٧) المرجع السابق ، ص ٥٠ .

وهكذا يكون للدستور الاسلامى ، مصدر أساسى واحد ، هو (القرآن الكريم) فان « القرآن هو قانون الاسلام ، والسنة هى تطبيقه ، والمسلم مكلف باحترام هذا التطبيق ، تكليفه باحترام القانون نفسه » (٤٨) • ومن ثم كانت وجهة النظر ، التى ترى لهذا الدستور مصدرين أساسيين ، هما « القرآن الكريم ، وسنة رسول الله ، وحدهما » (٤٩) — وجهة نظر صحيحة أيضا •

و « السنة أعم من الحديث النبوى ، لأنها تشمل الفعل والقول والتقرير ، والحديث مقصور على القول » (٥٠) •

وبعد القرآن الكريم ، الذى شرحت آياته و « فسرت ووسعت فيما بعد ، من خلال الحديث الشريف ، والسنة الشريفة ، اللذين هما المصدر الثانى للشرع » ، يأتى « المصدر الثالث ، وهو الاجماع ، ثم جاء القياس ، الذى لا يرجع اليه ، الا عند الحاجة » (٥١) ، والذى يسمى أحيانا « الاجتهاد ، أو الرأى » (٥٢) •

على أننا يجب أن نذكر هنا ، أن الاجماع — المصدر الثالث للشرع الاسلامى ، والقياس ، أو الاجتهاد أو الرأى — المصدر الرابع له ، انما يتمان فى ضوء القرآن الكريم — أصل التشريع الاسلامى ، والحديث الشريف — تطبيقه وشرحه وتفسيره ، لا بعيدا عنهما ، اذ « ليس القرآن والسنة مصدرين للدين ، بالمعنى الحصرى ، وحسب ، وانما هما كذلك مصدران للثقافة ، بالمعنى الواسع للكلمة ، ومقياسان لصحة الفكر • وهذا يعنى ، أن كل ما يأتى بعدهما ، انما هو تفريع منهما ، أو بناء عليهما ، أو استمداد منهما • واذا كان للعقل دور ،

---

(٤٨) محمد الغزالى : فقه السيرة — مطابع على بن على — الدوحة — قطر ، ص ٣٧ •

(٤٩) سيد قطب : نحو مجتمع اسلامى (المرجع الأسبق) ، ص ٥١ •

(٥٠) أدونيس : الثابت والمتحول ، بحث فى الاتباع والابداع عند العرب — ٢ (تأصيل الأصول) — الطبعة الثانية — دار العودة — بيروت — ١٩٧٩ ، ص ١٣١ •

(٥١) الدكتور سيد حسين نصر (مرجع سابق) ، ص ٩٤ •

(٥٢) أدونيس : الثابت والمتحول ، بحث فى الاتباع والابداع عند العرب — ٢ (تأصيل الأصول) (المرجع الأسبق) ، ص ١٢٨ •

فى هـذا الأمر ، فهو الانطلاق أولا من التسليم بالقـرآن والسنة ، تسليما مطلقـا ، وهو ، ثانيـا ، التعرف الى مقاصـدهما ، الظاهرة المباشرة ، والتعرف من ثم ، بدءا من هذا الظاهر ، الى ما وراءهما • وهو ثالثا ، استنباط الأحكام ، التى ورد نص فيها • فالعقل آلة لفهم المعطى وشرحه » (٥٣) •

ومن ثم فان الدستور الاسلامى ، يمكن أن ندخل ضمنه ، « كثيراً من أمور دنيانا ، ننظمها حسبما تهدينا اليه عقولنا ، فى اطار مقاصـد عامة ، وغايات حددها لنا سبحانه وتعالى ، وأمرنا بتحقيقها ، بشرط ألا نحل حراما ، أو نحرم حلالا » — ومن أمثلتها « الأنظمة — التى قـد تتخذ شكل قرار أو لائحـة أو قانون ، تقتضيه الحاجة ، تنفيذاً لنصوص وردت بضرورة تحقيق مقاصد عامة • ومن هذا القبيل ، قوانين تنظيم الشورى » ، « وأيضا قوانين تنظيم المرور فى الشوارع العامة ، وقوانين الوقاية الصحية ، وقوانين مقاومة الآفات الزراعية ، وتنظيم استعمال مياه الرى ، وقوانين التعليم ، وقوانين تنظيم المهن المختلفة ، كالطب والهندسة والصيدلة ، وتحديد الشروط ، التى يجب أن تتوافر فيمن يزاولها » (٥٤) — الخ •

سياسة دولة الاسـلام :

يحلو للكثير من المستشرقين ، أن يبحثوا عن (جذور عربيـة) لنظام الحكم فى الاسلام ، وهم حينما يفعلون ذلك ، لا يفعلونه وهم حسنو النية على الأرجح ، وانما هدفهم منه ، هو أن يثبتوا أن الاسلام لم يأت بجديد ، تماما كما يفعلون حين يدعون أن عقيدته لا تعدو أن تكون (توليفة) ذكية ، مسيحية / يهودية •

---

(٥٣) المرجع السابق ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ •
(٥٤) الأستاذ حسن اسماعيل الهضيبى : دعاة ، لا قضاة (أبحـاث فى العقيدة الاسلامية ، ومنهج الدعوة الى الله) — رقم (١) من (كتـاب الدعوة) — دار الطباعة والنشر الاسلامية — ١٩٧٧ ، ص ٧٣ •

ولكن الاســلام بعيد عن العروبة التى كانت (سائدة) قبله فى الجزيرة العربية ، بعده عن المسيحية / اليهودية ، التى كانت موجودة فى الجزيرة العربية وخارجها •

ويرى المرحوم عباس العقاد ، أن « الجزيرة العربية عرفت حرية البداوة على أتمهــا ، قبل الاسلام ، ولكنها الحرية التى لا تصدر عن مبــدأ ، ولا فكرة ، ولا عن تعريفات الحقوق الانسانية ، وهى حرية واقعية ، غير الحرية الديمقراطية » ، كما « أن الجزيرة العربية عرفت قبل الاســلام ضروبا من الطغيان والاستبداد ، لا تقــل عن ضروبه المشهورة ، التى عرفت فى الشعوب الأخرى » (٥٥) •

ومن ثم فالقول بتأثير العــرب الجاهليين ، فى نظــام الحكم فى الاســلام ، قول لا يقــوم على أساس ، رغم أنهم « كانت لهم فى السياسة والنظم الحكومية خبرة ، لا يستخف بها من ينفذ الى بواطنها ، فهى لا تبلغ أن تكون فلسفة مشروحة ، ومذاهب مفصلة ، على مثال النظم العصرية ، ولكنها كذلك لا تنزل الى الفوضى ، ولا الى الغريزة الهمجية ، التى لا مساك لها ، ولا تدبير فيها » (٥٦) •

والثابت أنه « لم تظهر حكومة عربية بالمعنى الصحيح ، الا عندما جمع الرسول الكريم ، قبائل العرب ، تحت راية الاسلام • وهنــا وجــدت تلك الرابطة الوثيقة ، بين الدين والدولة ، لا خلال مراحل التاريخ العربى فحسب ، بل فى تاريخ سائر الشعوب ، التى اعتنقت الاســلام » •

« وكان اعتناق القبائل العربية للاسلام ، معناه خضوعها لسلطة نبى الاسلام ، وهى سلطة ادارية وتشريعية ، وقضائية معا • على أن هذه السلطة لم تكن تسلطا ، وقد حث القرآن على الشورى ، وكان

---

(٥٥) عباس محمود العقاد : **الديمقراطية فى الاسلام** — دار المعارف بمصر — ١٩٧١ ؛ ص ٢٨ ، ٢٩ •

(٥٦) عباس محمود العقاد : **عبقرية خالد** — دار الهلال ، ص ١٦ •

الرسول يستمع الى آراء أصحابه ، وربما أخذ بمشورتهم ، وعدل عن رأيه ، فى أمور هامة ، كما حدث فى قصة تأبير النخل » (٥٧) .

« وعندما أصبح نظام الحكم ملكيا وراثيا فى العصور التالية ، وأعلن (حق الملوك المقدس) ، بطريقة أو بأخرى ، استمرت البيعة معمولا بها ، فى تولية الخلفاء » (٥٨) ، وظل الحكم قائما على أساسه الأول ، الذى وضع فى عهد النبوة ، وهو أنه « لا يتمتع الحاكم بسلطان مطلق ، فسلطانه قائم على اتباع القرآن والسنة » ، وعلى « تقويم الحاكم اذا أخطأ » ، وعلى « محافظة الحكومة على حقوق الأفراد » (٥٩) .

ومن هذا الأساس الأول ، الذى قامت عليه سياسة الدولة فى الاسلام ، نجد أن سياسة الدولة فى الاسلام ، « تعنى تدبير شئونها ، فى مختلف الميادين ، وعلى جميع المستويات » ، وأن هذا التدبير ، « خاضع للدين ، مستمد من العقيدة ، قائم على حكم الشرع » (٦٠) .

ويرى الشهيد عبد القادر عودة ، أن « الأحكام التى جاء بها الاسلام على نوعين : أحكام يراد بها اقامة الدين ، وهذه تشمل أحكام العقائد والعبادات ، وأحكام يراد بها تنظيم الدولة ، وتنظيم علاقات الأفراد والجماعات ، بعضهم ببعض ، وهذه تشمل أحكام المعاملات ، والعقوبات ، والأحوال الشخصية والدستورية والدولية .. الخ ، فالاسلام يمزج بين الدين والدنيا ، وبين المسجد والدولة » . « وكما

---

(٥٧) الدكتور شكرى محمد عياد (مرجع سابق) ، ص ٣٧ ، ٣٨ .
(٥٨) المرجع السابق ، ص ٥١ .
(٥٩) المرجع السابق ، ص ٥٢ ، ٥٣ .
(٦٠) يوسف العظم : فصل الدين عن الدولة ، ضلالة مستوردة — اتحاد طلاب جامعة القاهرة (الجماعة الاسلامية) — مطبعة جامعة القاهرة — ١٩٧٧ ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

أن الدين جزء من الاسلام ، فالحكومة جزؤه الثاني ، بل هى الجــزء الأهم ، وصدق عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، حيث يقول : (ان الله ليزع بالسلطان ، ما لا يزع بالقرآن » (٦١) •

ولم يكن غريبا ، أن تكون وظيفة الدولة الأساسية فى الاسلام ، عنـــد الدكتور فهمى جدعان ، هى تحقيق (وحدانية اللـــه) ، بحيث لا يكون « اعتقادا نظريا ، عاطلا عن أى أثر شخصى ، وانما هو ذو (وظيفة اجتماعية) جذرية ، هى تحرير الانسان ، من الخضوع لأى اله آخر ، غير الله • وحين ننقل هذا القول ، الى المنطقة المجتمعية ، نقول ان هذا التحرير ، يعنى تحرير الانسان والمجتمع ، من كل سلطة طاغية ، تتحكم فيه ، على أساس الاستبداد أو الشهوة أو الاستغلال ، أو خرق أسس المســاواة بين الحاكم والمحكوم » ، « أى باسقاط كافة أشكال السلطة والسيطرة ، التى من شأنها الغاء الحرية » • « وقد كان من الطبيعى ، أن يتمثل هذا الجهاز ، فى (الدولة) ، أو فى (السلطة الحاكمة) ، التى يناط بها تسيير المجتمع ، بمقتضى الأمر والتشريع الالهيين » (٦٢)•

ولم يكن غريبا — أيضا — أن تسمى السياسة Politics ، عند مفكرى المسلمين ، باســم (التدبير) ، الذى يرى الشيخ الرئيس ، ابن سينا (٣٧٠ — ٤٢٨ هـ = ٩٨٠ — ١٠٣٦ م) ، بشأنه ، أن « أحق الناس وأولاهم ، بتأمل ما يجرى عليه تدبير العــالم ، من الحكمة ، وحسن واتقان السياسة ، واحكام التدبير ، الملوك ، الذين جعل الله تعالى ذكره ، بأيديهم أزمة العباد ، وملكهم تدبير البلاد ، واسترعاهم أمر البرية ، وفوض اليهم سياسة الرعية » (٦٣) •

---

(٦١) الشهيد عبد القادر عودة : الاسلام ، بين جهل ابنـائه ، وعجز علمائه — المختار الاســلامى ، للطبــاعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م ، ص ٨ •

(٦٢) الدكتور فهمى جدعان (مرجع سابق) ، ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ •

(٦٣) كتاب التــدبير ، لابن ســينا (٣٧٠ — ٤٢٨ هـ) — نشره الأب لويس معلوف اليسوعى — مجلة المشرق — السنة التاسعة — العــدد ٢١ (سنة ١٩٠٦) ، ص ٩٧٠ •

ومسألة (التفويض) تلك ، هى التى جعلت البعض يرى نظـام الحكم فى الاسلام « ديموقراطيا ، بالمعنى الذى يفهمه العـربى من الألفاظ ، التى ترادف هذه الكلمة ، فى لغة ذلك العصر » ، « فقد كان الناس يجتمعون ، ويختارون خليفتهم ، ثم يبايعونه ، ولم يكن هؤلاء الخلفاء ، يتولون السلطة التشريعية ، لأن هـذه السـلطة كانت متروكة الى القضاة » ، « وكان القضاة يستمدون قضاءهم ، من القـرآن ، ومن السنة ، ومن الاجمـاع والقياس .. ثم كانت أحكامهم ، كما كانت فتاوى العلماء ، هى الأساس ، الذى يقوم عليه الفقه ، وتجرى على مقتضاه المعاملات ، بين الناس .

كان الخلفاء اذاً ، انمـا يتولون السلطة التنفيذية ، على حـد تعبيرنا ، فى النظـام الديموقراطى » ، وان « الذين بايعوا أبا بكر ، كان لهم حق محاسبته وتقويمه ، فان عصى ، كان لهم حق العصيان ، وبعبارة أخرى كان لهم حق عزله » (٦٤) .

غير أن بين (الشورى) الاسلامية ، و (الديموقراطية) الغربية ، فرقا جوهريا ، سوف نتبينه فى الجزء الأخير من الكتاب ، الذى يلى هـذا الفصل .

وكان منطقيا ، أن تكون هنـاك (شروط) ، يضـعها (فقهـاء المسلمين) ، فيمن يرونه (أهلا) لأن يختار (خليفة) للمسلمين ، بالمعنى الخاص للخلافة ، « بمعنى البقاء ، والقيام مقام الغير » (٦٥) ، على حد ما يراه العـلامة ، أبو الأعلى المودودى ، لا بمعناها العـام ، الذى ينطبق على الانسان المسلم فى عمومه ، حاكما كان أو محـكوما ، وأن يكون من هـذه الشروط ، « أن يكون عالمـا بالأحكام الشرعية ، عارفا بأمور السياسة وشؤون الحكم » ، و « أن يكون عادلا تقيـا عفيـفا بالغا عاقلا » ، و « أن يكون حسن الرأى والتدبير ، قويا على القيـام بأعباء الخلافة ، جريئا فى تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية ، لا يخاف

---

(٦٤) الدكتور محمد حسين هيكل (مرجع سابق) ، ص١٠٤ ، ١٠٥ .

(٦٥) أبو الأعلى المودودى : تفسـير سـورة النـور — رقم (٧) من (صوت الحق) — دار الجهاد ودار الاعتصام — ١٩٧٧ ، ص ٢١٨ .

فى الحق لومة لائـــم ، سليم الحواس والأعضـــاء ، مما يؤثر فى الرأى والعمـــل » (٦٦) .

واذا كان هذا (الخليفة) ، « ليس فوق القانون ، بل هو خادمه ، وليس سيد النـــاس ، بل قائدهم ، واذا كان من الممـــكن استجوابه ونقده » (٦٧) ، كان منطقيا أن تكون له (وظائف) محـــددة ، عليه أن يقوم بها ، يحصرها المـــاوردى فى سبعة ، « أحدها حفظ الدين ، من تبـــديل فيه ، والحث على العمل به ، من غير اهمال له ، والثانى حراسة البيضة ، والذود عن الأمة ، من عدو فى الدين ، أو باغى نفس أو مال ، والثالث عمارة البلدان ، باعتماد مصالحها ، وتهذيب سبلها ومسالكها ، والرابع تقـــدير ما يتولاه من الأموال ، بسنن الدين ، من غير تحـــريف فى أخذها واعطائها . والخامس ، معاناة المظالم والأحكام ، بالتسوية بين أهلها ، واعتماد النصفة فى فصلها — والسادس ، اقامة الحـــدود على مستحقها ، من غير تجاوز فيها ، ولا تقصير عنهـــا — والسابع ، اختيار خلفـــائه فى الأمور ، أن يكونوا من أهل الكفـــاية والأمانة فيها » (٦٨) .

ويمكن أن تتلخص هذه الوظائف ، فى أمرين أساسيين : « الأول : حراسة الدين ، والثانى : سياسة الدنيا » (٦٩) .

وفى مقابل هـــذه (المسئوليات) ، الملقاة على الخليفة ، لابد من (حقوق) تقابلها ، يلخصها الفقهاء فى حقـــين : « الأول : الطاعة ، والثانى : النصرة » (٧٠) .

(٦٦) الدكتور رشدي عليان : الاسلام والخلافة — الطبعة الأولى — مطبعة دار السلام — بغداد — ١٩٧٧ ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

(67) RADWAN, ABU AL - FUTOUH AHMAD : Old and New Forces in Egyptian Education, Proposals For the Re - construction of the Program of Egyptian Education, in the Light of Recent Cultural Trends; Bureau of Publications, Teachers College, Columbia University, New-York, 1951, p. 53.

(٦٨) أبو الحسن المـــاوردى : الاحكام السلطانية — مكتبة ومطبعـــة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر — ١٣٥٦ هـ ، ص ١٢٣ .

(٦٩) الدكتور رشدى عليان (مرجع سابق) ، ص ٦٧ .

(٧٠) المرجع السابق ، ص ٦٩ .

والمسلم أن يفخر بدولته

كتبت فصول هذا الكتاب ، فى الفترة الواقعة بين أغسطس ١٩٨٠ ، وديسمبر من نفس العام — أى فى الفترة التى تلت مباشرة ، عطلة الصيف ، وعيد الفطر المبارك الأخير من القرن الرابع عشر الهجرى •

وكانت معالم الكتاب قد خططت قبل عطلة الصيف تلك ، وكتب فصله الأول ، ثم عدت بعد العطلة أستأنف المسيرة ، فكان استئنافها صعبا ، وكان لابد من معايشة فكرة الكتاب مرة ثانية ، والتخطيط له من جديد ، وكتابة الفصل الأول من جديد أيضا ، بعد (تمزيق) ما كتبته ، بطبيعة الحال — وان كان ذلك كله قد تم ، بلا شك ، أيسر مما تم قبل العطلة ، وأسرع •

وفى هذه الفترة ، عايشت أحداثا دولية كثيرة ، متصلة بموضوع الكتاب ، من خلال ذلك الجهاز العجيب ، الذى ينقل الدنيا كلها الى حيث يجلس الانسان أو ينام — جهاز الراديو • وقد عايشتها ، لأن ما يجرى فى أى مكان على الأرض اليوم ، صار يهم كل انسان يعيش على الأرض ، ولأنى ربما كنت (أتميز) عن غيرى ، بأنى أعمل فى الجامعة ، وفى مجال (انسانى) ، هو مجال التربية ، مما يفرض على أن أعطى اهتماما أكبر ، لما يمس مجال تخصصى ، من قريب أو من بعيد ، والسياسة من بين هذه المجالات •

يضاف الى ذلك ، أن سلسلة (**الاسلام وتحديات العصر**) التى يعد هذا الكتاب ، كتابها الثانى عشر — تفرض على •• هذه المتابعة ، وتعتبر هذه المتابعة ، هى مصدر (الواقعية) التى يحس بها ، كل من يقرأ كتابا من من كتبها — كما قال لى كثير ممن قرءوا كتبها •

وكانت هذه الأحداث ، التى عايشتها — وعايشها غيرى — فى

هذه الفترة ، كثيرة — لعل أبرزها ، وأكثرها اتصالا بموضوع هـذا الكتاب : انتخابات الرئاسة الأمريكية ، وطرح الثقة بحكومة بيجين فى اسرائيل ، ومحاكمة الأربعة فى الصين ، والحرب العراقية / الايرانية .

وحول هـذه المحاور الأربعة ، يمكن توضيح ما يدور برأسى ، متصلا بهـذا الجزء الأخير من الكتاب الثانى عشر ، من كتب السلسلة.

واذا بدأنا **بالانتخابات الأمريكية** ، التى قذفت بجيمى كارتر من شـباك البيت الأبيض ، ليدخل الممثـل السابق ، رونالد ريجان ، من الباب ، فان المنصف ، لا يسعه الا أن يعبر عن (الاحترام) الشـديد للولايات المتحدة الأمريكية ، ولرئيسـها الذى أجريت الانتخابات فى عهـده (جيمى كارتر) ، ولرئيسها الذى فاز فى الانتخابات (رونالد ريجان) ، وللانسان الأمريكى العادى ، الذي (طـرد) جيمى كارتر من البيت الأبيض ، وأتى (برونالد ريجان) ، ليحل محله .

والاحترام للولايات المتحدة ، يعود الى طريقة الحياة الأمريكيـة American Way of Life التى يفخر بها كل أمريكى ، حاكمـا كان أو محكوما ، والتى يعود فخرهم بها ، الى أن محور هـذه الحياة ، هو الانسان الفرد ، ومن خلال هذا الانسان الفرد ، تتحدد السياسات ، وتتخـذ القـرارات ، على أعلى مستوى فى البلاد .

ولقد استطاعت الولايات المتحدة ، أن تكون أمة عظمى ، فى الوقت الذى لا يزيد فيه عمرها عن ثلاثمائة عام على أحسن الفروض ، حيث بدأت الهجرات البيضاء اليها ، بمجرد اكتشافها .. سابقة بذلك أممـا أخرى ، تستقر على أرضها منـذ عدة آلاف من السنين — استطاعت الولايات المتحدة ذلك ، من خلال تلك الفردية ، التى حققتها لكل فرد من أبنائها ، فصار كل فرد ، يحس بأن الولايات المتحدة كلهـا ملكه ، ومن ثم فهى جديرة بالتضحية من أجلهـا ، شأنها فى ذلك ، شأن كل ما يملكه الانسان ، ملكية (خاصة) .

ولم يكن غريبا ، أن يكون (تمثال الحرية) ، هو الشعار ، الذى يتخـذه الأمريكيون ، ويحجون اليه ويفخرون به ، ويعزون اليـه ، ما حققوه من تقـدم علمى وتكنولوجى ، بل ومن بسط للنفوذ ، على أجزاء كبيرة من العـالم •• لهـا آلاف السنوات ، من الحيـاة على أرضها ، ولكثير منها حضاراتها القديمة ، التى لا تمـلك اليوم ، أكثر من •• المبـاهاة بها •

لقد كانت الحرية الفردية ، وكرامة الانسـان ، هى التى صنعت الولايات المتحدة الأمريكيـة ، وهى التى صنعت حضارتها ، وصنعت هيبتها ، ودفعتها الى مركز القيادة العالميـة •

وكانت هـذه الحرية الفردية ، وكرامة الانسان ، هى التى فتحت أبواب البيت الأبيض ، لجيمى كارتر ، وأغلقتها فى وجه جيرارد فورد ، ثم كانت هى التى أغلقت هـذه الأبواب ، فى هـذه الجولة الأخيرة ، فى وجـه الرئيس جيمى كارتر ، وفتحتها فى وجـه الممثـل السابق ، رونالد ريجان •

وعندما تفتح الولايات المتحـدة ، أبواب بيتها الأبيض ، لأحـد المرشحين لرئاستها ، فانها تفتحتها له ، لأنها تحس بأنه رجلها ، المعبر عن آمالها ، والمجسد لهـذه الآمال فى شخصه ، فى الفترة التاريخية ، التى تقع فيها انتخابات الرئاسة • وعندما تغلق هـذه الأبواب فى وجه أحد المرشحين للرئاسة ، فانها تغلقها فى وجهه ، لأنها تحس بأنه لايصلح لهـذه الظروف ، وان كان يصلح لظروف أخرى •

وليس كل شعب بقـادر على أن يفعل ما يفعـله شعب الولايات المتحدة ، لأن عمليـة دراسة شخصية الرجل ، وظـروف الأمة ••• عملية لا يقـدر عليها الا شعب نال حظا وافرا من التعليم ــ التعليم الجيد ، الذى (يخلق) الرجال ، لا ذلك التعليم الذى نراه فى بلادنا ، (يخنق) هؤلاء الرجال •

ومن ثم كان احترامى للولايات المتحدة وشعبها ، يعــود الى أن صوت (رجل الشارع) له قيمته ، وله وزنه ، وله احترامه ، فى اختيار قيادته السياسية ، وفيما تتخذه هــذه القيادة السياسية من قرارات ، بطبيعــة الحــال •

وهو ما لا نراه فى كثير من بلاد العالم المعاصر ، وخاصة فى عالمنا العربى ، والاسلامى ، الذى تفرض فيه القيادة السياسية نفسها بانقلاب عسكرى ، أو بانتخابات مزورة ، تكلف خزانة الدولة الملايين ، لتحقق آمال فرد واحد ، يغتصب السلطة اغتصابا •

وتغدو كل مواهب الشعب المسكين •• أن يجيد التصفيق والتهليل والتكبير ، للقيادة الملهمة ، التى فرضت نفسها عليه ، فأذلت كبرياءه ، ثم راحت تفرض قراراتهــا وانحرافاتهــا عليه بعــد ذلك ، فمحت شخصيته تماما •

ولم يكن غريبا ، أن يتحــول الشعب المسكين ، الى قطيع ، غير قادر على الابداع ، أو حتى على الانتاج ، وأن يطول الحديث فيه عن منجزات الآباء والأجداد ، فى غابر العصور ، بدلا من الحــديث عن منجزات اليوم ، كما يجب أن يكون الحديث •

أما الاحترام **لجيمى كارتر** ، فمرجعه ما تحلى به من مبادىء ، جعلته (خصــما شريفا) فى معركة الانتخابات ، فلم يفعــل ما تفعله قيادات سياسية كثيرة فى عالمنا المعاصر ، حين تزور الانتخابات ، فتعد نتائجهــا قبل أن تتم ، وتصل نتيجتهــا لصالحهــا ـــ لذلك ـــ الى ٩٩٫٩٩٩٪ فى بعض الأحيان • وكم كان معبرا عن هذه الحقيقة المرة ، ذلك الكاريكاتير الذى رسمته احدى صحف المعارضة فى مصر ، تعليقا على هذه الانتخابات ، ومغزاه أن الشعب الأمريكى لم يخذل جيمى كارتر ، وانما خذله وزير داخليته ـــ ووزير الداخلية هو المسئول عن عمليات الانتخاب فى مصر كما نعلم •

بل ان جيمى كارتر لم يسمح لنفسه حتى بمجرد (التصنت) على خصمه الانتخابى رونالد ريجان ، كما فعل ريتشارد نيكسون ، رئيس أمريكا الأسبق ، فيما عرف فيما بعد (بفضيحة ووترجيت) .

لقد كان جيمى كارتر ، رجل أخلاق ، قبل أن يكون رجل حكم ، ومن أجل ذلك كان واجبا على أن أقدم احترامى له ، بالرغم من أنه لم يقدم لى ولا لبلادى خيرا ، بل قدم لى ولها الشر كله ، فقد كان — كأى رئيس أمريكى أو غربى أو شرقى — صليبيا حاقدا ، لا يهمه الا تحطيم الاسلام والمسلمين ، ولكنه كان فى ذلك ، معبرا عن شعبه ، الذى ائتمنه على مصيره يوم اختاره ، فكان أمينا معه ، وان كان على النقيض من ذلك معى ومع بلادى ، ولا لوم عليه فى تصرفه نحوى ونحو بلادى ، لأننا لم نختره ، وانما اختاره شعبه ، الذى كان أمينا معه .. وكان شريفا ، حتى فى خصومته ، لمنافسه على رئاسة الولايات المتحدة .

وهذا (الشرف) الذى تحلى به جيمى كارتر ، مع منافسه على الرئاسة ، رونالد ريجان ، تحلى به بعده جيسكار ديستان فى فرنسا ، مع منافسه على الرئاسة ، فرانسوا ميتران ، رئيس فرنسا الحالى .

أما الاحترام **لرونالد ريجان** ، فمرجعه أنه استطاع فى مرحلة تاريخية معينة ، أن يكون هو المعبر عن آمال شعبه ، المجسد لهذه الآمال فى شخصه ، ومن خلال هذا التعبير والتجسيد وضع فيه شعبه ثقته ، ففتح له باب بيته الأبيض ، ليحله — فيه — محل جيمى كارتر ، الذى كان معبرا عن هذه الآمال ومجسدا لها منذ أربع سنوات ، ولكنه لم يعد معبرا عنها ومجسدا لها اليوم .

ويزيد من احترامى له ، ما نراه على الساحة الدولية ، من حوله ، ومن حول شعبه ، من انحصار مواهب رئيس الدولة ، فى أن يحتال على شعبه ، ليفرض نفسه عليه ، بطرق شتى ، كلها لا أخلاقية ، ثم تلفيق التهم بعد ذلك ، لأنصار الشرعية ، الذين قالوا (لا) للنصب السياسى ، وللاأخلاق ، مع تصعيد الطفيليين الى أعلى المراتب ، لأنه قالوا له

(نعم) ، لأنهم لا يعرفون غيرها ، مع كل من يتولى السلطة ، لأن همهم ينحصر فى مصلحتهم،أما مصلحة بلادهم،فهى آخر ما يفكرون فيه.

ولكن رونالد ريجان ، كان (أمينا) فى تعبيره عن نفسه ، وعن أفكاره وأحلامه لبلاده ، بالرغم من أن هذه الأفكار والأحلام ، كانت كفيلة باسقاطه ، لأنه مال فيها الى (العنف) ، الذى خوف الأعداء والأصدقاء على السواء ، وجعل مؤشرات الرأى العام واستطلاعاته ، تنحرف عنه فجأة ، لتنجرف نحوه فجأة أيضا ، فى عملية الانتخابات ، التى اكتسح فيها خصمه اكتساحا ، لفت الأنظار .

ومن أجل هذه (الصلابة) ، ووضوح الرؤية ، والشجاعة ، ثم موقفه — بعد الانتخابات — من خصمه جيمى كارتر ، الذى كان أول من هنأه بالنجاح الساحق ، حتى قبل أن تنتهى عملية الفرز فى كل الولايات — من أجل ذلك كله كان احترامى له واجبا .

وهو نفس الموقف ، الذى وقفه ميتران فى فرنسا ، من ديستان .

وأما عن **احترامى — اخيرا — للانسان الأمريكى** ، فهو جزء من احترامى للولايات المتحدة ، ولجيمى كارتر ، ولرونالد ريجان ، اذ أنه لولا الانسان الأمريكى ، ما كانت الولايات المتحدة جديرة باحترامى ، ولا كان جيمى كارتر أو رونالد ريجان ، جديرا بهذا الاحترام .

ولقد كان هذا الانسان الأمريكى ، هو الذى كون طريقة الحياة الأمريكية ، على أرضه ، يوم هاجر اليها ، وكان هو الذى شكل بيديه ، الخطوط العامة لهذه الطريقة فى الحياة ، وصمم على أن يفتديها ، ويناضل من أجلها .

وتاريخ الانسان الأمريكى ، هو هو تاريخ راعى البقر Cow—boy سواء كان راعى البقر هذا ، هو راعى البقر (التقليدى) المعروف ، بمسدسه ، ويقظته ، وعنفه ، واغتصابه فى بعض الأحيان ، أو كان راعى البقر العصرى : جيمس بوند ، أو ستيف أوستن ، أو ماشابه ذلك .

ولقد كنا نحن من بين صرعى راعى البقر هذا ، ولا نزال ، فهو الذى أفسد علينا بمسدسه حكوماتنا ، وهو الذى عكر علينا بأقدام حصانه ، أجواءنا ، ثم كان هو الذى نهب منا — بكل حيلة — مواردنا وخيرات أرضنا . ولكن اللوم لا يقع عليه ، بقدر ما يقع علينا ، فنحن نعيش فى غابة كبيرة ، لا مكان فيها لبقر يساق ، وانما المكان كله ، لهذا الراعى ... اليقظ .

فنحن المسئولون عما حاق بنا منه ، وليس هو المسئول — ولو أنه وجد فينا ما يستحق احترامه ، لاحترمه ، ولكنه — للأسف الشديد — لم يجـد .

والغريب ، أن هناك دراسات كثيرة ، ترى أن راعى البقر هذا ، قد نبذ وراءه فى وطنه الأم — أوربا ، منذ ثلاثة قرون ، نمط حياتها ، واتخذ لنفسه نمطا حياتيا جديدا ، يناسب (التربة) الجديدة ، وكان هذا النمط ، هو النمط .. الاسلامى .

ولسنا مع أصحاب هـذه الدراسات ، على طول الخط ، ولكننا لا نملك الا أن نكون معهم ، فى بعض ما يدعون .

انهم — مثلا — يرون أن « النظـام النيابى القائم فى أمريكا ، لا يعرف المسئولية الوزارية ، على الصورة المقررة فى النظم البرلمانية.. فاذا كان العرب لم يعرفوا المسئولية البرلمـانية هم الآخرون ، فقـد كان الحـاكم مسئولا أمام الرأى العام ، كمسئولية رئيس الولايات المتحدة الأمريكية » (١) .

ولم يكن غريبـا ، أن (يتطلع) المصلحون الاسـلاميون ، الى (نمط) الدولة الأمريكية ، ويروه النمط المنشـود للدولة الاسـلامية المرجوة ، وذلك منذ القرن المـاضى ، كما فعل الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥ — ١٩٣٥ م) ، المصلح السورى ، تلميذ الامام الشيخ محمد

---

(١) الدكتور محمد حسين هيكل (مرجع سابق) ، ص ١٠٦ .

عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥ م) ، وصاحب (المنار) — حين دعا الى الجامعة (أو الجمعيـة) الاسـلامية ، على أن يكون مقـرها مكة المكرمة ، « أما السلطان العثمـانى ، فيكون الرئيس الأعلى للمسلمين جميعا ، وذلك لأنه أقوى حكامهم ، وتكون الحكومات الاسـلامية المختلفة ، أعضاء فى اتحاد ، شبيه باتحاد الولايات المتحدة الأمريكية ، على أن يحكم كل أمير ، بمعاونة مجلس للشورى ، ويستمتع بالاستقلال ، فى أمور مملكته الداخلية ، بينما تكون هذه الولايات جميعا جبهة واحدة ، أمام عدوها ، وهذا هو المثل الأعلى لوحدة الاسلام » (٢) •

وكأنما أراد الشيخ رشيد رضا أن يقول : (انها بضاعتنا ، ردت الينا) ، غير ناس بطبيعة الحال ، أنه « لا توجد أية صلة ، بين مفهوم الشورى الاسلامى ، وبين مفهوم الديمقراطية الغربى » (٣) — على حد تعبير أنور الجندى — وغير ناس أيضـا ما يراه محمد أسد ، من أنه « لا يوجد (شكل واحـد) للدولة الاسلامية ، بل ان هنـاك أشكالا كثيرة » ، « شريطة أن يكون الشكل والنظـام ، اللذان يقع عليهمـا الاختيار ، متفقين تماما ، مع الأحكام الشرعية الظاهرة ، المتعلقة بتنظيم حياة المجتمع » (٤) •

ومن ثم تختلف الـدولة الاسـلامية ، عن الدولة فى الولايات المتحـدة ، اختلافا جوهريا ، برغم التشابه الظـاهرى ، الذى رآه البعض ، بينهما •

وأول أوجه الاختلاف بين نمط الدولة الاسلامى ، ونمط الدولة فى الولايات المتحدة ، هو (طريقة) اختيار رئيس الدولة •

ونقطة البدء فى اختيار رئيس الدولة ، فى الديموقراطية الغربية

---

(٢) الدكتور تشارلز آدمس : الاسـلام والتجـديد فى مصر — نقله : عباس محمود — قدم له : الأسـتاذ مصطفى عبد الرازق — لجنـة دائرة المعارف الاسلامية — ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٥ م ، ص ١٧٥ •

(٣) أنور الجنـدى : من التبعيـة الى الأصالة ، فى مجال التعليم والقانون واللغـة (مرجع سابق) ، ص ٧١ •

(٤) محمد أسد (مرجع سابق) ، ص ٥٥ •

عموما ، هو أن (يرشح) الراغب فى تولى المنصب ، نفسه ، حيث تبدأ عملية الانتخاب ، لاختيار من يراه الشعب ، أهلا لتولى المنصب .

أى أن من يريد أن يتولى الحكم ، عليه أن (يعرض) نفسه على الناس ، فيختاروه أو يرفضوه .

وهذا هو سر تلك (الحملة الانتخابية) الضخمة ، التى تشهدها البلاد الديموقراطية فى الغرب ، كلما أرادوا انتخاب حكومة جديدة ، أو حاكم جديد — وهو ما يحــدث فى الولايات المتحــدة الأمريكية — كل أربع سنوات ، تشل فيــه الحياة الأمريكية تماما .. فى (عــام الانتخابات) ، على حد ما يسمونه .

وتتطلب عملية (عرض النفس) تلك ، حمــلة اعلامية ضخمة ، يعد لهــا كل مرشح للرئاسة ، جيشا ضخما ، (يحارب) له فى جميع الولايات ، ويكلفه أموالا طائلة ، تعدت مائة المليون من الدولارات ، بالنسبة لأحد المرشحين ، فى الانتخابات الأمريكية الأخيرة .

ولمــا كانت هذه الحملة ، تتكلف فوق طاقة المرشح المــالية ، فان الحمــلة الانتخابية تصاحبها (حملة تبرعات) ضخمة ، من أنصــار كل مرشح .

ومعنى ذلك ، أن رئيس الدولة ، يتولى السلطة ، وهو (مدين) لفئة قليلة من القادرين ، ساهمت فى (انجاحه) ، وسهلت له الوصول الى السلطة ، أو مكنته من هــذا الوصول اليها — ومعناه أن سياسة الدولة لابد أن تسير ، لصالح هذه الفئة القليلة ، على حساب الكثرة الكاثــرة .

ولعل ذلك ، هو سر ما منح للكونجرس (البرلمــان) الأمريكى من صلاحيات ، على حساب الرئيس ، تحد من (قدرته) على اتخاذ القــرار .

واذا تذكرنا أن أعضاء الكونجرس وأعضاء مجلس الشيوخ ، قد وصلوا الى مراكزهم كممثلين لشعوب الولايات ، بنفس الطريقة التى

وصل بها رئيس الولايات المتحدة ، أدركنا أن الصلاحيات التى تعطى للأعضاء ، ليست بالضرورة لصالح الشعب ، وانما لصالح الفئات القادرة ، التى وصلت بهؤلاء الى المجالس ، من خلال •• ما تبرعت به من أموال ، فى الحملة الانتخابية لكل مرشح •

ولم يكن غريبا ، أن تتسرب الرشوة والمحسوبية والفساد بمختلف أنواعه ، الى الحياة السياسية فى الغرب ، وعلى رأسه الولايات المتحدة •• باسم الديموقراطية ، وحكم الشعب •

والبون شاسع بين هذا الأسلوب من أساليب (اختيار) رئيس الدولة ، وبين الأسلوب الاسلامى ، برغم التشابه (الظاهرى) بين (الأسلوبين) •

فالحاكم فى الاسلام ، لا (يعرض نفسه) ، على هذا النحو المخزى ، الذى نراه فى الديموقراطية الغربية ، بل ان ((عرض النفس) هذا يعتبر — فى الاسلام — حائلا بين الراغب فى السلطة ، وبين تولى ما يريد من سلطة ، فان « طالب الرياسة ، والعلو فى الأرض ، قلبه رقيق لمن يعينه عليها ، ولو كان فى الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم ، فهو فى الحقيقة يرجوهم ويخافهم ، فيبذل لهم الأموال والولايات ، ويعفو عما يجترحونه ، ليطيعوه ويعينوه ، فهو فى الظاهر رئيس مطاع ، وفى الحقيقة ، عبد مطيع لهم » (٥) •

وهذا هو ((مقتل) الديموقراطية الغربية ، كما تبينه الغربيون ، بعد أن أفسدت حياتهم السياسية ، وهو مقتل لا وجود له فى الاسلام ، لأن ترشيح رئيس الدولة فى الاسلام ، يتم من خلال ((تزكية الغير) من أهل (الحل والعقد) ، لهذا المنصب ، و (دفعهم) القادر على تحمل تبعاته اليه دفعا ، وطرح الأمر على الرأى العام ، بعد ذلك ، لتتم له (البيعة) به ، والا فلا (بيعة) •

---

(٥) العبودية ، لشيخ الاسلام ابن تيمية (٦٦١ — ٧٢٨ هـ) — مطبعة المدنى بالقاهرة — ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م ، ص ٤٨ ، ٤٩ •

وهكذا يتميز الاسلام فى مسألة رئاسة الدولة تلك ، حيث نرى الاسلام فيها « يخاطب العقل ، ويناشد الصفوة ، ويضع أهل العلم وقادة الثقافة ، فى مقدمة العربة الاجتماعية » ، « ويندب هذه الصفوة المنتخبة ، للقيادة والريادة » (٦) ، « فالعوام ينتخبون حكامهم ، ولكن لا يحكمون ٠٠ لأن الدهماء اذا حكموا ، حكمت الشهوات والأهواء » (٧) ٠

وتاريخ الانسان الطويل ، ومواقفه المختلفة من الأحداث ، هى الكفيلة وحدها (بترشيحه) ، والدفع به الى موقع القيادة ، فى المجتمع الاسلامى ، كما رأينا بوضوح ، فى انتخاب الخلفاء الأربعة ، رضى الله عنهم ، ومن ثم يكون منطقيا ، ألا تحدد رئاسة الدولة ، بفترة زمنية معينة ، تجعل رئيسها (تحت رحمة) الغوغاء وقوى الضغط ، دوما ، وانما تكون هـذه الرئاسة — الخلافة — مدى الحياة ٠ وبذلك نجد « أن نظام الخلافة ، جامع لمحاسن الحكم الجمهورى ، لقيامه على الانتخاب ، والحكم الملكى ، لما فيه من ثبات واستقرار » (٨) ٠

وبالرغم من هذا (الثبات والاستقرار) فى الحكم الاسلامى ، فان (الاستبداد) مغلق فى وجه الحاكم المسلم ، ان هو أراده ، لأن الحاكم المسلم ، ليس (مطلق اليد) فيما يفعل ، وانما هو (مقيد) بالقرآن الكريم — دستور الأمة ، وبالشورى ؛ حيث « تقع تبعات الحكم على الأمة كلها ، بجميع عناصرها » (٩) ، لا على مجموعة قليلة ، تحيط بالحاكم ، وتعزله عن شعبه ، يصفهم ابن سينا ، بأنهم «قرناء السوء» ؛ و « جلساء السوء » ، الذين يغشون الحكام « بالثناء الكاذب » ،

---

(٦) مصطفى محمود : لماذا رفضت الماركسية (مرجع سابق) ، ص ٣٥ ٠

(٧) مصطفى محمود : الماركسية والاسلام (مرجع سابق) ، ص ٢٢ ٠

(٨) هـ. أ. ر. جب وآخرون : وجهة الاسلام ، نظرة فى الحركات الحديثة فى العالم الاسلامى (مرجع سابق) ، ص ٢٢٥ (من الهامش) ٠

(٩) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية (مرجع سابق) ، ص ٣١ ٠

و « بالتقريظ الباطل »[١٠] .

وليست قولة عمر لامرأة عارضته فى المسجد (أصابت امرأة وأخطأ عمر) ، بالغريبة علينا هنا ، وليست قولته لرجل فى المسجد أيضا (لا خير فيكم اذا لم تقولوها ، ولا خير فينا ، اذا لم نقبلها منكم) ، بالغريبة علينا أيضا .

وهكذا « ينفرد الاسلام فى نظرته للحكم ، بتصور خاص ، يميزه بوضوح ، عن كل من الديمقراطية والثيوقراطية ، فعلى حين تنطلق الديمقراطية من مبدأ أن الأمة مصدر السلطات » ، « تنطلق الثيوقراطية من مبدأ أن الحاكم ظل الله فى الأرض ، وخليفته على خلقه » .

« أما فى الاسلام ، فالحكم أو السيادة أو الحاكمية » ، « أصلا » لله ، وأن الناس مستخلفون عن الله فى عمارة الكون ، واقامة شريعة الله ، وأن عليهم ، تنظيما لأمورهم ، أن يتخذوا من بينهم ، أميرا أو خليفة عليهم » . وهكذا يقيم الاسلام « دولة القانون State of Law ، حيث السلطة العليا فيها للشريعة ، فمنها يستمد كل من الأمة والحاكم ، سلطته المحدودة ، واليها يرجع — عند الاختلاف — لمعرفة مدى تجاوز كل لسلطاته ، وعلى أساس هذا المفهوم ، يقوم مبدأ الشرعية ، ومبدأ سيادة القانون ومبدأ الرقابة الدستورية العليا »[١١] .

فللمسلم أن يفخر بدولته ، التى تعد (الدولة) الغربية المعاصرة ، رغم افتتان الناس بها هنا ، وافتخارهم بها هناك .. (رجعية) متخلفة بالنسبة لها .

---

(١٠) كتاب التدبير ، لابن سينا (مرجع سابق) ، ص ٣٨ ، ١٠ .

(١١) الدكتور جمال الدين عطية : « كلمة التحرير » — المسلم المعاصر — فصلية فكرية ، تعالج شؤون الحياة المعاصرة ، فى ضوء الشريعة الاسلامية — العدد العاشر — ابريل — مايو — يونيو ١٩٧٧ ، ص ٥ ، ٦ .

وليس لنا أن نبحث عن هذه الدولة الاسلامية ، التى يحق للمسلم أن يفخر بهـا اليوم ، فى عالمنا الاسلامى المعاصر ، لأن هـذا العالم لا ينتسب الى الاسلام الا بالاسم وحده ، وحقيقة أمره ، أن الحرب على الاسلام فيه ، أعنف من أية حرب يشنها أعـداء الاسلام عليه ، فى خارج الحدود ، وأن هـذه الحرب ، يقوم بها منتسبون للاسلام — وانما نبحث عنها عبر التاريخ الاسلامى الطويل ، قبل أن يسدل الظلام أستاره على المسلمين ، بعد أن حصروا الاسلام فى ركن ضيق من أركان الحيـاة ، وعطلوه عن أن يعمل فى حياتهم ، وينقلهم مما يعيشونه من هوان ، الى واحته الفسيحة الغناء .

* * *

وما يقـال عن دواعى الاحترام ، فى انتخـابات الرئاسـة الأمريكية (١٢) ، يمكن أن يقال عن (الحدث) الثانى ، الذى رأينـاه فى مطلع هذا الحديث ، قد (عايش) كتابة هذا الكتاب ، وهذا الحدث ، هو طرح الثقة بحكومة بيجين فى اسرائيل ، فى أخريات عام ١٩٨٠ (١٣).

ومنـاحم بيجين ، الذى طرحت بحكومته الثقـة فى الكنيست الاسرائيلى (برلمـان اسرائيل) ، فى أخريات عام ١٩٨٠ ، يهودى . وتاريخ اليهود الاجرامى ، عبر عصور تاريخهم الطويل ، معروف لدى الجميع ، ومن أجله كان ما لاقوه من اضطهاد ، فى مصر ، وفى بابل ، وفى أوربا الحديثة ذاتهـا .

و (يتميز) مناحم بيجين على اليهود جميعا ، فى أنه — كما أظهر تاريخه ابان تأسيس الدولة اليهودية فى فلسطين سنة ١٩٤٨ — من أكثر اليهود المجرمين اجراما .. فهو لا يتورع عن عمل شىء .

وقد كان اجرامه هذا ، هو الذى دفـع الشعب الاسرائيلى الى اختياره فى الانتخـابات التى تلت حـرب رمضان ١٩٧٣ ، وما لحق اسرائيل فيها — وبسببها — من هوان ، لأول مرة فى تاريخها .

---

(١٢) ارجع الى ص ١٤٠ — ١٤٦ من الكتاب .
(١٣) ارجع الى ص ١٤٠ من الكتاب .

تماما كما كان هوان الولايات المتحدة فى عهـد كارتر ، بسبب (ضعف) كارتر ذاته ، كما تبدى فى أزمة الرهائن ، وفى أفغانستان ، وفى غيرهما •• هو الذى دفع الشعب الأمريكى ، الى اختيار ريجان ، الذى تركزت استراتيجية حملته الانتخابية ، على العودة الى (القوة) ، التى بنت عليها أمريكا وجودها — وكان يقوى من هذه الاستراتيجية ، ان ريجان ذاته ، كانت تسـند اليه أدوار (راعى البقر) حينما كان يعمـل ممثلا •

ومن ثم كان كرامة أمريكا وهيبتها Dignity ، هى التى أدت الى انجاح ريجـان ، حسب الشـعار الذى أعلنـه ، وراهن عليه فى انتخابات الرئاسة فنجح •• وكانت كرامة اسرائيل وهيبتها ، هى التى أدت الى انجاح بيجين ، وان لم يكن شعاره المعلن ، الا أن تاريخـه الملطخ بالدم ، كان يدل عليه •

ورغم ذلك ، فان بيجين يدعو الى احترام كل منصف •

ذلك ، أنه عندما قتل ، قتل من أجل فكرة ، عاش لها هو ، كمـا عاش لهـا كل يهـودى ، وان كان له على غيره ، فضـل المساهمـة (الايجابية) ، فى تحقيق تلك الفكرة ، معرضا حياته للخطر من أجلها ، لا مكتفيا بمجرد التمنى ، كما يفعل الأكثرون •

ومن ثم استحق أن يمجد بين قومه ، بقدر ما استحق أن تصب عليه اللعنات ، من أعداء قومه ، ونحن منهم •

وبقدر ما كان بيجين دمويا مع العرب والمسلمين ، ألد أعداء قومه ، كان ودودا وعطوفا مع قومه ، ورحيما بهم •

فها هو يتمرد عليه ، فى مسرحية هزيلة الحبكة ، هزيلة الاخراج ، مجرم آخر من وجهة نظرنا ، بطل من وجهة نظر قومه ، هو موشى ديان ، وزير خارجيتـه ، ووزير الدفاع فى كل الحكومات الاسرائيلية ، التى دبرت للهجوم ، لابتلاع أرض جديدة •

ثم ها هو يتمرد عليه — بعـد ذلك — وفى أخريات عام ١٩٨٠ ، وزير دفاعه عازار وايزمان ، فى فصل آخر من فصول هذه المسرحية .

ويتمادى وايزمان فى خصومته لرئيس وزرائه ، فيعلن عن تشكيل حزب جديد ، يضرب به بيجين ، ويخوض ببرنامجه الانتخابات القادمة، ثم يسعى لاسقاط حكومة بيجين ذاتها ، من خـلال سحب الثقة منها فى الكنيست ، ولولا أصوات محدودة ، لا تتعدى أصابع اليد الواحدة ، لسقطت الحكومة ، وعجل بالانتخابات الاسرائيلية ، كما تقـول فصول المسرحية ، التى كتبت فصولها للسـذج من أمثالنا ، لا للناخبـين ، فى اسرائيل ، أو فى الغرب أو الشرق ، ممن يعتبرون سلامة اسرائيل ، من سلامة بلادهم ، ورسالتها فى اقتلاع الاسلام من جذوره ، جزءا من رسالتهم ، تقوم به اسرائيل عنهم مشكورة ، ومقدما لهـا من أجـل ذلك ، كل تأييد وعون ومساعدة ، بحيث تظل دوما أقوى من كل العرب والمسلمين ، الذين يعتمـد عليهم الغرب والشرق معـا ، فى كل شىء ، لتحقيق استمرار حضارتهما ، وتقدمهما ، ومستواهما الذى حققـاه ، فى مختلف جوانب الحياة ..

والذى يعنينى ، أن مناحم بيجين ، الدموى المجـرم ، لم يكن دمويا ولا مجرما ، مع خصومه السياسيين ، من أمثـال موشى ديان ، وعازر وايزمان ، فلقد ظلت حكومة بيجين ذاتها تحمى هؤلاء الخصوم ، فيحميهم شرطة اسرائيل فى تنقلاتهم ويظل تليفزيون اسرائيل واذاعتها وصحافتها ، مفتوحة الصدر لهم .

وعلى الساحة المعادية لاسرائيل فى العالمين العربى والاسـلامى ، نرى (المخالفين) فى الرأى يطاردون ، وتلفق لهم التهم ، ويلقى بهم فى غياهب السجون ، وقـد تعلق لهم المشانق . بل انهم قد يطاردون فى خارج حدود بلادهم ، كما تفعل السياستان السورية والليبية ، مـع خصوم النظـام .

وعلى الساحة المعادية لاسرائيل ، فى العالمين العربى والاسلامى ، نرى الحكم مفروضا ، بانقلاب عسكرى ، ديست فيه كرامة الأمة ، وزيفت ارادتها ، بقوة السلاح ــ السلاح الذى كان يجب أن يتجه الى اسرائيل ، فاذا به يدع اسرائيل تعربد ، ويتجه الى قلوب الوطنيين المخلصين ، ولا يدع صوتا يعلو ، الا اذا كان صوت منافق أفاق مرتزق، يدوس مصالح وطنه بالأقدام ، ليعلو ويعلو ، حتى يأتى انقلاب جديد ، فيزداد صعودا ، ان هو استطاع أن يلتمس سبيلا الى القائمين به ، أو يكون كبش الفداء ــ ان هو ضل هذا السبيل •

فللمسلم أن يفخر بدولته ، التى كان يظن أنها قد بهتت فى ضميره، نتيجة للحروب الصليبية الطويلة ، التى لا تعد اسرائيل الا حلقة من حلقاتها ، تظهر فيها نجمة داود ، ويختفى تحتها صليب المسيح •• ثم اذا بها ، رغم الخطوب ، تهب واقفة فى هذا الضمير ، تحركه ضد الولايات المتحدة ، وضد الاتحاد السوفيتى ، وضد اسرائيل ، وضد كل عميل من العملاء فى المنطقة ، ممن تربعوا على العرش ، مغتصبين له ، بانقلاب عسكرى ، أو بانتخابات مزورة •• وبالعنف والارهاب •• فى الحالين •

* * *

واذا نحن انتهينا من الولايات المتحدة واسرائيل ، حيث الحرية الفردية مصونة ، صيانة حرية التعبير عن الرأى ، وحيث حماية الدولة لهذه الحرية وتلك •• واعتبارها (الرأى الآخر) ، لا يقل أهمية فى حماية الدولة ، عن رأى رئيس الدولة ذاته •• لم يكن أمامنا الا أن ننتقل الى (المعسكر) الآخر ، حيث (الرأى الأوحد) ، وحيث المحاكمات وتلفيق الاتهامات ، تنتظر أصحاب (الرأى الآخر) •

وذلك واضح أشد الوضوح اليوم ، فى محاكمة ما يسمى (بعصابة الأربعة) ، بتهمة ما ارتكبوه من جرائم ، فى عهد زعيم الصين الراحل ، ماوتسى تونج ، خاصة فى فترة (الثورة الثقافية) ، التى شهدتها الصين فى عهده ، فى الستينات •

ويتزعم عصابة الأربعة فى المحاكمة ، زوجة ماو ذاته ، التى ثبت أنها كانت هى التى تحكم الصين بالفعل ، فى عهد هذا الزعيم الكبير •

ومن ثم فالمحاكمة ، محاكمة لماو تسى تونج ، وليست محاكمة لزوجة ماو ، التى كانت تحكم الصين بالفعل ، متخذة من اسم ماو الكبير ، غطاء تخفى به جرائمها •• كما يحدث فى نظم كثيرة ، سابقة ومعاصرة ، لا يكون للحاكم الفرد من وظيفة فيها ، سوى وضع توقيعه ، على مقررات (الحريم) •

ومحاكمة القيادة الصينية الجديدة ، لماو ، شبيهة بمحاكمة خروشوف لستالين ، فى الخمسينات ، ولو أنها كانت محاكمة من خلال الصحافة والاذاعة ووسائل الاعلام وحدها ، ولم تنتقل الى ساحة القضاء ، كما حدث فى الصين •

وكان ماو تسى تونج قد تولى السلطة فى الصين سنة ١٩٤٩ ، بتأييد البلاشفة الروس ، بعد سلسلة من الصراعات على السلطة ، تلت انهيار حكم الأسر ، التى بدأت بحكم أسرة الهان Han ، سنة ٢٠٢ ق•م ، وانتهت بحكم أسرة المانشو ، من سنة ١٦٤٤ الى سنة ١٩١١ ، حيث تولى الدكتور صن يات صن ، رئاسة أول جمهورية صينية •

ولكن موت صن سنة ١٩٢٥ ، قد دفع بنائبه شيانج كاى شيك ، الى مركز القيادة ، فركز همه على طرد الشيوعيين من قيادة الحزب الحاكم ــ الكنومنتانج Konomintang ، مما دفعهم الى تشكيل جبهة ، استعانت بالاتحاد السوفيتى ، وتمكنت من تولى السلطة سنة ١٩٤٩ ، فى معظم أنحاء الصين ، تاركة للقيادة القديمة ــ شيانج كاى شيك ــ جزءا صغيرا من البلاد ، هو الصين الوطنية ، التى ظلت تمثل الصين فى المحافل الدولية ، رغم صغر حجمها ، حتى التقارب الأمريكى الصينى فى السبعينات •

وكان الثوار الصينيون ، غير مستعدين « أول الأمر ، أن يقبلوا

التزامات الشيوعية كاملة ، وكان لهم ، شـأن كثير من قادة الفكر الاسلامى ، المسئولين فى الوقت الحاضر ، تحرج دينى عميق ، نحـو الأسس الجوهرية ، لنظريات (ماركس) و ((لينين) » (١٤) ، ومن ثم نظـروا الى « جمهورية الصين الشعبية » ، باعتبارها « وريثة حكمة الحكماء الصينيين » ، « ووجـد العلماء الصينيون البارزون فى كتب كونفوشيوس ، أساسا للمبادىء الثورية والديموقراطية » (١٥) — قبل أن تدفع مساندة الولايات المتحـدة غير المشروطة لشيانج كاى شيك بماوتسى تونج ، الى أن يكون متطرفا فى شيوعيته ، أكثر من بلاشفة الاتحاد السوفيتى ذاته .

ورغم ذلك ، فلقـد قام نزاع بين الصين الشيوعية بقيادة ماو ، وبين الاتحاد السوفيتى الشيوعى ، بقيادة ستالين وخروشوف ، وكان هـذا النزاع نزاعا على (زعامة) العالم الشيوعى ، أدى الى تقسيم العـالم الشيوعى الى جناحين كبيرين ، أحدهما بقيـادة الاتحـاد السوفيتى ، والثانى بقيادة الصين الشعبية (الشيوعية) ، وكان ما بين الجناحين من عـداء ، أكبر من ذلك العـداء الذى كان بين أحدهما ، والمعسكر الامبريالى — الغربى ، الذى يعلن الجناحان الحرب عليه ، ويمنيان الشيوعيين فى داخل بلادهما وخارجها ، باجتياحه .

ورغم ذلك أيضا ، فان دولة الصين دولة شيوعية ، ينطبق عليها ما رأيناه فى أواخر الفصل الرابع ، ينطبق على كل دولة شيوعية (١٦) ، من حيث ((القدسية) التى تحيط بالدولة ، وتفرض على جماهير الشعب ، بكل وسائل الترغيب والترهيب ، ومن حيث (الهالة) التى تحيط بهـا

---

(١٤) كنت كراج : « التأثير الفكرى للشيوعية ، فى الاسلام المعاصر » — **الثقافة الاسـلامية ، والحياة المعاصرة** — مجمـوعة البحوث ، التى قدمت لمؤتمر برنستون ، للثقافة الاسلامية — جمع ومراجعة وتقديم : محمد خلف الله — مكتبة النهضة المصرية ، ص ٢١٦ .

(١٥) تاريخ البشرية — المجـلد السادس (القـرن العشرون) — التطور العلمى والثقافى — الجزء الثانى — ١ (تطور المجتمعات) (مرجع سابق) ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(١٦) ارجع الى ص ١١٠ — ١١٣ من الكتاب .

تلك الدولة رئيسها ، وصفات البطولة التى ((يوزعها) النظام كله ، على المحيطين برئيس الدولة ، والمتفانين فى خدمته •

ولما كان رئيس الدولة والمحيطون به بشرا ، يصيبون ويخطئون ، بل ان نظام السلطة ذاته وتركيزه فى أيدى القلة ، لما يسمح بأن تكون الأخطاء كثيرة •• فان من المنطقى أن يحيط بالقدسية والهالة بعض الضباب ، بمرور الوقت ، فتكون النتيجة الطبيعية ، ((حملات التطهير) من وقت لآخر ، وهو ما اصطلح على تسميته فى الصين فى عهد ماوتسى تونج الطويل ، ((بالثورة الثقافية) •

وفى حملات التطهير تلك ، تزهق أرواح كثيرة ، قد تصل الى الملايين ، بلا ذنب محدد (١٧) •

وعندما يتولى شئون الدولة ، حاكم جديد ، فانه يجد نفسه مضطرا الى أن ينقل (الهالة) ، من الزعامة السابقة ، الى زعامته ، حتى تظل للدولة التى يمثلها (قدسيتها) ومكانتها ، فى النفوس والقلوب •

ونقل الهالة على هذا النحو يستدعى عادة (تجريح) القيادة السابقة ، لزعزعة مكانتها القوية فى النفوس ، كما فعل خروشوف مع ستالين فى الاتحاد السوفيتى ، فى أواخر العقد الخامس من هذا القرن •

وعنما تحس القيادة الجديدة ، بضعف فى شخصيتها ، يصعب معه انتقال هذه ((الهالة) اليها ، فان (محاكمة) النظام السابق ، من خلال محاكمة المسئولين الأحياء عنه •• تكون هى (البديل) الوحيد •

وهذا هو ما حدث فى الصين ، فى محاكمة ((عصابة الأربعة) ، خاصة وأنه كان على رأس من يحاكمون ، زوجة ماوتسى تونج •• التى قيل أنها كانت تحكم الصين كلها من خلاله ، وأنها كانت هى التى دبرت

---

(١٧) ارجع الى ص ١١٢ ، ١١٣ من الكتاب •

أمور (الثورة الثقافية) ، ووجهتها ، وأشرفت مع (الثلاثة) الآخرين على عمليات التعذيب والقتل وتلفيق التهم .

وأين كان (الرجل) ، ماوتسى تونج ، فى هذه العملية ؟

انه كان لا يدرى شيئا عما يحدث .

ولا ندرى ما اذا كان ذلك (تبرئة) لماوتسى تونج مما حدث ، أم أنه تعرية له ، ولحكمه ؟

وأعتقد أنه تعرية له ، وانزال للهالة من فوق رأسه ، لتوضع فوق الرأس ، التى حل صاحبها محله .

* * *

فللمسلم أن يفخر بدولته ، التى كانت — دوما — مصونة ، مهيبة الجانب فى قلبه وفكره وضميره ، وذلك لأن من تولى شئونها ، لم يكن راغبا فيها منذ البداية ، لتحقيق مغنم ، أو بسط نفوذ ، أو كسب ثروة ، كما رأينا فى الشرق والغرب على السواء ، فى الفصلين الثالث والرابع من الكتاب ، وانما كان (مدفوعا) اليها دفعا ، من أهل الحل والعقد ، بوصفه (أقدر) عناصر الأمة ، على تسيير الدفة (١٨) ، ومن ثم كان من شروطه أن يكون مسلما ، لأننا « لا نتوقع من شخص غير مسلم ، مهما كان نزيها مخلصا محبا لبلاده ، متفانيا فى خدمة مواطنيه ، أن يعمل من صميم فؤاده ، لتحقيق الأهداف الأيديولوجية للاسلام » ، بل « انه ليس من الانصاف ، أن نطلب منه ذلك » (١٩) .

ولله در الماوردى ، حين رأى أن صلاح الأمر يتحقق بستة أمور ، هى « دين يتبع » ، و « سلطان قاهر » ، و « العدل الشامل » ، و « أمن عام ، تطمئن اليه النفوس » ، و « خصب دار ، تتسع النفوس به فى الأحوال ، ويشترك فيه ذوو الاكثار والاقلال » ، و « أمل فسيح ، يبعث على اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه » (٢٠) .

---

(١٨) ارجع الى ص ١٤٨ ، ١٤٩ من الكتاب .

(١٩) محمد اسد (مرجع سابق) ، ص ٨٣ .

(٢٠) أبو الحسن الماوردى : أدب الدنيا والدين — تحقيق مصطفى السقا — الطبعة الثالثة — مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر — ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٥ م ، ص ١٢٠ — ١٣١ .

فالسلطان القاهر ، الذى يسير على خط الدين ، شرط من شروط دولة الاسلام ، التى يحق للمسلم أن يفخر بها ، واليه وحده « يجب أن تسند كافة مقاليد السلطة الادارية ووظائفها » (٢١) ، فقد كان هو الذى ينظر فى المظالم بنفسه ، حتى عهد العباسيين ، قبل أن تزداد أعباؤه ، فينيب عنه غيره ، ممن يسمى « بقاضى المظالم ، أو صاحب المظالم » (٢٢) ــ كما كان هو الذى يدير شئون الدولة بنفسه ، قبل أن توجد الوزارة فى العصر العباسى ، حيث كان الوزير « ينوب عن الخليفة فى حكم البلاد ، ويجمع فى شخصه السلطتين ، المدنية والحربية ، بجانب الواجبات العادية ، من نصح الخليفة ، ومساعدته » (٢٣) .

ولم تكن قوة السلطان ــ أو قهره ــ مطلوبة لقهر العباد ، بل لاسعادهم ، ونشر الخير والعدل بينهم ، والضرب بشدة ، على أيدى من يقفون حائلا فى سبيل ذلك كله .

ومن أجل ذلك ، كان كل رئيس لهذه الدولة ــ بالرغم من السلطان القاهر ــ ينظر بعين الاحترام والاجلال ، للرئيس السابق عليه .

واذا نحن تجاوزنا أبا بكر الى عمر ، رضى الله عنهما ، بوصف أبى بكر كان الخليفة الأول ، الذى أتى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى نعلم جميعا مدى حبه له ، واصراره ــ طيلة خلافته ــ على الالتزام الحرفى ، بقول الرسول وعمله ــ فاننا نعلم ــ من التاريخ ــ مدى اجلال عمر لأبى بكر ، وترحمه عليه ، واعتباره قد أدى الأمانة ، بقدر ما فرط هو فى حق نفسه ــ وما فرط فى حقيقة الأمر ، وانما هو فرط احساسه بالمسئولية ، واشفاقه منها .

---

(٢١) محمد أسد (مرجع سابق) ، ص ١١٧ .

(٢٢) دكتور عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ــ الطبعة الثالثة ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ ١٩٧٣ ، ص ٥٣ .

(٢٣) دكتور حسن ابراهيم حسن ، ودكتور على ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ــ الطبعة الأولى ــ مكتبة النهضة المصرية ــ ١٩٣٦ ، ص ١٤٦ .

وما قيل عن موقف عمر من أبى بكر ، يمكن أن يقال ــ بشــكل أو بآخر ــ عن موقف عثمان من عمــر ، ثم عن موقف على من عثمان .

ولايستثنى من ذلك ، حتى معــاوية بن أبى سفيان ، مؤسس دولة بنى أمية ، و (مغتصب) السلطة من على ــ الخليفة الرابع ــ كمــا يقول المؤرخون ، فقــد كان لا يذكر على أمامه ، الا ويجهش بالبكاء ، مشيدا بفضله وعلمه وخلقه .. على عكس ما يحب المستشرقون أن يتصــوروا ، ويصــوروا الأمور لنــا .

انه الاسلام ، الذى يصنع الرجال ، لا الذى يصنعه الرجال ، ويشكلونه حسب هواهم ، كما يحب حكام العصر ، المسلمون بالاسم وحــده ، أن يفعلوا .

فللمسلم أن يفخــر بدولته ، التى يتمتع رئيسها بسلطان قاهر ، ومع ذلك فهو يسخر سلطانه هذا ، فى خدمة أمته ، لا فى خدمة نفسه ، ومن ثم كان (التبارى) ، بين من تولوا رئاستها ، فى مجال الفضل .. وفى مثل هــذه الحال ، لا يكون هناك مجال (لتجريح) واحد منهم ، بل المجال كله ، (لتكريمه) ، وتتبع خطاه .

* * *

ولم تصل الدولة الى مكانتها تلك فى القلوب ، الا لأن لها دستورها السماوى ، المتميز عن دستور سواها .

والدستور السماوى يتميز عما ســواه ، بأنه ليس من وضــع (فئــة محدودة) من الناس ، ذات صلة بالسلطة ، بهــدف تحقيق مصالحها ، على حساب مصالح (الكثرة) ، البعيدة عن السلطة ، أو المطحونة تحت وطأة الحياة .. كما نرى فى النظام الرأسمالى ، كما أنه ليس من وضع (فئة محدودة) أيضا ، استطاعت أن تصل الى السلطة بالقهر والتآمر ، والغش والخداع .. بهدف تحقيق مصالحها ، وتقنين ما منحته لنفسها من امتيازات ، كما نرى فى العــالم الشيوعى ، وانما هو من وضع اللــه سبحانه ، بهــدف تحقيق (خير) الجميع . ومن ثم كان (احترام) القــانون ، واحترام الساهر على تحقيقــه ، من حاكم

ومحكوم على السواء . يضاف الى ذلك ، أن مثل هـذا القانون ، لا (يهبط) الى مستوى الناس ، أفـرادا وجماعات ، وانما هو (يرقى) بهم ، الى مستوى أرفع ، يتمنون — فى أعماقهم — أن يصلوا اليه ، ولو لم يستطيعوا الوصول الى مستواه . ومن ثم يكون احترام الساهر عليه ، جزءا من احترامه هو .

وهكذا تحتل الدولة ، بدستورها السـماوى هـذا — منزلة فى القلوب ، كانت به قادرة على أن تسـود غيرها من الدول ، التى لا ترقى قوانينها الى مرتبة هذا القانون السماوى .

وقد أحسن الدكتور محمد حسين هيكل ، معالجة هذه القضية ، فى مقارنته الرائعـة بين خالد بن الوليـد كفـاتح ، وبين الاسـكندر ، أو نابليون ، حيث قال : « واذا جـاز لنا أن نقـرن اسم نابغـة ، كخالد بن الوليد ، الى أسماء الاسكندر وجانكير خان ونابليون ، فيجب ألا ننسى أن هؤلاء بلغت بهم عبقريتهم أن أصبحوا ملوكا ، وأن صار اليهم وحدهم الأمر كلـه ... على حين بقى خالد بن الوليد ، وعمـرو ابن العاص ، وغيرهما من قـواد المسلمين ، تحت سلطـان الخلفـاء ، أمراء المؤمنين .. بل لقـد عزل عمـر بن الخطاب ، خالد بن الوليـد ، وكان من أسـباب عزله اياه ، أنه خشى أن يظن النـاس ، أن المسلمين لا ينتصرون الا بخـالد ، وليس خالد فى رأى عمـر ، الا رجـلا من المسلمين ، شأنه شـأن غيره من القـواد ، وانمـا النصر من عند الله ، يؤتيـه من يشاء » (٢٤) .

* * *

والدولة الاسلامية ، شأنها شأن أية دولة ظهـرت وستظهر ، تقوم على (الجهاد) ، لتأمين (الانسان) ، الذى قامت هذه الدولة أساسا لحمايته ، وتحقيق أمنـه — لا (لفرض) نفسـها على غيرها ، واغتصاب حقوق هذا الغير ، كما تفعل الدولة اليوم ، فى الشرق والغرب

---

(٢٤) الدكتور محمد حسين هيكل (مرجع سابق) ، ص ١٦ .

على السواء ، وكمـا فعلت أية دولة ، قبل اليوم • وقد حدد هـدف الجهاد الاسلامى ، فى قوله سبحانه :

ـ « وأعدوا لهم ما استطعتم من قـوة ومن رباط الخيـل ، ترهبـون به عدو اللـه وعدوكم ، وآخرين من دونهم ، لا تعلمونهم ، الله يعلمهم •• وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم » (٢٥) •

فهى الحـرب التى تفضى الى السلام ، لا الى التوسع واذلال خلق اللـه •

ولذلك كان هذا الجهاد الاسلامى عند ابن القيم ، « أربع مراتب :

جهـاد النفس ، وجهـاد الشيطان ، وجهـاد الكفار ، وجهاد المنافقين » (٢٦) • أى أن (رياضة النفس) فيه تسبق محاربة الباطل ، خارج هـذه النفس •

ولنقـارن ـ على حد تعبير سيد أمير على ـ « بين جهاد المسلمين ، فى سبيل الدفاع عن النفس ، والمحافظة على الذات ، وبين الحـروب المروعة ، التى شنها اليهود ، والنصارى » (٢٧) ، على الآخرين ، اذلالا لهم ، ومصا لدمائهم ، كما نرى فى حال اليهود ، أو فرضا لعقيدة معينة عليهم ، كما نرى فى حال النصارى •

وهكذا لا يكون الجهاد « فى الحضارة الاسلامية ، أمرا عسكريا ، أو قاعدة من قواعد الاسلام الدينية حسب ، بل هو بالاضافة الى ذلك ، أمر حضـارى ، يهـدف الى غايات انسانية نبيلة ، وأغراض سلمية

---

(٢٥) قرآن كريم : الأنفال ـ ٨ : ٦٠ ، ٦١ •

(٢٦) العلامة شمس الدين بن القيم : الجهاد فى سبيل الله (منقولة من كتاب « زاد المعـاد » « باب الجهاد ») ـ دار الفتح ، للطبع والنشر والتوزيع ، ص ١٢ •

(٢٧) سيد امير على : روح الاسلام ـ الجزء الثانى ـ ترجمـة : أمين محمود الشريف ـ راجعه الدكتور محمد مصطفى زيادة ـ رقم (٣٩٠) من (الألف كتاب) ـ اشراف ادارة الثقافة ، بوزارة التربيـة والتعليم ـ ١٩٦٣ ، ص ٨١ •

سامية ، لأن الاسلام يعترف أن الحــرب وسيلة لاقرار الســلام ، ومكافحة الشر ، والدفاع عن النفس ، والوقوف أمــام العــدوان ، ومقاومة الباطل ، وصيانة الحريات ، وحماية الحقوق ، واشاعة الخير بين النــاس » (٢٨) •

ولأنه عمل حضــارى بحت ، ارتبط الجهاد فى الاسلام بازدهار المجتمع المسلم « وابداعه الحضــارى ، واتساع ميادين نشاطه فى العالم •• وحيثما افتقدت هــذه الروح الجهادية ، وطمس عليها » ، فى مجتمع اسلامى « اضمحلت منجــزاته الحضارية ، وتقلص دوره فى العالم ، وآل أمره الى التدهور والسقوط » (٢٩) • وليس هناك من شاهد على صدق ذلك ، أوضح من حال الأمة الاسلامية اليوم ، وقــد هانت على نفسها ، فهانت على غيرها ، وصارت تعيش فى فقر وتخلف وجمود ، وحضارة العالم المتقدم كلها ، تقوم على عطائها ، من مادة أولية وأسواق ، ومن قوى بشرية كثيرة أيضا •

* * *

وهكذا ننتقل من المحاكمة (الصورية) لعصابة الأربعــة ، الى محاكمة (حقيقيــة) يجب أن تتم ، لنظم الحكم فى البلاد العربيــة والاسلامية ، بوصفها المسئولة عما آل اليه العــرب والمسلمون ، من فقر وتخلف وجمود ، منذ صارت لا تمثل البــلاد ، التى فرضت نفسها عليها ، بقدر ما تمثل الدول الكبرى ومصالحها ، فى هذه البلاد ، التى ابتليت بهذه النظم من الحكم •

ولم يعد سرا ، أن معظم حكام العالم الاسلامى ، فرضتهم على شعوبهم مخابرات دولة أجنبية ، شرقية أو غربية ، اما من خلال انقلاب عسكرى ، أو من خلال دعم عرش متهاو •

ومن ثم فمؤهلات الحاكم فى هــذا العــالم ، هى أن يكون ••

---

(٢٨) ناجى معروف : أصالة الحضارة العربية — الطبعة الثانيــة — مطبعة التضامن — بغداد — ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م ، ص ٢٧٣ •

(٢٩) الدكتور عماد الدين خليل : التفسير الاسلامى للتاريخ (مرجع سابق) ، ص ٢٩٢ •

عميلا — فليست هناك من صفة أشمل وأعم من العمالة ، لبيان مجموعة الصفات ، التي تلتف حول هـذا (المحور) ••• (النتن) •

ومن هنا كان موقف هذه الحكومات (الاسلامية) ، من الثورة (المسلمة) الايرانية ، التي فرضت احترامها ، حتى على أشد أعداء الاسلام : الاتحاد السوفيتي — الشيوعى ، والولايات المتحدة ، والعالم الغربى — وارث الصليبية الحاقدة على الاسلام والمسلمين ، بالرغم من أن هذه الثورة ، كانت هى الثورة الوحيدة ، التى قامت (رغم أنف) مخابرات الدول الكبرى ، ومن ثم فهى تمثل (خطرا) على الحضارة الغربية بشقيها الشرقى والغربى على السواء •• لأن شعوبا اسلامية أخرى ، يمكن أن تحذو حذو ايران ، فتضيع على الغرب والشرق على السواء ، ما يجنيانه من تخلف العالم الاسلامى ، وعمالة حكامه •

ومن ثم كان منطقيا ، أن يحنى (الكبار) رءوسهم ، احتراما للثورة الاسلامية ، والثوار المسلمين ، وأن يحركوا (أذنابهم) فى المنطقة ، ليتحرشوا بالثورة ، وليعملوا على اجهاضها •• وليس تحرش حاكم العراق الأوحد ، الذى قضى على أقرب المقربين اليه ، وصولا الى عرشه — ليس تحرشه بالثورة الايرانية الاسلامية ، وضربها ضربة مباغتة ، مبالغة منه فى خدمة سادته •• الا صورة من صور (تحريك) الأذناب ، لاجهاض الثورة ، ولكنه ليس الصورة الوحيدة ، وان كان الصورة •• الصارخة •

والغريب أن خدمة العميل (صدام) لسادته ، لم تشفع له عندهم ، يوم ضربت اسرائيل بعد ذلك محطته النووية ، واستنكر العالم كله هـذا العدوان على المحطة ، الا هؤلاء السادة ، الذين ضرب الثورة الايرانية من أجلهم ••• ولكن العملاء لا يتعظون أبدا •

ولا شك فى أن ضرب المحطة ، ليس الا جزءا من تمثيلية هزيلة ، له دور فيها ، حتى يلهى الشعب العراقى المسكين ، عن (القادسية) الجديدة وأسرارها ، وتأخر النصر الموعود فيها — وحتى يستدر عطف

العالم كله ، فيضغط على ايران الثورة ، فتحفظ له بعض (ماء الوجه) ، وتحقق له بعض ما طلبه •

حتى دور سوريا ، عندما تقف فى صف ايران ، ليس الا صورة من صور تحريك الأذناب ، لخدمة أهداف السادة ، الذين يسقطون العروش ، ويقيمون مكانها عروشا أخرى •

فالحكومة السورية ، لا تقف فى صف ايران الثورة ، كما يبدو من الأخبار ، الا لتشويه صورة هذه الثورة ، ولضرب العراق ، لتخلو لها قيادة العالم العربى ، الذى فقد هذه القيادة ، بفقده مصر ، التى تخلت فى نظر العرب ، عن قضية العرب الرئيسية ــ قضية فلسطين ، بصلحها مع اسرائيل •

ولقد كان حاكم العراق الأوحد ، صاحب القادسية الجديدة ، على حد ما أعلن يوم أمر جيوشه بدخول أرض ايران ، قد صورت له مخابرات سادته ، الذين عمل ذنبا لهم ، أنها جولة قصيرة ، يقضى بها على الثورة ، ويتحقق له حلم الزعامة ، ويخلص الرهائن الأمريكيين ، من الأسر •

وهو نفس الوهم ، الذى خدعت به القيادة المصرية يوم هجمت على اليمن ، فى مطلع الستينات ، وخدعت به القيادة الأمريكية يوم هجمت على فيتنام ، بعد ذلك بسنوات قليلة ، وخدع به كارتر ذاته ، يوم أراد تخليص الرهائن •• كما خدع به السوفييت يوم احتلوا أفغانستان •

وتحرك الذيول الايرانيون الآخرون ، فى كل مكان ، ليكون لهم نصيب من الصيد ، الذى تصوره السادة سهلا •• فرئيس الوزراء المخلوع ــ بختيار ــ يعلن عن تشكيل حكومة فى المنفى ، ويزور المنطقة زيارة سرية •• وأخت الشاه المخلوع تتحرك بأموالها التى نهبتها من دم الشعب الايرانى ، ونجل الشاه المخلوع يعلن نفسه امبراطورا •• فى مصرنا الحبيبة ، التى تبرأ منه ، ومن أبيه وأمه ، ومن أسرة بهلوى كلها •

ونسى الرئيس الذنب — صدام حسين — والأذناب الآخرون ، المطرودون من ايران ، أنهم خدموا ايران الثورة ، بهذه الحرب التى أعلنوها ، وبالأرض التى احتلوها •• لأنهم وحدوا صفوف الشعب الايرانى ، التى كانت على وشك التمزق ، اثر المناقشات الديموقراطية بعد الثورة ، حول (أسلوب الحياة) الذى يختارونه •

حتى الطيارون الذين حوكموا وأدينوا ، أو الذين هربوا الى خارج حدود ايران ، فرارا من المحاكمات ، طلبوا العودة ، للدفاع عن بلادهم ، تحت راية الثورة •• الاسلامية •

هذا فى الوقت الذى مزق فيه العدوان صفوف الشعب العراقى تمزيقا •• لأن الشعب العراقى ، المغلوب على أمره ، بحث عن النصر الوشيك فلم يجده ، ثم سأل نفسه عن سبب للحرب فلم يجد •

وهكذا قوت الحرب ايران المعتدى عليها ، وأضعفت العراق المعتدية •

وربما تحققت قريبا نبوءة الامام الخمينى ، وسقط الطاغية من فوق عرشه الذى من أجله ذبح أقرب المقربين اليه ، وجعل العراق سجنا كبيرا ، ارضاء لسادته ، فى خارج العراق ، من حفدة الصليبيين والتتار •• ومن بنى اسرائيل — تماما كما تحققت من قبل ، بشأن كارتر ، حين هدده — وهو فى قمة ازدهاره — باسقاطه فى الانتخابات ، وقد سقط بالفعل — كارتر •

فللمسلم أن يفخر بدولته ، الحية فى قلبه وفكره وضميره ، ومن أجل حياتها تلك ، كان (استنكاره) للأذناب ، الذين نصبوا أنفسهم رغم أنفه ، حكاما عليه •

وغدا سيتحول الاستنكار الى ثورة ، تقطع الأذناب ، ولا تبقى على القمة الا •• الرءوس •

— « ••• ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم • وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٣٠) •

(٣٠) قرآن كريم : الروم — ٣٠ : ٤ — ٦ •

مراجـع الكتـاب

اولا : المراجع العربيـة :

١ ــ أبو الأعلى المودودى : الحكومة الاسلامية ــ نقله الى العربيـة : احمـد ادريس ــ الطبعة الأولى ــ المختار الاسلامى ، للطبـاعة والنشر والتوزيع ــ ١٣٩٧ هـ ــ ١٩٧٧ م .

٢ ــ أبو الأعلى المودودى : تدوين الدستور الاسـلامى ــ الطبعـة الثانية ــ دار الفكر (دمشق) (بدون تاريخ) .

٣ ــ أبو الأعلى المودودى : تفسـير سـورة النـور ــ رقم (٧) من (صوت الحق) ــ دار الجهاد ودار الاعتصام ــ ١٩٧٧ .

٤ ــ أبو الحسن المـاوردى : أدب الدنيا والدين ــ تحقيـق مصطفى السقا ــ الطبعة الثالثة ــ مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ــ ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٥ م .

٥ ــ أبو الحسن المـاوردى : الأحكام السلطانية ــ مكتبة ومطبعـة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ــ ١٣٥٦ هـ .

٦ ــ أبو الحسن النـدوى : رجال الفكر والدعوة فى الاسلام ــ الطبعة الرابعة ــ دار القلم بالكويت ــ ١٣٩٤ هـ ــ ١٩٧٤ م .

٧ ــ أبو الحسن النـدوى : ماذا خسر العـالم ، بانحطاط المسلمين ــ الطبعة العاشرة ــ مطابع على بن على ــ الدوحة ــ ١٣٩٤ هـ ــ ١٩٧٤ م .

٨ ــ أحمد أمين : « الانسانية والقومية » ــ **فيض الخاطر** ــ الجـزء الثالث ــ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ــ ١٩٤٢ .

٩ ــ الدكتور أحمد سويلم العمرى : بحوث فى المجتمع العربى (دراسات سياسية) ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ ١٩٦٠ .

١٠ ــ الدكتور أحمـد عروة : الاسـلام فى مفترق الطـرق ــ نقله عن الفرنسية الدكتور عثمان أمين ــ دار الشروق ــ ١٩٧٥ .

١١ ــ أحمد فهمى القطان بك : تاريخ التربية ــ الجزء الأول ــ التربيـة قبل الاسلام ــ مطبعة مدرسة طنطا الصناعية ــ ١٣٤٢ هجرية ــ ١٩٢٣ ميلادية .

١٢ ــ الدكتور أحمد محمد ابراهيم : الاقتصاد السياسى ــ الجزء الأول ــ الطبعة الثالثة ــ المطبعة الأميرية ببولاق ــ ١٩٣٥ .

١٣ — آدم كيرل : استراتيجية التعليم ، فى المجتمعات النامية (دراسة للعوامل التربوية والاجتماعية ، وعلاقتها بالنمو الاقتصادى) — ترجمة سامى الجمال — مراجعة د. عبد العزيز القوصى — الجهاز العربى ، لمحو الأمية وتعليم الكبار (بدون تاريخ) .

١٤ — أدونيس : الثابت والمتحول ، بحث فى الاتباع والابداع عند العرب — ١ (الأصول) — الطبعة الأولى — دار العودة — بيروت — ١٩٧٤ .

١٥ — أدونيس : الثابت والمتحول ، بحث فى الاتباع والابداع عند العرب — ٢ (تأصيل الأصول) — الطبعة الثانية — دار العودة — بيروت — ١٩٧٩ .

١٦ — آرثر تيدمان : اليابان الحديثة — ترجمة وديع سعيد — مراجعة على رفاعة الأنصارى — رقم (٢٢٢) من (الألف كتاب) — مكتبة الأنجلو المصرية (بدون تاريخ) .

١٧ — ارنست باركر : الحروب الصليبية — نقله الى العربية : الدكتور السيد الباز العرينى — مكتبة النهضة المصرية — ١٣٧٩ هـ — ١٩٦٠ م .

١٨ — اسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية — الجزء الثانى — ترجمة أحمد الشيبانى — منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت — ١٩٦٤ .

١٩ — اسوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية — الجزء الثالث — ترجمة أحمد الشيبانى — منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت — ١٩٦٤ .

٢٠ — الأعمال الكاملة ، لجمال الدين الأفغانى ، مع دراسة عن حياته وآثاره — بقلم محمد عمارة — دار الكاتب العربى ، للطباعة والنشر ، بالقاهرة — ١٩٦٨ .

٢١ — الدومييلى : العلم عند العرب ، وأثره فى تطور العلم العالمى — نقله الى العربية : الدكتور عبد الحليم النجار ، والدكتور محمد يوسف موسى — قام بمراجعته على الأصل الفرنسى : الدكتور حسين فوزى — جامعة الدول العربية — الادارة الثقافية — الطبعة الأولى — دار القلم — ١٩٦٢ .

٢٢ — السيد محمود أبو الفيض المنوفى : أصالة العلم ، وانحراف العلماء — رقم (٤) من (موسوعة وحدة الدين والفلسفة والعلم) — دار نهضة مصر ، للطبع والنشر — ١٩٦٩ .

٢٣ — العبودية ، لشيخ الاسلام ابن تيمية (٦٦١ — ٧٢٨ هـ) — مطبعة المدنى بالقاهرة — ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

٢٤ — العهد الجديد .

٢٥ — المعجم الوسيط — قام باخراجه : ابراهيم مصطفى وآخرون — واشرف على طبعه : عبد السلام هارون — الجزء الأول — مجمع اللغة العربية — ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م .

٢٦ — المقريزى (أحمد بن على) : كتاب السلوك ، لمعرفة دول الملوك — صححه ووضع حواشيه : محمد مصطفى زيادة — الجزء الأول — القسم الأول — الطبعة الثانية — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٦ .

٢٧ — المقريزى (احمد بن على) : كتاب السلوك ، لمعرفة دول الملوك — صححه ووضع حواشيه : محمد مصطفى زيادة — الجزء الأول — القسم الثانى — الطبعة الثانية — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٧ .

٢٨ — الياس انطون الياس ، وادوار أ. الياس : القاموس العصرى ، عربى / انكليزى — الطبعة التاسعة — المطبعة العصرية بمصر — ١٩٧٠ .

٢٩ — امين سامى باشا : التعليم فى مصر ، فى سنتى ١٩١٤ و ١٩١٥ — مطبعة المعارف ، بشارع الفجالة بمصر — ١٩١٧ .

٣٠ — آن تيرى هوايت : الأنهار العظيمة فى العالم — ترجمة وتقديم العميد أ. ح. محمد عبد الفتاح ابراهيم — اشراف ومراجعة الدكتور محمد صابر سليم — رقم (١٨) من (كل شىء عن) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٤ .

٣١ — أنور الجندى : الاسلام والغرب — دار الاعتصام بالقاهرة — ١٩٧٦ .

٣٢ — أنور الجندى : من التبعية الى الأصالة ، فى مجال التعليم والقانون واللغة — دار الاعتصام — ١٩٧٧ .

٣٣ — برتراند رسل : نحو عالم افضل — ترجمة ومراجعة درينى خشبة ، وعبد الكريم أحمد — رقم (٦٨) من مشروع (الألف كتاب) — العالمية ، للطبع والنشر (بدون تاريخ) .

٣٤ — الدكتور بول منرو : المرجع ، فى تاريخ التربية — الجزء الأول — ترجمة صالح عبد العزيز — مراجعة حامد عبد القادر — الطبعة الثانية — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٥٨ .

٣٥ — بيتر م. بلاو : البيروقراطية فى المجتمع الحديث — ترجمة اسماعيل الناظر ، ومعد كيالى — دار الثقافة — بيروت — ١٩٦١ .

٣٦ — تاريخ البشرية — المجلد السادس (القرن العشرون) — التطور العلمى والثقافى — الجزء الثانى — ١ (تطور المجتمعات) — اعداد اللجنة الدولية ، باشراف منظمة اليونسكو — الترجمة والمراجعة : عثمان نويه وآخران — الهيئة المصرية العامة ، للتأليف والنشر — ١٩٧١ .

٣٧ — تاريخ البشرية — المجلد السادس (القرن العشرون) — التطور العلمى والثقافى — الجزء الثانى — ٢ (صورة الذات ، وتطلعات شعوب العالم) — اعداد اللجنة الدولية ، باشراف منظمة اليونسكو — الترجمة والمراجعة : عثمان نويه وآخران — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٢ .

٣٨ — الدكتور تشارلز آدمس : الاسلام والتجديد فى مصر — نقله : عباس محمود — قدم له : الأستاذ مصطفى عبد الرازق — لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية — ١٣٥٣ — ١٩٣٥ .

٣٩ — تشارلس تشوت ، ومارجورى بل : الجريمة والمحاكم والاختيار القضائى — ترجمة اللواء محمود صاحب — مراجعة وتقديم حسن جلال العروسى — تصدير المستشار عادل يونس — دار المعرفة بالقاهرة — ديسمبر ١٩٦٢ .

٤٠ — سير توماس هـ. أرنولد : الدعوة الى الاسلام ، بحث فى تاريخ نشر العقيدة الاسلامية — ترجمه الى العربية وعلق عليه : الدكتور حسن ابراهيم حسن وآخران — الطبعة الثانية — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٥٧ .

٤١ — ثيا وريتشارد برجير : من الحجارة الى ناطحات السحاب (قصة العمارة) — ترجمة المهندس محمد توفيق محمود — دار النهضة العربية — ١٩٦٢ .

٤٢ — جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده : العروة الوثقى — الطبعة الأولى — دار الكتاب العربى — بيروت — لبنان — ذو الحجة ١٣٨٩ هـ — شباط (فبراير) ١٩٧٠ م .

٤٣ — الدكتور جمال الدين عطية : « كلمة التحرير » — **المسلم المعاصر** — فصلية فكرية ، تعالج شؤون الحياة المعاصرة ، فى ضوء الشريعة الاسلامية — العدد العاشر — ابريل — مايو — يونيو ١٩٧٧ .

٤٤ — جمهورية أفلاطون — ترجمة ودراسة الدكتور فؤاد زكريا — راجعها على الأصل اليونانى : الدكتـور محمد سليم سالم — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٤ .

٤٥ — جورج سول : المذاهب الاقتصادية الكبرى — ترجمة وتقديم راشـد البراوى — الطبعة الثالثة — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٦٢ .

٤٦ — جون كينيث جالبريث : أضواء جديدة ، على الفـكر الاقتصادى — ترجمة الدكتور خليل حسن خليل — مراجعة الدكتور سعيد النجار — دار المعرفة — ١٩٦٢ .

٤٧ — دكتور حسن ابراهيم حسن ، ودكتور على ابراهيم حسن : النظـم الاسلامية — الطبعة الأولى — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٣٩ .

٤٨ — الأستاذ حسن اسماعيل الهضيبى : دعاة ، لا قضـاة (ابحـاث فى العقيدة الاسلامية ، ومنهج الدعوة الى الله) — رقم (١) من (كتاب الدعوة) — دار الطباعة والنشر الاسلامية — ١٩٧٧ .

٤٩ — دكتور حسن حسنى ابو السعود : « النظائر المشعة ، فى خـدمة الصناعة » — **الذرة فى خدمة السلام** — مجموعة المحاضرات ، التى القيت بالمؤتمر السـنوى السادس والعشرين ، للمجمـع المصرى ، للثقافة العلمية ، الذى عقد فى المـدة من ٣١ مارس الى ٥ ابريـل سنة ١٩٥٦ — رقم (٢٧) من (الألف كتاب) — مكتبـة مصر (بدون تاريخ) .

٥٠ — الشيخ حسنين محمد مخلوف : القرآن الكريم ، ومعه صفوة البيان ، لمعانى القرآن — الطبعة الأولى — مطابع دار الكتاب العربى بمصر — ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م .

٥١ — الدكتور حسين فوزى النجار : الاسلام والسياسة ، بحث فى أصول النظرية السياسية ، ونظام الحكم فى الاسلام — مطبوعات الشعب — ١٩٧٧ .

٥٢ — د. م. تيرنر : الكشف العلمى — ترجمـة احمـد محمد سليمان — مراجعة د. محمد جمال الدين الفندى — العدد (٥) من (العـلم للجميع) — دار الكاتب العربى ، للطباعة والنشر (بدون تاريخ) .

٥٣ — رالف لنتون : دراسـة الانسان — ترجمـة عبد الملك الناشف — منشورات المكتبة العصرية — صيدا — بيروت — ١٩٦٤ .

٥٤ — الدكتور رشدى عليـان : الاسلام والخـلافة — الطبعة الأولى — مطبعة دار السلام — بغـداد — ١٩٧٧ .

٥٥ — دكتور سعد مرسى أحمد ، ودكتور سعيد اسماعيل على : تاريخ التربية والتعليم — عالم الكتب — ١٩٧٢ .

٥٦ — دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : المدنية الاسلامية ، وأثرها فى فى الحضارة الأوربية — الطبعة الأولى — دار النهضة العربية — ١٩٦٣ .

٥٧ — سيد أمير على : روح الاسلام — الجزء الثانى — ترجمة أمين محمود الشريف — راجعه الدكتور محمد مصطفى زيادة — رقم (٣٩٠) من (الألف كتاب) — اشراف ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم — ١٩٦٣ .

٥٨ — الدكتور سيد حسين نصر : الاسلام ، أهدافه وحقائقه — الطبعة الأولى — الدار المتحدة للنشر — بيروت — ١٩٧٤ .

٥٩ — سيد قطب : السلام العالمى والاسلام — الطبعة السادسة — دار الشروق — ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م .

٦٠ — سيد قطب : المستقبل لهذا الدين — دار الشروق — ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م .

٦١ — سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد السادس (الأجزاء : ٢٦ — ٣٠) — الطبعة الشرعية الرابعة — دار الشروق — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م .

٦٢ — سيد قطب : نحو مجتمع اسلامى — الطبعة الثانية — دار الشروق — ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م .

٦٣ — الدكتور شكرى محمد عياد : الحضارة العربية — رقم (١٧٢) من (المكتبة الثقافية) — دار الكاتب العربى ، للطباعة والنشر ، بالقاهرة — أول أبريل ١٩٦٧ .

٦٤ — العلامة شمس الدين بن القيم : الجهاد فى سبيل الله (منقولة من كتاب « زاد المعاد » ، « باب الجهاد ») — دار الفتح للطبع والنشر والتوزيع (بدون تاريخ) .

٦٥ — دكتور صبرى جرجس : التراث اليهودي الصهيونى ، والفكر الفرويدى ، أضواء على الأصول الصهيونية ، لفكر سجمند فرويد — الطبعة الأولى — عالم الكتب — ١٩٧٠ .

٦٦ — دكتور صلاح مخيمر ، وعبده ميخائيل رزق : سيكولوجية الشخصية ، دراسة الشخصية وفهمها — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٨ .

٦٧ — صلاح نصر : الحرب النفسية ، معركة الكلمة والمعتقد — الجزء الأول — دار القاهرة ، للطباعة والنشر (بدون تاريخ) .

٦٨ — طـه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر — مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر — ١٩٣٨ .

٦٩ — دكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) : الشخصية الاسلامية ، دراسة قرآنية — الطبعة الثانية — دار العلم للملايين — بيروت — آيار (مايو) ١٩٧٧ .

٧٠ — الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) : القرآن وقضايا الانسان — الطبعة الأولى — دار العلم للملايين — بيروت — ١٩٧٢ .

٧١ — عباس محمود العقاد : افيون الشعوب ، المذاهب الهدامة — الطبعة الخامسة — دار الاعتصام بالقاهرة — ١٩٧٥ .

٧٢ — عباس محمود العقاد : الثقافة العربية ، أسبق من ثقافة اليونان والعبريين — رقم (٣٠٩) من (المكتبة الثقافية) — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٤ .

٧٣ — عباس محمود العقاد : الديمقراطية فى الاسلام — دار المعارف بمصر — ١٩٧١ .

٧٤ — عباس محمود العقاد : الشيوعية والانسانية — الطبعة الثانية — دار الاعتصام — ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م .

٧٥ — عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية — دار الاسلام بالقاهرة — ١٩٧٣ .

٧٦ — عباس محمود العقاد : حقائق الاسلام ، وأباطيل خصومه — دار الاسلام — القاهرة — ١٩٥٧ .

٧٧ — عباس محمود العقاد : عبقرية خالد — دار الهلال (بدون تاريخ) .

٧٨ — عباس محمود العقاد : ما يقال عن الاسلام — دار الهلال — ١٩٧٠ .

٧٩ — عباس محمود العقاد ، وأحمد عبد الغفور عطار : الشيوعية والاسلام — الطبعة الثانية — مطابع دار الأندلس ، للطباعة والنشر — بيروت — ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .

٨٠ — الدكتور عبد الباسط محمد حسن : أصـــول البحث الاجتماعى — الطبعة الثانية — لجنة البيان العربى — ١٩٦٦ .

٨١ — الدكتور عبد الحليم الرفاعي : الاقتصاد السياسى — الجزء الأول — الطبعة الأولى — ١٩٣٦ (بدون ناشر) .

٨٢ — الدكتور عبد الحليم محمود : منهج الاصلاح الاسلامى فى المجتمع — مطبوعات دار الشعب بالقاهرة — يونيه ١٩٧٧ م .

٨٣ — عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة — الطبعة الأولى — مطبعـــة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م .

٨٤ — دكتور عبد العزيز الخياط : المجتمع المتكافل فى الاسلام — مؤسسة الرسالة ومكتبة الأقصى — ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .

٨٥ — دكتور عبد الغنى عبود : الأسرة المسلمـــة ، والأسرة المعاصرة — الكتاب الثامن من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعـــة الأولى — دار الفكر العربى — يونية ١٩٧٩ .

٨٦ — دكتور عبد الغنى عبود : الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراســـة التربية المقارنة — الطبعة الثالثة — دار الفكر العربى — ١٩٨٠ .

٨٧ — دكتور عبد الغنى عبود : التربيـــة ومشكلات المجتمع — الطبعـــة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٨٠ .

٨٨ — دكتور عبد الغنى عبـــود : الحضارة الاســـــلامية ، والحضارة المعاصرة — الكتاب الحادى عشر من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — فبراير ١٩٨١ .

٨٩ — دكتور عبد الغنى عبود : الملامح العامة للمجتمع الاسلامى — الكتاب التاسع من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — فبراير ١٩٨٠ .

٩٠ — دكتور عبد الغنى عبود : أنبياء الله ، والحياة المعاصرة — الكتاب السادس من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — سبتمبر ١٩٧٨ .

٩١ — دكتور عبد الغنى عبود : دراسة مقارنة ، لتاريخ التربية — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ .

٩٢ — دكتور عبد الغنى عبود : قضية الحرية ، وقضايا أخرى — الكتاب السابع من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — يناير ١٩٧٩ .

٩٣ ــ عبد الفتاح الديدى : فلسفة هيجل ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ ١٩٧٠ .

٩٤ ــ الشهيد عبد القادر عودة : الاسلام بين جهل أبنائه ، وعجز علمائه ــ المختار الاسلامى ، للطباعة والنشر والتوزيع ــ ١٣٩٦ هـ ــ ١٩٧٦ م .

٩٥ ــ الدكتور عبد الله عبد الدائم : تاريخ التربية ــ من منشورات كلية التربية بجامعة دمشق ــ مطبعة جامعة دمشق ــ ١٩٦٠ .

٩٦ ــ عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الاسلام ، من القرن الأول الى القرن الرابع عشر (١٠٠ هـ ــ ١٣٧٠ هـ) ــ الطبعة الثانية ــ مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز بمصر ــ ١٣٨٢ هـ ــ ١٩٦٢ م .

٩٧ ــ الدكتور عبد المنعم ابو بكر : اخناتون ــ رقم (٣٥) من (المكتبة الثقافية) ــ وزارة الثقافة والارشاد القومى ــ الادارة العامة للثقافة ــ دار القلم بالقاهرة ــ ١٥ ابريل ١٩٦١ .

٩٨ ــ دكتور عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، فى العصور الوسطى ــ الطبعة الثالثة ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ ١٩٧٣ .

٩٩ ــ عصر الأيدولوجية ــ مجموعة من المقالات الفلسفية ، قدم لها : هنرى د. أيكن ــ ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ــ مراجعة الدكتور عبد الرحمن بدوى ــ رقم (٤٨٩) من (الألف كتاب) ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ ١٩٦٣ .

١٠٠ ــ الدكتور على عبد الحليم محمود : الغزو الفكرى ، وأثره فى المجتمع الاسلامى المعاصر ــ الطبعة الأولى ــ دارالبحوث العلمية ــ الكويت ــ ١٣٩٩ هـ ــ ١٩٧٩ م .

١٠١ ــ د. على محمد جريشة ، ومحمد شريف الزيبق : أساليب الغزو الفكرى ، للعالم الاسلامى ــ الطبعة الأولى ــ دار الاعتصام بالقاهرة ــ ١٣٩٧ هـ ــ ١٩٧٧ م .

١٠٢ ــ الدكتور عماد الدين خليل : التفسير الاسلامى للتاريخ ــ الطبعة الأولى ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ كانون الثانى (يناير) ١٩٧٥ .

١٠٣ ــ فتحية حسن سليمان : التربية عند اليونان والرومان ــ مكتبة نهضة مصر (بدون تاريخ) .

١٠٤ — الدكتور فهمى جدعان : أسس التقدم ، عند مفكرى الاسلام ، فى العالم العربى الحديث — الطبعة الأولى — المؤسسة العربية ، للدراسات والنشر — بيروت — كانون الثانى (يناير) ١٩٧٩ .

١٠٥ — فيليب هـ. فينكس : التربية والصالح العام — ترجمة السيد محمد العزاوى والدكتور يوسف خليل — مراجعة محمد سليمان شعلان — تقديم السيد يوسف — الجمهورية العربية المتحدة — وزارة التربية والتعليم — ١٩٦٥ .

١٠٦ — فيليب هـ. فينكس : فلسفة التربية — ترجمة وتقديم الدكتور محمد لبيب النجيحى — دار النهضة العربية — ١٩٦٥ .

١٠٧ — قرآن كريم .

١٠٨ — ك. م. بانيكار : آسيا ، والسيطرة الغربية — ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد — مراجعة أحمد خاكى — من الفكر السياسى والاشتراكى — الجمهورية العربية المتحدة — وزارة الثقافة والارشاد القومى — الادارة العامة للثقافة — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ .

١٠٩ — كتاب التدبير ، لابن سينا (٣٧٠ — ٤٢٨ هـ) — نشره الأب لويس معلوف اليسوعى — **مجلة الشرق** — السنة التاسعة — العدد ٢١ (سنة ١٩٠٦) .

١١٠ — « كتاب تخليص الابريز ، فى تلخيص باريز » ، أو « الديوان النفيس ، بايوان باريس » — من **الأعمال الكاملة ، لرفاعة رافع الطهطاوى** — دراسة وتحقيق : محمد عمارة — الجزء الثانى (السياسة والوطنية والعربية) — الطبعة الأولى — المؤسسة العربية ، للدراسات والنشر — بيروت — تشرين أول (اكتوبر) ١٩٧٢ .

١١١ — « كتاب مناهج الألباب المصرية ، فى مباهج الآداب العصرية » — من : **الأعمال الكاملة ، لرفاعة رافع الطهطاوى** (المرجع السابق) .

١١٢ — كلنتون هارتلى جراتان : البحث عن المعرفة ، بحث تاريخى فى تعلم الراشدين — ترجمة عثمان نويه — تقديم صلاح دسوقى — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٢ .

١١٣ — كنت كراج : « التأثير الفكرى للشيوعية ، فى الاسلام المعاصر » — **الثقافة الاسلامية ، والحياة المعاصرة** — مجموعة البحوث ، التى قدمت لمؤتمر برنستون ، للثقافة الاسلامية — جمع ومراجعة وتقديم : محمد خلف الله — مكتبة النهضة المصرية (بدون تاريخ) .

١١٤ — كولن ويلسون : ما بعد اللامنتحى « فلسفة المستقبل » — نقلها الى العربية : يوسف شرورو ، وعمر يمق — الطبعة الأولى — منشورات دار الآداب — بيروت — نيسان (ابريل) ١٩٦٥ .

١١٥ — ماركس وانجلس : بيان الحزب الشيوعى — دار التقدم — موسكو — ١٩٦٨ .

١١٦ — الامام محمد أبو زهرة : فى المجتمع الاسلامى — دار الفكر العربى (بدون تاريخ) .

١١٧ — محمد أسد : منهاج الاسلام فى الحكم — نقله الى العربية : منصور محمد ماضى — الطبعة الثانية — دار العلم للملايين — بيروت — كانون الثانى ١٩٦٤ .

١١٨ — الدكتور محمد البهى : الاسلام ، فى حل مشاكل المجتمعات الاسلامية المعاصرة — الطبعة الثانية — مكتبة وهبة — ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

١١٩ — الدكتور محمد البهى : الاسلام فى حياة المسلم — الطبعة الخامسة — مكتبة وهبة — رجب ١٣٩٧ هـ — يونيه ١٩٧٧ م .

١٢٠ — الدكتور محمد البهى : الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر (مشكلات الحكم والتوجيه) — الطبعة الثانية — دار الكتاب اللبنانى — ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م .

١٢١ — محمد الحسنى : الاسلام الممتحن — تقديم المفكر الاسلامى الكبير ، أبو الحسن الندوى — الطبعة الأولى — المختار الاسلامى ، للطباعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م .

١٢٢ — محمد الغزالى : فقه السيرة — مطابع على بن على — الدوحة — قطر (بدون تاريخ) .

١٢٣ — الدكتور محمد حسين هيكل : الحكومة الاسلامية — دار المعارف بمصر — ١٩٧٧ .

١٢٤ — مولاى محمد على : الاسلام ، والنظام العالمى الجديد — ترجمة احمد جودة السحار — الطبعة الثانية — لجنة النشر للجامعيين — مكتبة مصر (بدون تاريخ) .

١٢٥ — محمد قاسم ، وحسين حسنى : تاريخ أوربا الحديثة ، من عهد النهضة الأوربية ، الى نهاية عهد الثورة الفرنسية ونابليون — المطبعة الأميرية ببولاق — القاهرة — ١٩٣٤ .

١٢٦ — محمد مظهر الدين صديقى : ما هو الاسلام — رقم (٣) من سلسلة (نحو وعى اسلامى) — المختار الاسلامى — ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

١٢٧ — مختار الصحاح ، للشيخ الامام ، محمد بن ابى بكر بن عبد القادر الرازى — شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر — ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م .

١٢٨ — مصطفى أمين : تاريخ التربية — الطبعة الأولى — مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر — ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٥ م .

١٢٩ — مصطفى صادق الرافعى : وحى القلم — الجزء الثانى — الطبعة السابعة — المكتبة التجارية الكبرى (بدون تاريخ) .

١٣٠ — مصطفى صادق الرافعى : وحى القلم — الجزء الثالث — الطبعة السابعة — المكتبة التجارية الكبرى (بدون تاريخ) .

١٣١ — مصطفى محمود : الماركسية والاسلام — دار المعارف بمصر — ١٩٧٥ .

١٣٢ — مصطفى محمود : لماذا رفضت الماركسية ، حوار مع خالد محيى الدين — المكتب المصرى الحديث — ١٩٧٦ .

١٣٣ — ميرزا محمد حسين : الاسلام وتوازن المجتمع — ترجمة فتحى عثمان — رقم (٣٥) من (سلسلة الثقافة الاسلامية) — دار الثقافة العربية ، للطباعة — ذو القعدة ١٣٨١ هـ — مايو ١٩٦٢ م .

١٣٤ — ناجى معروف : أصالة الحضارة العربية — الطبعة الثانية — مطبعة التضامن — بغداد — ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .

١٣٥ — هـ. أ. ر. جب وآخرون : وجهة الاسلام ، نظرة فى الحركات الحديثة فى العالم الاسلامى — اشرف على تحريره : الأستاذ (جب) — ونقله عن الانجليزية : محمد عبد الهادى أبو ريدة — المطبعة الاسلامية — ١٩٣٤ .

١٣٦ — هـ . أ . ل . فشر : تاريخ أوربا ، فى العصر الحديث (١٧٨٩ — ١٩٥٠) — تعريب أحمد نجيب هاشم ، ووديع الضبع — جمعية التاريخ الحديث — دار المعارف بمصر — ١٩٥٨ .

١٣٧ — هـ . هـ سوينرتون : الأرض من تحتنا — ترجمة الدكتور محمد يوسف حسن ، والدكتور فتح الله عوض — راجعه الدكتور جلال الدين حافظ عوض — رقم (٥٩٢) من (الألف كتاب) — مؤسسة سجل العرب — ١٩٦٦ .

١٣٨ — الدكتور هارى نيكولز هولمز : قصة الكيمياء ، من خلال انبوبة الاختبار — ترجمة الدكتور الفونس رياض ، والدكتور عبد العظيم عباس — مراجعة الدكتور عبد الفتاح اسماعيل — رقم (٢٨٤) من (الألف كتاب) — مكتبة نهضة مصر ومطبعتها (بدون تاريخ) .

١٣٩ — وحيد الدين خان : الاسلام يتحدى ، مدخل علمى الى الايمان — ترجمة ظفر الاسلام خان — مراجعة وتقديم دكتور عبد الصبور شاهين — الطبعة الخامسة — المختار الاسلامى — ١٩٧٤ .

١٤٠ — وحيدالدين خان : حكمة الدين ، تفسير عناصر الاسلام ومقتضياته — ترجمة ظفر الاسلام خان — الطبعة الاولى — المختار الاسلامى ، للطباعة والنشر والتوزيع — ١٩٧٣ .

١٤١ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول (نشاة الحضارة) — ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التاليف والترجمة والنشر — ١٩٤٩ .

١٤٢ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث (الهند وجيرانها) — ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التاليف والترجمة والنشر — ١٩٥٠ .

١٤٣ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثانى من المجلد الأول (الشرق الأدنى) — ترجمة محمد بدران — الطبعة الثانية — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التاليف والترجمة والنشر — ١٩٥٦ .

١٤٤ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الرابع من المجلد الأول (الشرق الأقصى) (الصين) — ترجمة محمد بدران — الطبعة الثانية — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التاليف والترجمة والنشر — ١٩٥٧ .

١٤٥ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول ، من المجلد الثانى (حياة اليونان) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التاليف والترجمة والنشر — ١٩٥٣ .

١٤٦ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثانى ، من المجلد الثانى (حياة اليونان) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التاليف والترجمة والنشر (بدون تاريخ) .

١٤٧ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث ، من المجلد الثانى (حياة اليونان) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التاليف والترجمة والنشر — ١٩٥٤ .

١٤٨ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الثالث (٩) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التاليف والترجمة والنشر — ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م .

١٤٩ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثانى من المجلد الثالث (١٠) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التاليف والترجمة والنشر (بدون تاريخ) .

١٥٠ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث من المجلد الثالث (١١) (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٥ .

١٥١ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الأول ، من المجلد الرابع (١٢) (عصر الايمان) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر (بدون تاريخ) .

١٥٢ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثالث ، من المجلد الرابع (١٤) (عصر الايمان) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٦ .

١٥٣ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الرابع ، من المجلد الرابع (١٥) (عصر الايمان) — ترجمة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٧ .

١٥٤ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجـزء الخامس ، من المجلد الرابع (١٦) (عصر الايمان) — ترجمـة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر (بدون تاريخ) .

١٥٥ — ول ديورانت : قصة الحضارة — الجـزء السادس ، من المجلد الرابع (١٧) (عصر الايمان) — ترجمـة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٨ .

١٥٦ — ول ديورانت : قصـة الحضارة — الجـزء الأول ، من المجلد الخامس (١٨) (النهضـة) — ترجمـة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٨ .

١٥٧ — ول ديورانت — قصـة الحضارة — الجـزء الثانى ، من المجلد الخامس (١٩) (النهضـة) — ترجمـة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٩ .

١٥٨ — ول ديورانت : قصـة الحضارة — الجزء الثالث ، من المجلد الخامس (٢٠) (النهضـة) — ترجمـة محمد بدران — الادارة الثقافية ، فى جامعة الدول العربية — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٩ .

١٥٩ — الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور القديمة ، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦١ .

١٦٠ — الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى ، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ .

١٦١ — دكتور وهيب ابراهيم سمعان : دراسات فى التربية المقارنة — الطبعة الأولى — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٥٨ .

١٦٢ — يوسف العظم : فصل الدين عن الدولة ، ضلالة مستوردة — اتحاد طلاب جامعة القاهرة (الجماعة الاسلامية) — مطبعة جامعة القاهرة — ١٩٧٧ .

ثانيا : المراجع الأجنبية :

1 — AFANASYEV, A. : Marxist Philosophy. A Popular Outline; Third Edition, Progress Publishers, Moscow, 1968.

2 — ALI, ABDULLAH YUSUF : The Holy Our-an, Text, Translation and Commentary, Volume Two; Hafner Publishing Company, New-York, U.S.A., 1946.

3 — BADRAN, MOHAMMAD and KHORSHID, I. ZAKI : Al-Nahda Dictionary, English — Arabic, Compiled by: ISMAIL MAZHAR; The Renaissance Bookshop (Without date).

4 — COUNTS, GOERGE : The Challenge of Soviet Education McGraw - Hill Book Company, Inc., New York, 1957.

5 — COUPLAND, R. (Selected by) : The War Speeches of William Pitt, the Younger; Third Edition, Oxford, at the Clarendon Press, 1940.

6 — DEWEY, JOHN : Democracy and Education, An Introduction to the Philosophy of Education; The Macmillan Company, New - York, 1916.

7 — DEWEY, JOHN : Education To-day; G. P. Putman's Sons, New - York, 1940.

8 — DUBIN, ROBERT : Human Relations in Administration, with Readings; Third Edition, Prentice-Hall of India Private Limited, New - Delhi, 1970.

9 — FORSTER, LANCELOT : The New. Culture in China, with an Introduction, by : Sir Micheal E. Sadler; Goerge Allen and Unwin Ltd., London, 1936.

10 — GOODSELL, WILLYSTINE : A History of the Familly, as a Social and Educational Institution; The Macmillan Company, New - York, 1923.

11 — GUEST, GOERGE : The March of Civilization; G. Bell and Sons, Ltd., 1951.

12 — HANS, NICHOLAS : Comparative Education, A Study of Educational Factors and Traditions; Third Edition, Routledge and Kegan Paul Limited, London, 1958.

13 — HITLER ADOLF : My Struggle, Number II; The Paternester Library, 1937.

14 — HUDSON, WILLIAM HENRY : The Story of the Renaissance; Goerge G. Harrap & Company Ltd., London, 1928.

15 — KROEBER, A. L. : Anthropology (Race, Language, Culture, Psychology, Prehistory); Revised Edition, Harcourt, Brace and Company, Inc., 1948.

16 — LLOYD, CHRISTOPHER : Democracy and Its Rivals, An Introduction to Modern Political Theories; Longmans, Green and Co., London, 1940.

17 — POSPELOV, P.N. (Edited by) : Vladimir Ilyich Lenin, A Biography; Second Edition, Progress Publishers, Moscow, 19[illegible]

18 — RADWAN, ABU AL-FUTOUH AHMAD : Old and New Forces in Egyptian Education, Proposals for the Re-construction of the Program of Egyptian Education, in the Light of Recent Cultural Trends; Bureau of Publications, Teachers College, Columbia University, New - York, 1951.

19 — SAISSE, LOUIS et CHEHATA, ISKANDAR : Vocabularie, Francais - Arabe; Longmans. Green and Co., Ltd., London, 1951.

20 — SARUP. MADAN : Marxism and Education; Routledge & Kegan Paul, London, 1978.

21 — The Concise Oxford Dictionary of Current English, Edited by : H. W. FOWLER and F. G. FOWLER, based on : The Oxford Dictionary; Fourth Edition, Revised by : E. Mc-INTOSH, Oxford, at the Clarendon Press, 1959.

22 — THUT, I. N. : The Story of Education, Philosophical and Historical Foundations; McGraw - Hill Company, Inc., New-York, 1957.

23 — ULICH, ROBERT : The Education of Nations, A Comparison in Historical Perspective; Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, 1961.

24 — WEST, MICHAEL PHILIP and ENDICOTT, JAMES GARETH : The New Method English Dictionary; Revised Edition, Longmans, Green and Co., London, 1947.

للمؤلف

اولا : من كتب التربية :

١ — **فى التربية المقارنة** — عالم الكتب — ١٩٧٤ (مع الدكتورة نازلى صالح) .

٢ — **الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنة** — دار الفكر العربى — الطبعة الأولى ١٩٧٦ ، والطبعة الثانية ١٩٧٨ ، والطبعة الثالثة ١٩٨٠ .

٣ — **نحو فلسفة عربية للتربية** — دار الفكر العربى (مع الدكتور عبد الغنى النورى) — الطبعة الأولى ١٩٧٦ ، والطبعة الثانية ١٩٧٩ .

٤ — **فى التربية الاسلامية — الجزء الأول** — دار الفكر العربى — ١٩٧٧ .

٥ — **فى التربية المعاصرة** — دار الفكر العربى — ١٩٧٧ (مع الدكتور ابراهيم عصمت مطاوع) .

٦ — **دراسة مقارنة لتاريخ التربية** — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ .

٧ — **ادارة التربية ، وتطبيقاتها المعاصرة** — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ .

٨ — **البحث فى التربية** — دار الفكر العربى — ١٩٧٩ .

٩ — **التربية ومشكلات المجتمع** — دار الفكر العربى — ١٩٨٠ .

١٠ — **الفكر التربوى عند الامام الغـزالى ، كما يبدو من رسالته (ايها الولد)** (تحت الطبع) .

١١ — **فلسفة التعليم الابتدائى وتطبيقاته** — دار الفكر العربى (مع الدكتورين حسن عبد العال ، وشوقى ضيف) (تحت الطبع) .

ثانيا : كتب سلسلة (الاسـلام وتحـديات العصر) (وتصدرها كلهـا : دار الفكر العربى) :

١ — **العقيدة الاسـلامية ، والأيديولوجيات المعـاصرة** — الطبعـة الأولى ١٩٧٦ ، والطبعة الثانية ١٩٨٠ .

٢ — **الله والانسان المعاصر** — الطبعة الأولى ١٩٧٧ ، والطبعـة الثانية ١٩٨١ .

٣ — **الاسلام والكون** — الطبعة الأولى ١٩٧٧ ، والطبعة الثانيـة ١٩٨١ .

٤ — **الانسان فى الاسلام ، والانسان المعاصر** — يناير ١٩٧٨ .

٥ — **اليوم الآخر ، والحياة المعاصرة** — يونية ١٩٧٨ .

٦ — **انبيـاء الله ، والحياة المعاصرة** — سبتمبر ١٩٧٨ .

٧ — **قضية الحرية ، وقضايا اخرى** — يناير ١٩٧٩ .

٨ — **الأسرة المسلمة ، والأسرة المعاصرة** — يونية ١٩٧٩ .

٩ — **الملامح العـامة ، للمجتمع الاسلامى** — فبراير ١٩٨٠ .

١٠ — **ديناميات المجتمع الاسلامى** — يونية ١٩٨٠ .

١١ — **الحضارة الاسلامية ، والحضارة المعاصرة** — فبراير ١٩٨١ .

١٢ — **الدولة الاسلامية ، والدولة المعاصرة** — يونيو ١٩٨١ .

الكتاب التـالى من كتب السلسلة :

اليهـود ، واليهـودية ، والاسـلام

يصـدر فى مطلع العـام القادم باذن الله .

رقم الايداع ٣٨٤٢ / ٨١ .